THE BOOK WAS DRENCHED

UNIVERSAL
LIBRARY

OU_190894

UNIVERSAL
LIBRARY

الفضيلة

أو

بول وڤرجيني

للكاتب الفرنسي الشهير

برناردين دي سان بيير

ملخصة بقلم

مصطفى لطفي المنفلوطي

تشتمل على ٣٨ رسماً

« الطبعة الثانية »

أول يناير سنة ١٩٢٤ م

حقوق الطبع محفوظة

تطلب من المكتبة التجارية بأول شارع محمد علي بمصر

لصاحبها مصطفى محمد

المطبعة الرحمانية

بالحمزاوي بمصر رقم ٣٥

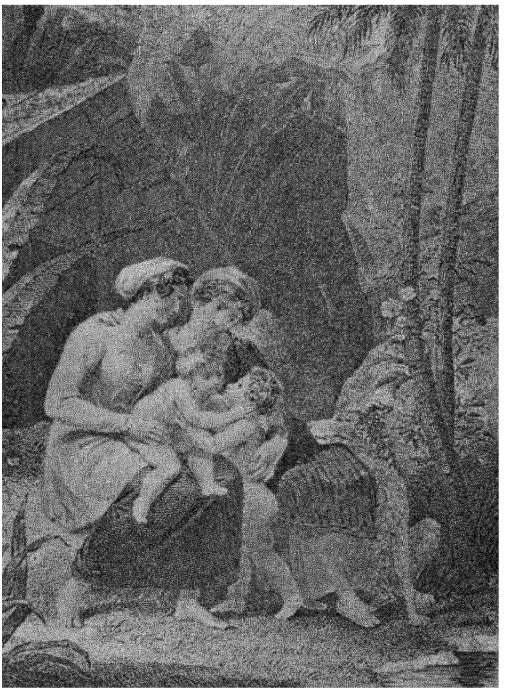


المؤلف

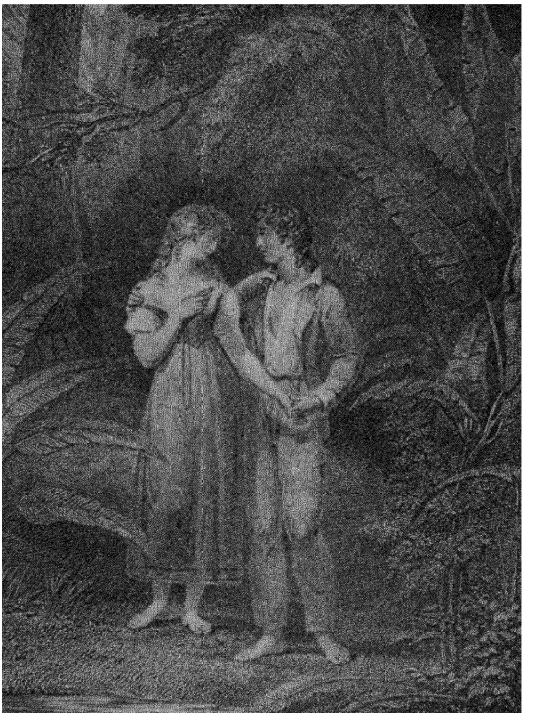
برْنارْدين دى سان بيير



« الشيخ »



پول وڤرچيني
في طفولتهما



پُولْ وڤِرْجِينى
فى صباهما

اهداء الرواية

يعجبنى من الفتى الشجاعة والاقدام ، ومن الفتاة الأدبُ والحياء ، لان شجاعة الفتى مِلاك أخلاقه كلها ، ولان حياء الفتاة جمالها الذى لاجمال لها سواه ، فانا أهدى هذه الرواية إلى فتيان مصر وفتياتها ، ليستفيد كل من فريقيهما الصفةَ التى أحب أن أراها فيه ، وليضعا حياتهما المستقبلة على أساس الفضيلة كما وضعها پول وفِرجينى ؟

مصطفى لطفى

المنفلوطى

ترجمة المؤلف

بقلم العالم الفاضل والكاتب البارع

الاستاذ محمود خيرت المحامى

فى سنة ١٨٥٢ احتفلت حكومة الجمهورية الفرنسية باقامة تمثال من البرنز (صنعه داهيد الشهير) فى إحدى ميادين ثغر الهاقر لرجل جليل عظيم الهيبة تتألق ملامحه بالبشر والنور وتفيض عيناه بالوداعة واللطف وهو ممسك باحدى يديه قرطاسا وبالاخرى قلماً وعند قدميه صبى وصبية عاريان يتصافحان تحت ظل شجرة من أشجار المناطق الحارة

من هما ذانك الصبيان المتصافحان ؟ وما معنى تلك الشجرة التى ليست من نبات هذه البلاد ؟ وما عسى أن

يكون ذلك الرجل الذى كتب له الحظ أن يكون محلا لعناية « داڤيد » واهتمام الجمهورية ؟

أرادت فرنسا بأسرها أن تخلد ذكرى رجل من أبنائها قضى حياته محبا للحرية واستقلال الرأى ، وان ناله بسببهما الأذى ، منقباً عن الحكمة وهو يتفانى فى تمجيدها ، عاشقاً للطبيعة وهو يتغنى بمحاسنها ، ينسق قلمه القدير كل يوم للأدب إكليلا يانعا من أزاهير الجمال ، وتسمو به نفسه الطاهرة الأبية إلى سماء الأنسانية للعمل على تخفيف ويلات البشر وآلامه ، فكان رجلا ذكيا عالى الهمة حكيما كبير النفس يعرف للطبيعة حقها وفضلها كاتباً فذاً جم الشعور ملأت فراغ قلبه فيوض الرحمة بالبشر إلى حد يجعله فى صف القديسين

وما كان هذا الرجل بحاجة الى أثر يخلده وفى رأسه وقلمه ونفسه مثل تلك الآثار الخالدة يحيا بها على تعاقب السنين

٢

ولد برناردين دى سان بيير فى التاسع عشر من شهر يناير سنة ١٧٢٧ بالهاڤر من أبوين كانا يدعيان اتصالهما بالنبيل أوستاش دى سان بيير حتى انه ولع من صغره بهذه النسبة فانتحل لنفسه لقب (شڤالييه) وأخذ يحلى صدره بأوسمة يصنعها بنفسه تتفق مع شرف هذا اللقب

ولقد كان فى صباه رقيق المشاعر عصبي المزاج كثير الجرى وراء الخيال حتى طمحت نفسه إلى تأسيس جمهورية واسعة من طائفة العائرين البائسين يكون هو واضع شريعتهم ومنظم حياتهم ليضمن لهم سعادة العيش فكان فى هذا الخاطر مثل جان جاك ، الا أن هذا كان يرى أن يعود الناس إلى فطرتهم الاولى طاهرين من الارجاس خالصين من الأدران فيعيشون عيشة صافية هنية فى ظل شريعة الكون العامة التى سنها الخالق ، أما برناردين

فكان يرى أن يضع لهم نظاما جديداً يحارب به قسوة الحياة الحالية وويلاتها

ولكنه كان لايزال طفلا قليل الحول والحيلة حتى أن أحد أعمامه وكان قبطانا لسفينة تجارية أخذه معه إلى جزر المارتينيك ولكنه عاد منها مثقلا بالهموم وكراهية العيش فسلمه أبوه لجزويت كاين

وعند ذلك عادت تلك الفكرة السامية إلى رأسه الصغير لما كان يسمعه من أحاديث المبشرين عن رحلاتهم فى البلاد المتوحشة حتى تمنى لو أنه يقفو أثرهم فيهدى إلى سبيل السعادة فريقا من عباد الله الاشقياء الجاهلين

على أن أباه عجل بنقله إلى مدرسة روين ثم إلى مدرسة الهندسة ثم التحق بعد ذلك بالجيش ولكنه كما ذكرنا كان عنيداً لايسمع غير صوت نفسه وان خرج فى ذلك عن حدود الواجب حتى أن رئيسه عقد مجلساً لتأديبه ثم أوقفه

ولقد أراد بعد ذلك أن يقصد مالطه لتلمس الرزق فيها ولكنها كانت مهددة باغارة من جانب الاتراك فعاد أدراجه وأخذ يعيش من بعض دروس فى الحساب يعطيها لمريديه

وهكذا أحدق به الهم وعضه الفقر والتوى عليه سبيل الهناء ولم يجد عند أحد صدراً يسعه فى محنته ولا قلباً يحنو عليه فى كربته فاحتقر الحياة وكره الناس وآثر العزلة على البقاء فى هذا العالم القاسى قائلا : « إن العزلة جبل عال ترينى قمته الناس صغاراً »

على انه لم يعدم صدراً آخر يفيض عليه من حنوه الابدى الخالد هو صدر الطبيعة فاستنام اليها وأحبها وفنى فى عشقها

ولقد حببها اليه أيضاً انه رأى ذات يوم عوداً هزيلا من « الفراولة » نبت على حافة نافذته فاما أخذ يتأمله فام فى نفسه أن يصفه بكل دقائقه ويصف ماحوله من حشرات

صغيرة وذباب ولكن ذلك استعصى عليه وقد رأى تلك الحشرات تصغر شيئاً فشيئاً الى حد أعجزه عن متابعتها ، وعند ذلك أدرك مقام الطبيعة وعظمتها فهام بها

وان نفساً مثل نفس برناردين لاتعرف اليأس فعزم على الهجرة من وطنه إلى غيره من بلاد الله وهو مع ذلك لا يكرهه ولا يحقد عليه « لان من أحب وطنه تغرب فى سبيله » كما قال فى ترجمة حياته

وكانت فكرة إصلاح المجتمع قد اختمرت فى رأسه فسافر الى روسيا لعله يجد عند ملكتها كاترين مايساعده على اخراجها الى نور الوجود على شواطئ بحر قزوين ولكن سهمه طاش فارتحل الى فنلندا ثم الى بولونيا فألمانيا فصحارى أمريكا العليا فمدغشقر حتى انتهى به المطاف عند جزيرة « موريس » التى كتب عنها روايته ، ولكنه فى كل هذه الأدوار كان سوء الحظ حليفه فاضطر إلى العودة لوطنه ثانيا وهو ينوء تحت حمل الأحزان والديون ذاهباً الى أن العيب

لم يكن على النظم التى تشرع للناس ولكن على نفس القائمين بها

وكان فى أسفاره لا يكاد يرفع طرفه عن الطبيعة التى طالما أحبها وشغف باكتناه أسرار جمالها ولكنه كان يغلب عليه فى تفهمها مزاجه الشعرى وهو يعتقد أن خواطره ليست هى التى تتجه إلى الطبيعة ولكنها هى التى توجه اليها آلاف الاشكال المختلفة الرائعة ، وهكذا كان بغرس على طول طريقه بذور خيالاته فيحظى من الطبيعة بكل ثمرة شهية وهو يرى فى كل ذرة من ذراتها نفساً حية ناطقة حتى صهره البحث وأنضجته التجربة

ولكن شقاء الحظ جرعه آخر ما فى كأسه فعاد كما ذكرنا وهو يقول فى نفسه : « لقد أصبح الناس لا يعرفون قدر الاحسان فكيف رفعتهم الأقدار ، ولكن حسبى أن التجربة أصارتنى هرماً فأصبحت لا أطمع فى غير الراحة »

نعم أنه أحس بعزمه قد وهن ، وكأن الشاب الطامح

الى لقاء الحوادث ومجالدتها قد ذاب فيه وفنى وهو مع ذلك لايتجاوز الثلاثين من عمره ، أضف الى ذلك ما آلت اليه حاله من الفاقة والبؤس ففكر فى وضع كتاب عن تلك الجزر التى زارها وما شاهد فيها ودون فى مذكراته عنها

ولكن كتابه الذى كان يظن أنه وضع به أساس مجده لم يصادف الا نجاحا قليلا لانه أفسد عليه قلوب الحكام بما ذكره فيه من خلل إدارة المستعمرات وفساد نظامها

الا أن هذا السفر قد أكسبه الاتصال بكتاب عصره وفلاسفته فعرفوه وعرفهم ولكنه لم يلبث أن أنكرهم لانه أدرك انهم كغيرهم قوم لايعرفون معنى العدل والحق الذين كانا دعامة خلقه حتى إنه قاطعهم وهجرهم لان المشوكة واحدة كما كان يقول تنسى المرء لذة مائة وردة يشمها ، ولذلك عمد الى مادونه من ابحاثه فى الطبيعة فجمعها فى كتاب نشره على الناس على ما بها من التفكك وعدم الارتباط ، ولكن هذا الكتاب الناقص أو تلك الاطلال الدوارس كما

كان يسميها كانت وحدة معنوية حية خيراً مائة مرة من أية وحدة عامية لانها تمثل جلال القدرة حاضرة دائما فى الذهن ماثلة للعين حتى إن نجاحه كان فوق ما أمله فعرف الناس قدره وأحبوه

وهكذا أمكنه أن نزحزح عن نفسه شيئاً من أحمال شقائه فابتاع منزلا صغيرا اختاره فى طريق ضيق يسكنه الفقراء حتى يشعر أنه بين أفراد عائلته الطبيعية وعلى مقربة من حديقة الحيوانات كى لايحرم من متابعة أبحاثه

٣

ولقد كان من نتائج تلك التجاريب الطويلة الشاقة أن برناردين اعتقد أن سعادة الانسان قائمة على سلوك سبيل الحياة حسبما تتطلبه الطبيعة والفضيلة وأن الفضيلة العامة مهما بلغ من اتساعها فان مكانها المكان الاول فى نفس كل فرد ، ولذلك عدل عن فكرة الجمهورية التى حاول انشاءها

واقتصر على وصف حياة بعض الاسر المنزوية فى ظلال الوحدة تتذوق طعم النعيم فى حجر الطبيعة وعند بساطة الفضيلة

وهكذا ظهر سفره الخالد (پول وڤرجينى) فهز أوتار المشاعر وملك أزمة القلوب وكان فجراً لليل الادب وتاجا على رءوس الاقلام وشعلة صافية باردة فاض بها فؤاده الذى غمرته الفضيلة والصبر والرحمة ، وكان لظهوره تأثير عظيم فى جميع أنحاء فرنسا فابكى كل عين وصعد كل زفرة ، ولم تبق أسرة ولد لها ولد الاسمته پول أو ابنة الا سمتها ڤرجينى

وكان أكبر ما أثر فى نفوس الناس من هذه الرواية أن حوادثها صحيحة ليس فيها من الخيال الا النسق والترتيب ، فقد قال مؤلفها فى مقدمتها « إنى لم أتخيل قصة روائية أصور فيها حياة سعيدة تمتعت بها أسرة أوربية فى وسط ذلك القفر ، بل يمكننى أن أقول ان أشخاص هذه الرواية قد عاشوا حقيقة فى تلك الاصقاع وتمتعوا بالسعادة التى وصفتها وإن تاريخهم فى مجمله صحيح شهد به كثير من سكان

تلك الجزيرة ولم أضف عليه الا بعض جزئيات ليست بذات بال »

وقد تنبأ بمبلغ تأثير روايته فى النفوس قبل ظهورها فقال « أردت عند ماوضعت هذه الرواية أن أعرف مقدار تأثيرها فى القراء على اختلاف درجاتهم ومراتبهم ومشاربهم وميولهم ، فتلوتها على بعض السيدات الجميلات المتأنقات فبكين ، ثم تلوتها على بعض الشيوخ المحافظين الرزينين فبكوا ، فعلمت أنى قد كتبتها للناس جميعا ، وأرضانى هذا الحكم الصامت كل الرضا » على أن هذا السفر اذا كان قد هز عالم البيان الى هذا الحد فانه لم يكن ابن يومه ، وانما كان ثمرة مجهود بطىء طويل حتى خرج للناس من ظلمات الفكر الى فضاء الحقيقة وعليه ثوب ذلك الشباب القشيب فهو كأنه ليس من عمله بل من عمل الطبيعة التى تضع بذورها فى السكون وتنضجها فى الظل فاذا وافى اليوم الذى تظهر ثمرتها فيه أخذت بالالباب والابصار

وكثيراً ما كان يسأله الناس كيف وضعه وكيف انتهى منه فيقول لهم حسبكم انه أعجبكم فلا تضعوا بهذه الاسئلة غشاوة على أعينكم تحجب عنها لذة السرور الذى شعرتْ بهوالا كان مثلكم كمثل الطفل يقع نظره على وردة فيذهب خاطره إلى محاولة الاهتداء لكيفية صنعها وعند ذلك ينثرها ورقة ورقة حتى إذا بلغ غايته لايرى أمامه شيئاً

على أن جمال الكتاب يجعل الحيارى من السائلين فى حل من موقفهم هذا فهم معذورون إذا تساءلوا عن زهرة هذا السفر القيم كيف نشأت ، وعلى أى طريقة نبتت ، وبناء أى خاطر متقد سقيت ، وتحت أى مؤثر من مؤثرات النفس أينعت ، ففاضت على الاجيال بالاريج والالوان والجمال

ولكن عناصر مثل هذا العمل الكبير دفينة فى نفس حياة الكاتب اذا صح أن كل مؤلف يتمثل فى سطوره

على أن برناردين اذا كان لم يخلق كاتباً فان المشاهدة والتجربة والدرس هذّبت قلمه وأنضجته ، حتى اذا انقضت

حياته هزيلة بائسة طائرة فى مهاب الحوادث وقد أحاطتها الايام باطار من الشيخوخة لم ير له بديلا منهـا إلا نفثات قلمه بين سطور هذا السفر الفياض . ولذلك قال عنه بعض قارئيه : « ليست هذه الرواية أثرا للكاتب وانما هى أثر خالد للغة الفرنسية »

على أن الرواية وان كانت لم تقم الاعلى وصف الطبيعة الجافة الخشنة فان القارئ لا يكاد ينتهى منها حتى يشعر بدبيب النشوة فى مفاصله لا لترتيب أشخاصها أو غرابة حوادثها ولكن لقدرة برناردين على وصف أخلاق أهل القرى السهلة بعباراته الساحرة الجذابة فهى التى أنطقت الطبيعة الجامدة وجعلت من الكمال تمثالا حياً قدسياً خالداً حتى أن بعض قرائه صاح وقد هزه الطرب « إننى لا أرى هنا غير أكواخ بسيطة وأعواد خشنة ولكننى أرى حولها وجوها ضاحكة مستبشرة وقلوباً تسيل سعادة وهناء » وحتى قال شاتوبريان « ان السحر الذى يتشعع من سطور

هذا الكتاب ليس غير عظمة تتلألأ فى ثناياه تحكى تألق القمر فوق عزلة مزدانة بالزهور »

ولقد كان ختام كفاح برناردين بعد ماحاربته الليالى وخاصمه الحظ أن عرف قدره أولئك الذين جهلوه حتى توجهت اليه عناية لويز السادس عشر فقلده إدارة حديقة النباتات ومتحف التاريخ الطبيعى ، واذا كانت الثورة قد أفقدته هـذا المركز وسلبته تلك النعمة التى أصبح فيها فان نابوليون بونابرت شمله برعايته وغمره باحسانه فأنساه مرارة الايام الماضية كما أنه قلده وسام الشرف فلم يعد فى حاجة الى تلك الاوسمة الخيالية التى كان يحلم بها فى صباه وكان اذا قابله قال له « متى تؤلف لنا يابرنادين رواية ثانية »

هذه هى رواية پول وڤرجينى وهـذا هو كاتبها الذى كان يقول فى أول أمره « إن انكار الناس لجميلى والأحزان التى لاتفارقنى وضآلة مرتزقى وآمالى الضائعة ، كل هذه المصائب تجمعت لتحاربنى فأفسدت علىّ صحتى

وأزاغت صوابي حتى أن كل مايقع تحت بصرى أصبحت أراه متحركا مضاعفاً كأننى أوديب الملك أرى شمسين »

فأصبح يقول : « هكذا بعد ما قاست سفينة حياتي من زعازع الحوادث أخذت تتقدم آمنة مطمئنة الى بر السعادة »

محمود خيرت

١
جزيرة موريس

هى إحدى الجزر الافريقية الواقعة فى المحيط الهندى على مقربة من جزيرة « مدغشقر » وعلى مدى غير بعيد من جزائر «سيشيل» وهى جزيرة قفراء بلقع الا قليلا من السكان السود متفرقين فى جبالها وغاباتها يسعبدهم بضعة أفراد من المهاجرين الاوروبيين النازلين بينهم ويسخرونهم فى حراثة الارض واستنباتها واستخراج معادنها واستنباط أمواهها وتقليم أشجارها كما هو شأن المستعمرين الاوروبيين فى جميع الاصقاع التى يعيشون فيها

***

يَرى المقبل على هذه الجزيرة ثم فى الجبل القائم خلف عاصمتها « بورلويس » واديا مستطيلا مسوّرا بسور طبيعى من الآكام والصخور قد تراءت فى وسطه أطلالُ كوخين دارسين لم يبق منهما إلا أنصاف جدرانهما ، وبضعة جذوع ناخرة سوداء متناثرة حولهما ، ويرى الأرض

لمحيطة بهما مختلفةَ الالوان ما بين سوداء وخضراء وصفراء، مختلفةَ السطوح ما بين أنجاد وأغوار، وأحافير وأخاديد، ومنعرَجات ومستدَقات، الى كثير من الجداول والغُدران القائمة والمتداعية، كانما كان يعيش فيها قبل اليوم قومٌ يتولون حرثها وزرعها وتقسيمها وتخطيطها، ثم ضربها الدهر بضرباته فرحل عنها ساكنوها أو رحلوا عن العالم بأجمعه

ولم يكن لذلك الوادى على اتساعه وانفراجه الافَجوة[1] واحدة من ناحيته الشمالية، وعلى يساره ذلك الجبل العظيم الذى يسمونه جبل الاستكشاف، لانهم كانوا يرقبون من قمته السفن القادمة الى الجزيرة، وبسفحه تقع مدينة « پورلويس » قصبةُ الجزيرة ومقر حاكمها الفرنسى. وهى مدينة صغيرة نصفُ متحضرة يتفرع من يمينها طريق لاحبٌ[2] عريض ينتهى بضاحية « پمپلموس » وهناك الكنيسة المسماة

(١) الفجوة الفتحة
(٢) اللاحب الواضح

بهذا الاسم قائمةٌ بماشيها المتدرجة المتصاعدة المحفوفة بأشجار الخيزُران وسَطَ سهل أفْيَحَ فسيح ، ثم الحرجات والآجام بعد ذلك منبسطة ممتدة الى ساحل البحر ، حيث يُرى هناك خليج « تومبو » أى خليج القبر ، وعلى يمينه رأس يسمى « كاب ماليرو » أى الرأس البائس ، ثم الخضمُ الفسيحُ بعد ذلك تنتشر على صفحته عدة جزر صغيرة مقفرة كأنها السفن السابحة على سطح الماء ، وأكبر ما فيها جزيرة « كوان دمير » تتهادى بينها كأنها البرج العظيم

*
* *

ولا يزال يَسمع المقبل على ذلك الوادى حين يدنو منه عصف الرياح الضاربة فى بطون الجبال وأحشاء الغابات وذوائب الأشجار . ودمدمةَ الامواج المتوثبة على صخور الشاطئ وهضابه ، حتى إذا وصل إلى مكان الكوخين انقطع عن سمعه كل شيء ، فلا يحس إلا صدًى ضعيفاً

لحفيف سعف النخل ولا يسمع الا وسوسة الامطار المتساقطة برفق ولين على رءوس الصخور الملساء. فترسم على جوانبها المكسوة بالطُحلب ألوان الطيف[١] ثم تنحدر عنها متسلسلةً الى حيث تَسقى أحواض الازهار المهملة التى لاتمتد اليها يد ، ولا يقتطفها مقتطف، ثم تفضى بعد ذلك إلى الغدران والاقنية فتمدها بالجمّ الكثير من أمواهها ، وإلى خمائل الاشجار ولفائف الاعشاب ، فتنسرب فى أحشائها انسراب الافاعى الرقطاء فى بطون الرمال ، ولا يَرى بين يديه إلا هضابا شماء قد نبتت فى سفوحها وعلى قممها وبين فروجها مجاميع الاشجار الباسقة التى تعابث أشعةُ الشمس أوراقَها الخضراء المترعرعةَ ، وتكسوها بما شاءت من ضروب الألوان ذهبيِّها وفضيِّها ، وأُرجوانيِّها ونارِيِّها ، ولا تنحدر الى قاع الوادى وتتبسط فى أرجائه الا وقت الظهيرة ، فاذا أدبر النهار وطفلت[٢] الشمس للاياب كان منظر الاصيل

(١) الوان الطيف هى الالوان المنبعثة عن أشعة الشمس (٢) طفلت الشمس أى دخلت فى الطفل بالفتح أى الاصيل

أبدعَ منظر رآه الرائى فى جمال ألوانه، وانسجام ظلاله، ورقة أضوائه، وتلهب أُفقه، وذهاب العين بين أرضه وسمائه فى أبهى من الحلة السيراء[1]، والروضة الغناء، فاذا انحدرت الشمس الى مغربها خيم السكون على كل شىء من ماء وهواء، وكوكب ونجم، واستحال المنظر الى وحشة مخيفة كوحشة القبور، لا نأمة فيها ولا حركة، ولا بارق ولا خافق

٢

الشيخ

كان يلذلى كثيراً أن أختلف الى هـذا المكان الجميل صباحَ مساءَ، وأن أستريح الى منظره الهادىء الساكن، فانى لجالس ذات يوم على صخرة من صخوره العالية أقلب الطرف بين أرضه وسمائه وأفكر فى شأن هـذين الكوخين الدارسين وفيما تنطق به آياتهما من العظات

(١) السيراء المخططة

والعبر ، وآثارهما من الاحاديث والسير ، اذ مر بى شيخ هرم من سكان تلك الجزيرة قد نيّف على السبعين من عمره ، يعتمد على عصا عجراء[1] فى يده ويلبس سراويل واسعة وصِدارا ريفيا بسيطاً وقبعة عريضة من الخوص كشأن سكان تلك الاصقاع ، وله شعر أبيض مستطيل مسترسل على لُتفيه ، وقد تلألأ وجهه الابيض النحيف الضارب الى السمرة بذلك النور الساطع الذى يتلألأ دائماً فى وجوه الريفيين الاتقياء ، نورِ البساطة والطهارة ، والنبل والشرف ، فأنست به وبمنظره الجميل الانيق ، وبدأته بالتحية فرفع رأسه الىّ متوسما وألقى علىّ نظرة هادئة مطمئنة ثم رد تحيتى رداً جميلا ، وكأنما شعر لى بمثل الذى شعرت له به من العطف والود فأقبل نحوى باسما متهللا ، وجلس على صخرة محاذية للصخرة التى أجلس عليها ، وألقى عصاه تحت قدميه ووضع قبعته بجانبه،فأقبلت عليه وقلت له لعلك تعيش فى هذه الجزيرة ياسيدى

(١) عصا عجراء ذات عجر أى عقد فى وسطها



« الشيخ »

منـذ زمن طويل ، قال نعم طويت فيهـا رداء شـبابى ، وهاءنذا أطوى فيها رداء شيخوختى ، وستبرد عظامى غداً تحت صخورها وجنادلها ، قلت هـل لك أن تحدثنى قليلا عن شأن هذين الـكوخين الدارسين وعن من كان يسكنهما قبل أن تعبث بهما يد البلى ، وتعصف بهما عواصف الدهر وأرزاؤه ، فوجم قليـلا وظل صامتاً لايقول شيئاً وقد انتشرت على جبينه اللامع المتلألىء غمامة رقيقة من الهم والاكتئاب، ثم تنهد تنهدة طويلة اختلفت لها أعضاؤه وقال

نعم يابنى إن هذا الوادى الذى تراه اليوم خرابا يباباً لايمر به المـارّ إلا ليقف على ربوعه وأطلاله وقفة المتأمل المعتبر كان منذ عشرين عاماً روضة غناء يعيش فيهـا أقوام سـعداء بأخلاقهم وفضائلهم ما كان يخطر ببالهم ولا ببال من يراهم أن مصيرهم سيكون هذا المصير الذى تراه اليوم ، وإن قصتهم لقصة غريبة مؤثرة تستثير الاشجان، وتستذرف الدموع ، الا أن أبطالهـا ليسوا ملوكا ولا قادة ، ولا من أصحاب القصور والدور ، والحدائق والبساتين ، والمسارح

والملاعب ، والوقائع العظيمة ، والحوادث الجسيمة ، كما هو شأن أبطال الروايات التى تقرؤونها ، بل قوما فقراء مغمورين تقتحمهم العيون ، وتتخطاهم الانظار ، ومن كان هذا شأنهم لايحفل بهم أحد من الناس ، ولا يُعنَى بسماع شيء من أخبارهم وتواريخهم ، لأن الناس لايستطيعون أن يفهموا السعادة الا من الطريق الذى ألفوه واعتادوه ، فهم لايصدقون أن قوماً فقراء متقشفين يعيشون فى أرض قفرة جرداء منقطعة عن العالم بأجمعه قد استطاعوا أن يكونوا سعداء من طريق الفضيلة والبساطة

فأكبرتُ الرجل فى نفسى وأعظمتُه وعلمت انه يحمل بين جنبيه نفساً كبيرة سامية تختلف صورتها عن صورة هذه الاسمال الحقيرة التى يلبسها ، وقلت له نعم ياسيدى انى أعترف لك أننا معشر الاوروبيين لانفهم من معنى السعادة الا ذلك المعنى الذى تقوله ولا نُعجَب بالقصة إلا اذا كان أبطالها أولئك الملوك الظلمة ، والقواد السفاكين ، ولكننا

نستطيع أن نُصغىَ فى بعض الاحايين بلذة وسرور إلى أحاديث الفقراء والبائسين ، ومهما بلغت القسوة بالقلب الانسانى، ونمرت الشهوات شعوره ووجدانه ، فلا بد أن تهبّ عليه من حين إلى حين نفحة من نفحات الفطرة الألهية تنعشه وتوقظ شعوره ،فيستطيع أن يعود الى نفسه قليلا ، وأن يفهم أن فى العالم صنوفًا من السعادة غير التى يعرفها ويألفها ، وربما أكبرَها وأعظمَها، وتمناها لنفسه وود لو طال استمتاعه بها

فقص علىّ قصتك ياسيدى فما أنا لو علمتَ الارجل بائس مسكين قد أخطأته السعادة حيث طلبها فى المدن والحواضر بين الدور والقصور ، فلعله يجدها فى القفر الموحش بين الهضاب والصخور

فوضع يده على جبينه المغضّن كأنما هو يفتش فى طياته عن بعض الذكريات القديمة ،أو يستجمع ما تفرق من شواردها ،وأنشأ يحدثنى ويقول :

٣

مدام دى لاتور

فى عام ١٧٢٦ قدم هذه الجزيرة فتى من « نورماندى » اسمه « مسيو دى لاتور » ليطاب رزقه فى هـذه الجزيرة المقفرة بعـد ما أعياه طلبه فى فرنسا وعجز عن أن يجد له فيهـا معيناً حتى من أهله وذوى رحمـه ، وكانت تصحبه زوجته وهى فتاة نبيلة ، جميلة الصورة ، كريمة الخلق ، طيبة العنصر ، أحبها وأحبته وأراد أن يخطبها الى قومها فأبوها عليه ، لانه كان فقيراً مقلا ، ولانهم كانوا من المـدلّين بأنفسهم وبوفرهم وثرائهم ومكانتهم فى الهيئة الاجتماعية ، فلم يكن ممـا يهون عليهم أن يُصهروا [1] الى رجل ليس من أكفائهم ولا نظرائهم ، فتزوجها سراً بدون مهر وهاجر بها

(١) أصهر اليه صاهره



« مدام دی لاتور »

(هیلین)

الى هذه الجزيرة عله يجد سبيلا الى العيش فيها ، فتركها هنا وسافر الى جزيرة « مدغشقر » ليبتاع منها طائفة من الزنوج يستعين بهم عند عودته على استصلاح بعض الاراضى المهجورة فيقتات منها هو وزوجته ، فلم يُتَحْ له الحظ الذى أراد ، لانه سافر الى « مدغشقر » فى الفصل الذى يَوْبأُ [1] فيه مناخُها ويمتلىء فيه جوها بالحميات والرياح السامة القاتلة فلم يلبث أن اشتكى شَكاةً ذهبت بحياته ، وكان يحمل معه بعض الأثاث وشيئاً من المال فتناهبته الايدى هناك كما هو الشأن دائما فى تراث الغرباء من الاوربيين الذين يموتون بعيداً عن أوطانهم فى تلك الجزر النائية ، فأصبحت امرأته من بعده أرملة مسكينة لاسند لها ولا عضد ولا من يعينها على أمرها الا جارية زنجية كانت قد ابتاعتها عند حضورها ببعض دريهمات ، ولم تكن تعتمد على ما يعتمد عليه أكثر المهاجرين المقيمين فى هذه الجزيرة من عون

(١) وبئت الارض توبأ كثر فيها الوبا

الحاكم ومساعدته ، أو الصلة ببعض أصحاب الجاه والنفوذ ، لانها كانت أجل فى نفسها من ذلك ، ولانها لم يكن يعنيها بعد أن فقدت ذلك الزوج الكريم الذى كان موضع آمالها ووجهة حياتها أن تكون لها صلة مع أحد من الناس كائنا من كان

فأكسبها يأسها هذا قوة وجلدا ، وصحت عزيمتها على أن تعتمد فى حياتها على نفسها ، وأن تتخذلها قطعة من الارض تستصلحها بيدها هى وجاريتها عليها تجد فيها قوتها ومرتزقها

والارض فى هذه الجزيرة على جدبها واقفارها لا يعدم أن يجد فيها الانسان بضع قطع خصبة صالحة للنماء والاستثمار ، ولكنها كانت تريد العزلة والانفراد والفرار بنفسها عن أبصار الناس وأسماعهم ، فتركت المواضع الخصبة الميْثاء وأوغلت فى المجاهل البعيدة تفتش عن قطعة أرض معتزلة فى سفح جبل أو بطن غور أو وراء منقطَع لا يطرقها طارق ، ولا يمر بها سابل [1] حتى وصلت الى هذا المكان

(١) السابل المار فى الطريق المطروقة جمعه سوابل وسابلون

الذى نحن فيه ، فأعجبها منظاره الهادئ المنفرد ، وسكنت نفسُها اليـه سكون الطائر الغريب الى العش المهجور ، وكذلك شأن البائسين المنكوبين ، يشعرون دائما بحاجتهم الى الفرار بأنفسهم من ضوضاء العالم وجلبته الى المعتزلات النائية القصية ، والمواطن الخشنة الوعرة ، كانما يخيل اليهم أن صخورها وهضابها قلاع حصينة يعتصمون بها من كوارث الدهر وأرزائه ، أو كأنما يتوهمون أن هدوءها وسكونها يسرى الى قلوبهم وأفئدتهم فيروِّح عنها بعض مابها ، ويملؤها راحة وسكونا

الا أن العناية الالهية التى تتولى حراسة الانسان وتمده بلطفها وعنايتها من حيث لايقدِّر ولايحتسب وترى له دائما خيراً مما يرى لنفسه أبت أن تسلمها الى وحشتها وكآبتها ، فأتاحت لها صديقة كريمة تؤنس وحشتها ، وتعينها على أمرها

٤

مرغريت

كانت تعيش فى هـذه الأرض قبـل عام واحد من حضور « مدام دى لاتور » امرأةٌ صالحة كريمـة رقيقة الحال اسمها « مرغريت » وفدت اليها على أثر نكبة حلت بها فى مسقط رأسها « بريتانيا » وخلاصتهـا أن نبيلا من النبلاء الاصطلاحيين ، أى الذين اصطلح الناس على تلقيبهم بهذا اللقب ، نزل بلدتها للاصطياف بها فرآها فأحبها وكانت فتاة غريرة ساذجة تصدق كل مايقال لها ، فصدقت ماحدثها به عن الحب والزواج والسعادة والرغد كأنما خيـل اليها أن العظماء عظماء فى أحاديثهم وعهودهم ، كما هم عظماء فى مظاهرهم وأزيائهم ، لايخلفون إذا وعدوا ، ولاينكثون إذاعاهدوا ، فاتصلت به اتصال الزوج بزوجها حينما وعدها أن يتزوج منها عند عودته إلى وطنه واستئذان أبويه



« مرغريت »

وما هى إلا أيام قلائل حتى ملها واجتواها[١] كما مل الكثيرات من أمثالها من قبلها ، فرحل عنها فجأة أعظمَ ما كانت غبطة به وأملا فيه ، وترك لها تحت وَسادتها شيئاً من المال خُيل اليه أنه الثمن الذى يقوم لها بوفاء ما بذلت من عرضها وشرفها ، فجُنَّ جنونها وهرعت الى فُرضة البحر التى علمت أنه سيسافر منها فلم تر من سفينته الماخرة على سطح الدأماء إلا ما يرى الرائى من أعقاب النجم المغرِّب[٢] ، فبكت ما شاء الله أن تفعل ثم عادت الى منزلها دامية العين قريحة القلب ، ولم تلبث الا قليلا حتى شعرت أنها تحمل جنيناً فى أحشائها فأُسقِط فى يدها[٣] وعلمتْ أنه قد استحال عليها البقاء بين أهلها وقومها بعد ما فقدت تلك الجوهرة الثمينة التى هى كلُّ ما تملك العذراء فى يدها ، وكلُّ ما تستطيع أن تقدمه مهراً لزوجها ، فأزمعت الرحيلَ

(١) اجتوى الشىء كرهه

(٢) المغرب المنحدر الى مغربه

(٣) أسقط فى يده على صيغة المبنى للمجهول تحير وندم

الى إحدى المستعمرات النائيـة لتوارىَ فى قاعها السحيق سوأتها وعارها ، فوفدت الى هذه الجزيرة بعد عناء كثير ، وعقبات عظمى ، واستطاعت بمعونة بعض المحسنين الراحمين



« مرغريت واقفة على شاطئ البحر »

(تندب أملها الضائع)

أن تبتاع لها خادماً زنجياً يعينها على أمرها ، ويساعدها على حراثة الأرض التى أوَت اليها واستخراج ثمراتها

وعاشت هنا عيش الصالحات القانتات لاتعرف أحداً

من الناس ولا يعرفها أحد سواى ، وكانت تجلس دائما على هـذه الصخرة العالية أمام كوخها ترضع ولدها وتنسج نسيجها ، فلما وفدت هيلين « مدام دى لاتور » رأتها جالسة فى مكانها الذى اعتادت الجلوس فيه ، فعجبت لامرها وأنست بمرآها أُنساً عظيما ، لانها ما كانت تتصور قبـل أن تراها أن فى العالم إنساناً له حال تُشبه حالها ، فدنت منها وحيّتها ثم جاست بجانبها وأخذت تسائلها عن شأنها فقصت عليها مرغريت قصتها كما وقعت ، وكشفت لها بشجاعة وإخلاص عن مكان المصرع الذى زلت فيـه قدمُها ، ولم تكتمها من أمرها شيئاً ، ثم ختمت حديثها بقولها : إن الله لم يظلمنى ، ولم يقسُ علىّ فيما فعل ، بل عاقبنى على جريمتى التى اقترفتها عقاباً عادلا شريفاً ، فله العُتبى [1] معطياً وسالباً ، وله الحمـد على نعمائه وبأسائه

فرثت لها هيلين « مدام دى لاتور » وأَوَتْ [1] اليها

(١) له العتبى أى له الرضى

وأعجبها منها اخلاصها وصراحتها ، وقوة يقينها وإيمانها ، فلم تر بدًّا من أن تمنحها من بنات قلبها[٢] مثل مامنحتها ، فأفضت اليها بسرها وحدثتها حديثها من مبدئه إلى منتهاه ، فقالت لها مرغريت أما أنا يا سيدتى فقد لاقيت عقوبتى التى أستحقها بما أسرفتُ على نفسى ، وفرطت فى أمرى ، فما شأنك أنت وأنت فتاة صالحة شريفة لا ذنب لك ولا جريرة !

ثم دعتها إلى كوخها الحقير فلبت دعوتها ودخلت معها راضية مغتبطة وهى تقول : أحمدك اللهم فقد وجدتُ لى فى هذا المغترَب النائى أختًا لم أجد مثلها بين أهلى وقومى ، وما أحسب إلا أن آلامى قد انتهت

* * *

وكنت أسكن فى ذلك الحين وراء هذا الجبل على بعد مرحلة ونصف من كوخ مرغريت ، ولكننى

(١) أوى له رق له وأشفق عليه
(٢) بنات القلوب همومها وأسرارها

كنت على بعد ما بينى وبينها ، واعتراض هـذه العقبات دوننا متصلا بها أزورها وأتفقد حالها ، وأرعى لها مايرعى الجار لجاره الملاصق ، وتلك خلة لا توجد إلا فى سكان القفار المهجورة ، والمغتربات النائية ، فلا الجبال الشامخة ولا الصحارى الشاسعة ولا الشقة البعيدة بقادرة على أن تفرق بينهم ، وتمنع اتصال بعضهم ببعض ، كأنما هم يقطنون محلة واحدة ، أو منزلا واحداً ، أما فى أوربا فكثيراً ما يعيش الرجل بجانب الرجل لا يفصل بينه وبينه إلا جدار قائم ، أو ممر ضيق ، أو ظلة دانية ، ثم هو لا يعرفه ولا يحييه ، وربما أنكر وجهه وصورته ، وهناك قلما يستطيع القادم الغريب أن ينزل ضيفاً إلا عند نفسه فى أخصب البلاد وأغناها ، وأرغدها عيشاً ، وأصلحها حالا ، وهنا يجد ساعة نزوله المنزلَ الرحب ، والمناخ الكريم فى كل دار وكوخ ، سواء فى ذلك فقراء الناس وأغنياؤهم ، وسُوقتهم وأشرافهم ، كأن الناس حين يعودون إلى حياتهم الفطرية الاولى ،

حياةِ البساطة والسذاجة والعيشِ فى الاجواء الحرة المطلقة ، تعود لهم معها أخلاقهم الطبيعية الجميلة التى فطروا عليها من كرم وسماحة ، وجود وإيثار ، وود وإخاء

وبعدُ فلما سمعت أن جارتى قد نزلت بها ضيفة غريبة أتيت اليها أتفقد حالها ، وأعينها على أمرها ، فاذَا أنا بين يدى فتاة جميلة رائعة تحيط بوجهها المشرق المتلألئ هالة وضاءة من الشرف والنبل تغشاها سحابة خفيفة من الهم والكآبة ، ويتراءى فى عينيها المتضعضعتين الذابلتين أثر الذل والانكسار الذى يراه الانسان دائما فى عيون الفتيات المنكسرات فى مَيْدان الحياة

وما هو إلا أن جلستُ اليها جلسة خفيفة حتى ألممتُ بشأنها كله ، فأخذت أحدثها وصديقتَها عن مستقبل حياتهما فى هذه الجزيرة ، وكيف تستطيعان أَن تعيشا فيها سعيدتين هانئتين ، فاقترحت عليهما أن تتخذا هذا الوادىَ مزرعة لهما تقتسمانها بينهما ويعينهما على استصلاحها

واستثمارها خادماها الزنجيان فأعجبهما مقترحي وعهد الىّ بتنفيذ ما أشرت به

وكانت مساحة الوادى نحو عشرين فداناً ، فقسمته قسمين ، قسما أعلى ، وقسما أدنى ، أما الاول فيبتدئ من رءوس تلك الصخور العالية التى تكسوها السحب أرديتَها الشفافة البيضاء وتنبعث من خلالها أمواه نهر « اللاتينيه » وينتهى عند هذه الفَجوة التى تراها أمامك ، ويسمونها هنا « لامبرازير » لانها تشبه فى شكلها فوهة المدفع ، وتكثر فى هذا القسم الصخور والوعور التى يتعذر السير فيها ، إلا انه كثير الاشجار والنخيل ، حافل بالينابيع والغدران

وأما الثانى فيبتدئ من هذا المكان منحدرا مع النهر الجارى بجانبه الى نهاية الوادى حيث ينحرف النهر بعد ذلك سائراً فى رملة ميثاءَ بين جبلين شامخين الى مصبه فى البحر ، وأرض هذا القسم سهلة لينة كثيرة

الخضرة والاعشاب ، إلا أن المستنقعات تكثر فيها فى فصل الامطار ، وتكاد تتحجر تربتها أيام الجفاف، فتصبح كأنها أرض صخرية ، فهما فى الحقيقة قسمان متعادلان تتكافأ حسناتهما وسيئاتهما

فلما فرغتُ من تهيئتهما اقترعتُ بين السيدتين عليهما، فكان القسم الاعلى نصيب هيلين «مدام دى لاتور» والقسم الادنى نصيب مرغريت ، فرضيتْ كل منهما بنصيبها ، إلا أنهما أبتا أن تفترقا فى مسكنها وعيشهما ، فرأيتُ أن أنشئ لهما كوخين متجاورين تجدان فيهما من السعة والراحة لهما ولوليدهما أكثر مما تجدان فى الكوخ الواحد ، وأن أجعل أحدهما فى ذيل القسم الأول ، وثانيهما فى رأس القسم الثانى ، فتسكن كل منهما فى أرضها ، وكأنها تعيش مع صاحبتها فى مسكن واحد ، فأعجبتهما تلك الفكرة واغتبطتا بها ، فاستعنت بالزنجيين على قطع الأحجار من الجبال ، واجتلاب الاخشاب من الغابات ، وصنع مواد البناء ، وأنشأت لهما

كوخين فسيحين يدور بهما سياج متين من الاغصان المتشابكة ،وغرست حولهما خميلة من أشجار اللاتينيه تظلالهما وتقيهما وهج الشمس وغائلة المطر

وهنا صمت الشيخ وأطرق ثم رفع رأسه بعد قليل فاذا دمعة رقراقة تترجح فى مقلتيه كلما حاولت أن تسيل أمسكها واستمر فى حديثه يقول

نعم بنيتهما وشيدتهما وأنشأت لهما السقوف والابواب والكوى والنوافذ وهاءنذا أراهما الآن بين يدىَّ ساقطين متهدمين ، فلا أبوابَ ولا سقوف ، ولا نوافذَ ولا كُوى ، ولا قُطان ولا سكان ، وكأن الله تعالى أراد أن يستديم تلك الذكرى فى نفسى فلا تبرح مخيلتى حتى تذهب معى الى قبرى فأبقىَ على هذه البقايا الماثلة من جدرانهما وأحجارهما ليستثير مرآها شجنى ، ويهيج آلامى وأحزانى ، أوكأنّ طوارق الحدثان التى لا تبالى أن تعصف بقصور الملوك وصروح الحبابرة ، وتذهب ببقاياها وآثارها إلى الابد ، قد

وقفت وقفة الاجلال والاعظام أمام هذه الاكواخ الحقيرة المشعّثة فأبت أن تقضى عليها القضاء كله إجلالا لها واحتراماً لذكرى أصحابها الاوفياء المخلصين .

وبعد فلم أكد أفرغ من بناء الكوخين حتى شكت هيلين وجاءها المخاض فولدت طفلة جميلة كانها النجم اللامع فى سطوعه وإشراقه ، وسألتنى أن أكون « عرابها » وأن أتولى تسميتها كما توليتُ تسمية ولد صديقتها ، فأشرتُ على مرغريت أن تفعل لانى أردت أن تكون لها أما ثانية ، فسمتها « ڤرچينى » وقالت لامها سيهب الله ابنتك نعمة الفضيلة والعفة فتحيا حياة سعيدة هانئة ، فانى مافقدت السعادة إلامنذ اليوم الذى انحرفت فيه عن طريق الفضيلة

٥

الحياة الطبيعية

نهضت هيلين من نفاسها بارئة نشطة فأخذت هى وصديقتها مرغريت تعملان فى أرضهما بمعونة الزنجى « دومينج » وهو رجل كهل قد نيف على الخمسين من عمره، الا انه كان قوىّ الهمة والعزيمة، واسع الخبرة فى شؤون الزراعة الجبلية وأساليبها . فكان يغرس فى كل أرض ماينا سبها من البذور والاغراس ، لايفرق فى ذلك بين القسمين ، ولا يمنح أحدهما من اهتمامه وعنايته أكثر مما يمنح الآخر ، فزرعَ الذُرة فى التربة المتوسطة ، والحنطةَ فى الأرض الجيدة ، والارزَ فى التربة السبخة ، والفرعَ والقِثّاءَ وما أشبههما من النبات المتسلق حولَ الصخور وفوق رءوس الهضاب ، وزرع البطاطا فى التربة الجافة اليابسة ، وشجيراتِ القطن فى الربوات العالية ، وقصبَ السكر فى الأرض القوية

لمتينة ، وغرس على ضفة النهر حول الكوخين أشجار لموز ذات الاوراق العريضة والأفياء الظليلة ، ولم يفته أن يزرع لنفسه بضع شجيرات من التبغ يروّح بتدخينها عن نفسه همومَ دهره وآلامَه

وكان يذهب فوق ذلك الى الغابات البعيدة والاحراش النائية لاحتطاب الحطب واجتلاب أخشاب الوقود ، ويقضى جزءاً عظيماً من يومه فى تمهيد الأرض وتذليلها وتكسير الصخور ورصف الحصى وانشاء الممرات والمستدقات والجداول والاقنية ، وكان يقوم بهذا العمل كله وحده راضياً مغتبطاً لا أُعينه عليه إلا بالرأى والارشاد ، لانه كان يحب سيدتيه حباً جمّاً ، ويخلص لهما إخلاصاً عظيماً ، وربما كان للغرام يدٌ خفية فى ذلك النشاط الغريب المنبعث فى أنحاء نفسه كما هو الشأن فى أكثر حركات الناس وسكناتهم ، فانه كان مغتبطاً كل الاغتباط بتلك الصلة التى نشأت بينه وبين الزنجية « مارى » فى العمل ، وبوده لو استحالت إلى صلة

أخرى غيرها أدنى إلى نفسه وألصقَ بفؤاده ، وقدتم له بعد عام واحد من اتصاله بها ما أراد ، فقد سمحت له سيدتاه بالزواج منها فبنا بها ليلة عيد ميلاد فرچينى وسعد بجوارها سعادة لاتختلف فى روحها وجوهرها عن السعادَة التى يهنأ بها البيض المتمدينون

وكانت مارى فتاة نشطة حاذقة ذكية ، الذهن ، صَنَاع اليد ، متحلية بكثير من الصفات الفاضلة ، وقد استفادت فى مسقط رأسها « مدغشقر » العلمَ ببعض الصنائع اليدوية التى يزاولها الناس هناك ، فكانت تجيد صنع السِلال من لحاء أشجار القصب ، ونسجَ المآزر والمطارف من خيوط بعض الأشجار الليفية ، وكانت تحسن القيام على خدمة المنزل ومناظرته ، وترتيب أثاثه ، وتربية الطيور الداجنة ، ورعى الماشية ، ومزاولة الطبخ والغسل ، فاذا فرغت عن عملها حملتْ ما فضَل عن حاجة البيت من فاكهة وحبوب ولم يكن بالشىء الكثير الى سوق المدينة فباعته فيها ثم

عادت ببضعة دريهمات تعطيها لسيدتيها

أى إن المزرعة كان يعيش فيها امرأتان وطفلان وخادمان وكلب للحراسة وعنزتان للبن وبضع دجاجات للبيض ،لا أكثر من ذلك ولا أقل

وكان لابد للسيدتين من أن تعملا عملا يعينهما على عيشهما ويروّح عنهما سآمة الوحدة وملالها ، فكانتا تغزلان بياض نهارهما ، وأحيانا سواد ليلهما على ضوء القمر ، فاستطاعتا أن تجدا رزقهما ، ولكنْ مقتراً مكدوداً ،فأكلتا الدُخن والذُرة ، وشربتا الماء الرنْق ، ولبستا القمُص البنغالية الخشنة التى يلبسها الاماء فى هذه الجزيرة ، ومشتا على الارض حافيتين غير منتعلتين الا فى اليوم الذى كانتا تذهبان فيه الى الكنيسة فى حى « بمبلموس » لأداء الصلاة ، وقلما كانتا تذهبان الى « پورلويس » عاصمة الجزيرة الا فى الدرجة القصوى من الضرورة حياء من نفسهما،وفراراً من أعين الساخرين والهازئين ، فان فعلتا نالهما من الألم

والامتعاض ما ينغص عليهما يومهما ، ويستثير كامن حزنهما وألمهما ، ولا يزال هذا القلق يساورهما حتى تعودا الى مزرعتهما ، فاذا أشرفتا عليها ، ورأتا على بعد منظر خادميهما المخلصين وهما يهبطان اليهما من قمة الجبل ليساعداهما على صعوده وتسلقه ، وشعرتا بنسيم الحرية العليل يهب عليهما ، ويمازج أنفاسهما ، نسيتا فى هذا المعتزل المنفرد كل ما لحقهما وآلم نفسهما من خشونة الناس وقسوتهم ، وفضولهم وكبريائهم ، وكأنما قد نبتتا فى هذه البقعة بين نخيلها وأشجارها ، ولم تريا طول حياتهما بقعة سواها

ولقد عشتُ فى كل جو و بيئة ، وخالطت جميع الطبقات والاجناس ، وعاشرت الناس أخياراً وأشراراً ، وأعلياءَ وأدنياءَ ، وحضرت مواقف الحب بين المتحابّين ، والصداقةِ بين المتصادقين ، فلم أر فى حياتى منظراً أجمل ولا أبهج ، ولا أحلى فى العين ، ولا أوقع فى النفس ، من منظر الحب والصداقة بين هاتين السيدتين الكريمتين ، حتى كان يخيل الىّ أحياناً

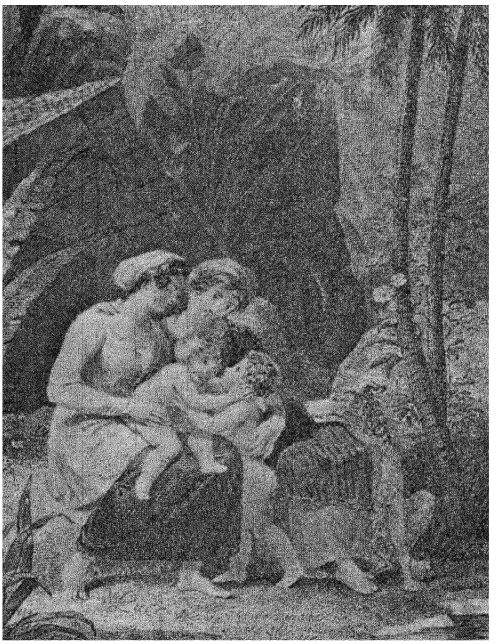
أن نفسيهما قد استحالتا الى نفس واحدة يحملها جسدان ، وكنت إذا حدثت إحداهما شعرتُ كانى أحدث الاخرى معها ، واذا حدثتهما معاً كنت كأنى أحدث نفساً واحدة ذاتَ صورة واحدة ولون واحد ، فلقد وحّدتْ بينهما الهمومُ والآلام ، ومازجتْ بين نفسيهما الوحدة والعزلة ، والفكرة والرأى ، والحاجة والمصلحة ، والذكرى المؤلمة ، والبؤس المشترك ، فنطقتْ كل منهما بما نطقتْ به الاخرى ، وشعرتْ بما شعرتْ به ، وفكرت فيما فكرت فيه ، وكأنَّ الله تعالى إذْ زَوَى عنهما الارضَ الفسيحة ذاتَ الطول والعرض ، وحرمهما فيها نعمةَ العيش الهنىء ، بدَّلهما منها تلك الروضة الغنّاءَ من الحب والاخلاص ، لتعيشا فيها ناعمتين هانئتين ، لاتمر بسمائهما غيمة ، ولا ترجُف بأرضهما رجفة

فان اضطرمت بين جوانحهما فى بعض الاحايين نارٌ أقوى من نار الصداقة وأشد منها لهيباً واستعاراً لاتلبث

أن تهب عليها عاصفة من دينهما وتقواهما فتلوى بها عن سبيلها وتطير بها إلى العالم الثانى كما تتطاير الشعلة الملتهبة فى جو السماء إذا فقدت مادتها التى تغتذى بها على وجه الارض

وكان أعظمَ ما يؤنسهما ويروّح عنهما ويمازج بين شعورهما وإحساسهما رؤيةُ طفليهما الصغيرين بين أيديهما يمرحان ويلعبان ، ويعدُوان ويطفُران ، وينامان فى مهد واحد ، ويستحمان فى إناء واحد ، ويطير كل منهما شوقاً إلى صاحبه إذا فقد مكانَه ،وغاب عنه وجهُه ، كانهما أخوان شقيقان ، بل توأمان متشابهان

وكثيراً ما كانت تُرضع إحداهما ولدَ الأخرى فتمنحه من عطفها وحنانها ما تمنح ولدَها،حتى قالت هيلين مرة لمرغريت « سيكون لكل منا ولدان ، ولكل من ولدينا أُمّان »



لكل من الأمّين ولدان
ولكل من الولدين أمان

وكان اجتماع ذينك الطفلين اليتيمين على ثدى واحد بعد ما فجعهما الزمان بأسرتيهما ، وحرمهما حنانَ أبويهما وعطفَهما ، سبباً فى نموهما وترعرعهما ، وسرورهما وغبطتهما ، كالصنوين الباقيين من شجرتين قد عصفت الريح بهما وبأغصانهما اذا لُقح أحدُهما بالآخر أورقَا وأثمرَا بأبهى وأجملَ مما لو بقى كل منهما فى مكانه

وكان يلذّ لأُميهما كثيراً الحديثُ عنهما، وعن مستقبل حياتهما، وعن اتصالهما بعقدة الزواج متى بلغا أشدَّهما ، كأنما قد بقيتْ فى زوايا قلبيهما بقيةٌ من ذلك الالم الماضى ألَمِ حرمانِهما الهناءَ الزوجىَّ الذى كانتا تتعللان به فى مؤتنف حياتهما ، فهما تتعللان عنه برؤية ولديهما متمتعين به

إلا أن حديثهما هذا كان ينتهى أحياناً ببكائهما ونشيجهما حينما تذكران أنهما قد أساءتا إلى نفسيهما بطموح إحداهما إلى منزلة فى الحياة فوق منزلتها ، ونزول الاخرى فيها الى مقام دون مقامها ، فعاقبتهما الطبيعة على

تمردهما وشذوذهما بهذا العقاب المؤلم الشديد الذى تقاسيانه وتذوقان مرارته

ولكنهما لا تلبثان أن تسمعا صوت طفليهما الصغيرين يبغمان فى مهدهما ويتناغيان حتى تعودا إلى سكونهما واستقرارهما ، وتشعرا ببرد العزاء يتدفق فى صدريهما ، خصوصاً عند ما تذكران أن الهناء الذى فاتهما فى ماضيهما لن يفوت ولديهما فى مستقبل أيامهما ، وكانتا تقولان إنهما سيقضيان حياتهما بعيدين عن مفاسد المدنية وشرورها ، وتقاليدها العمياء ، وأوهامها الباطلة ، فلا ينالهما من أذاها شىء

٧

حياة الطفولة

ولم أر فيما رأيت من عجائب الاشياء وغرائبها أغرب من تلك الصلة التى كانت بين هذين الطفلين الساذجين الطاهرين ، ولا أعجبَ من ذلك الامتزاج الذى كان بين روحيهما ، فاذا شكا بول شكت ڤرجينى لشكاته ، وإذا بكى

لايخفِّض عبرتَه، ولا يسرِّى حزنَه، إلا رؤيتُها باسمة بين يديه، وكثيراً ما كانت تتألم بينها وبين نفسها لبعض الشؤون فلا يَدلُّ على ألمها وحزنها إلا بكاؤه ونشيجه، فكانت إذا ألمّ بها ألمٌ طوت عليه ضلوعَها، وكاتمتْه نفسُها، ضنًّا به أن تراه باكياً أو متألما

وما جئت هنا مرة فى شأن من الشئون إلا رأيتهما معاً يحبُوان، أو يدرُجان، أو يتداعبان، أو يتماسكان، أو يستبقان إلى غاية، أو يتخاطفان لُعبة، فلم يكن شىء من الأشياء يقادر على أن يفرق بينهما حتى ظلام الليل ووحشته، فقد كان لهما مهدٌ واحد ينامان فيه معاً عاريين كعادة الاطفال فى هذه الجزيرة، وقد تلازما وتآخذا وتوسد كل منهما ذراعَ صاحبه كأنما يخشيان أن يفرق بينهما حادث من حوادث الدهر

وكان أول مانطقا به من الكلمات كلمتا الاخ والاخت، وهى كلمة جميلة جداً ما خلق الله فى الكلم أجمل ولا أحلى، ولا أشرف معنى، ولا أطرب نغمة منها، ويزيدها جمالا

وحسناً صدورها من أفواه الاطفال الصغار كأنها عهدٌ يأخذونه على أنفسهم منذ اليوم أن يكون كل منهما لصاحبه غداً ، أو كأنها راية السلام البيضاء يرفعونها على رءوسهم ، ويلوحون بها فى الآفاق

ثم أخذت تلك العلاقة الطفلية البسيطة تستحيل مع الأيام إلى صداقة جدية يشعر فيها كل منهما بحاجته إلى الآخر ، والى معونته ومساعدته . فبدأ يشتركان فى خدمة المنزل ومناظرة شؤونه ، ومعاونة أميهما فيما هما بسبيله من طلب العيش ، ومعالجة القوت ، كلٌّ فى ما هيأته طبيعته له

فلحقت ڤرچينى بالزنجية « مارى » تتعلم منها الطبخ والغسل والنسيج وإعداد المائدة وتهيئة الفراش وخياطة الملابس وصنع السلال ، إلا أنها كانت تُعنَى بما يتعلق بأخيها پول قبل كل شىء ، ولحق پول بدومينج يعينه بفأسه الصغيرة التى كانت لا تفارق عاتقه على فلح الارض وحرثها ، وتخطيطها وتقسيمها ، وتحويل مياهها ، وقلع حشائشها ، وتسلق رباها ،

وتقليم أشجارها ، فاذا عثر فى طريقه بزهرة جميلة ، أو فاكهة طيبة ، أو طائر فى عُشه ، أو حشرة فى حفرتها ، أو سمكة ملونة ، أو محارة ظريفة ، احتفظ بها فى جيبه ليقدمها هدية لفرجينى حين يعود اليها

وكانا على اختلاف شأنهما واستقلال كل منهما بعمله عن عمل صاحبه على اتصال دائم ببعضهما ، فحيث وُجدتْ فرجينى فقد وُجد پول معها ، أو على مقربة منها ، أو منحدراً اليها ، أو مشرفاً عليها ، أو هاتفاً بها ، ما من ذلك بد

وأذكر أني كنت منحدراً ذات يوم من قِمة الجبل ، وكان الجو ماطراً مكفهراً ، فرأيت فرجينى مقبلة نحو المنزل من أقصى الحديقة ، وقد رفعت إزارها من خلفها وأسبلته على رأسها لتتقى به المطر المتساقط ، فهرعتُ اليها لاساعدها على المسير ، فلما دنوت منها رأيت أن ذلك الازار الذى يضمها لايضمها وحدها ، بل يضم معها أخاها پول ، فنظرا إلىّ ضاحكين متهللين كأنهما مغتبطان باهتدائهما إلى تلك

الفكرة الجميلة التى استطاعا بها أن يلجآ من ذلك الغيث المنهمل الى ظُلة واحدة ، فذكرنى منظرُهما هذا ومنظرُ رأسيهما الصغيرين المتلاصقين فى ذلك الازار بمنظر طفلىْ « ليدا » وقد حفرا معاً فى محارة واحدة



پول وفرجينى يضمهما ازار واحد

وكانت حياتهما بسيطة ساذَجة لان ذهنهما كان بسيطاً ساذجا خالياً من مشاغل الحياة المركبة وهمومها ، فلا يفكران فى شأن غير شأنهما ، ولا يسبحان فى محيط غير محيطهما ، ولا ينتقلان بذهنهما من الحاضر إلى الماضى أو

المستقبل ، ولا تترامى أبصارهما الى ماوراء الافق المحيط بهما ، كأنهما يظنان أن العالم ينتهى حيث تنتهى جزيرتهما .ولقدأراحهمامن عناءالبحث والتفكير جهلُهماوأمّيتُهما ، وبُعدهما عن هموم العلم ومشاغله ، فلم يُقدَّر لهما أن يسهرا ليلهما مكبّين على المذاكرة والمدارسة حتى يغلبهما النوم فيناما فى مكانهما ، ولم يذرفا الدموع الغزار يوما من أيامهما أمام معضلة من معضلات العلم ، أو مشكلة من مشكلاته ، حتى تتقرح أجفانهما ، ولم يُثر غيظَهما وحنقَهما عجزُهما عن التغلب على خصومهما فى ميدان المجادلة والمناظرة حتى تنشقّ مرارتهما غيظاوحنقاً ، وماشعرا فى ساعة من ساعات حياتهما بحاجتهما إلى أن يعرفا غير مايعرفان ، لانهما يعلمان أنهما ماخلقا إلا ليعيشا سعيدين هانئين ، وهاهى السعادة تظللهما بأجنحتها البيضاء ، وتندفق بحراً زاخراً تحت أقدامهما ، وإلا ليؤديا واجب الحب والاخلاص لذينك الشخصين الكريمين عليهما ، وهاهما يقومان لهما بهذا الوجب بأفضل ما يقوم به عبد لسيده ، بل عابد لمعبوده

فما بهما من حاجة إلى من يعلمهما أن الكذب حرام ، لانهما لايكذبان ، ولا أن السرقة جريمة ، لان جميع ما يقع تحت متناول يدهما ملك مشترك للجميع ليس أحد أولى به من الآخر ، ولا أن الجشع رذيلة ، لان ما يشتمل عليه كوخُهما بسيط محـدود لايحتمل جشعاً ولانهَما ، ولا أن البر بالوالدين واجب ، لانهما كانا يعبدان أمبهما عبادة هى فوق البر والاحسان ، ولا أن الصلاة فريضة ، لانهما وان لم يذهبا إلى الكنيسة إلا قليـلا فقد كانا يصليان فى كل أرض ، وفى كل جو ، فى البيت والمزرعة ، والقمة والرابية ، والسهل والجبل ، وفى بكور الايام وأصائلها ، وأوائل الليالى وأواخرها

*
* *

وكذلك أشرقت حياتهما الأولى إشراق الفجر المنير فى صفحة الأفق مبشراً بيوم صحو جميل ، وأخذت تمر بهما الأيام عذبة صافيـة جريانَ الغـدير المترقرق على بياض

الحصباء ، سواءٌ ليلها ونهارها ، وصبحها ومساؤها

وكان من شأن قرچيني أن تستيقظ صباح كل يوم مبكّرة والطير لم يفارق وكره فتحمل جرّتها وتذهب بها الى نبع صاف كان على بعد مرحلة من المزرعة فتستقي منه ثم تعود فتجلس لتهيئة طعام الافطار ، حتى اذا برزت الشمس من خدرها وأخذت تنفض بيدها غبار الظلام عن وجه الأرض ، وتمسح جبين الطبيعة المكتئبَ بريشة أشعتها الذهبية ، أقبلت مرغريت من كوخها هي وولدها فتبادلوا جميعاً تحية الصباح ثم اصطفوا لأداء الصلاة وبسطوا أيديهم الى السماء ضارعين الى الله تعالى أن يكلأهم بعين رعايته ، ويبسط عليهم جناح رحمته ، وأن يهيئ لهم من أمرهم رشداً ، فاذا انتهوا من صلاتهم خرجوا خارج الكوخ لتناول الطعام على مائدة جميلة من العشب الأخضر تحت ظلة دانية من الأغصان المتشابكة تتساقط عليهم قطع النور من فجواتها كأنها النثار الفضي اللامع

فكان أثرُ ذلك الغذاء الطبيعى البسيط تحت هذه السماء الصافية وفوق تلك الارض النديّة المخضلّة عظيما فى نمو الولدين وترعرعهما، ونضرة وجوههما، وحلاوة ملامحهما، فلم تبلغ ڤرچينى الثانية عشرة من عمرها حتى استقام عودها، واعتدل قوامها، وتهدل شعرها الاصفر اللامع على كتفيها كأنما قد نُسج من خيوط الشمس، وأضاءت عيناها الزرقاوان بنور سموى غريب كانه قبس من النور الآلهى، فان ابتسمت ابتسمتا معها كأنهما ثغران ضاحكان، وان قطّبت سبَحتا وحدهما فى جو السماء، حتى تلتقىَ زرقتهما بزرقتها

أما پول فقد كانت قامته أطول قليلا من قامة ڤرچينى، ونظره أحدّ من نظرها، وأنفه أكثر شمما من أنفها، ولونه أقرب إلى السمرة من لونها، أى ان ملامحه كانت تذهب مذهب الرجولة فى تكوّنها واستدارتها، وكانت تنبعث من عينيه نارٌ من القوة والنشاط تكاد تلتهب التهابا لولا

تلك الأهداب الندية السوداء الحافة بهما

وكان لايزال ثائراً مهتاجا ما يهدأ ولا يسكن حتى تُقبل عليه ڤرچيني وتجلس بجانبه فاذا هو الطفل الصغير ببساطة وسذاجة ، ووداعة ولطفا

وكثيراً ما كانا يجلسان معاً صامتين هادئين ساعات طوالا على ضفة نهر ، أو حافة ينبوع ، أو ربوة عالية ، أو قمة مشرفة ، وقد اضطجع كل منهما بجانب الآخر ومدّ قدميه العاريين فكأنهما تمثالٌ رخامى عتيق من تماثيل أولاد « بينوب »[1] وكأنّ حياتهما حياةُ الملائكة الابرار فى عالمها العُلوىّ لاتشعر بحاجتها الى الحروف والكلمات فى التعبير عن شعورها وإحساسها

ولِمَ يتكلمان وقد قامت لهما نظراتهما المتمازجة وابتساماتهما المتماوجة مقام الالسنة فى نطقها وإفصاحها ، ولم يكن حبهما حبا صناعيا ولا متكلفا فيحتاجا الى استدامته

(١) بينوب زوجة عولس أحد أبطال اليونان فى عهدها القديم

واستبقائه وتأريث[1] ناره فى قلبيهما بالملق والدهان، والتدليل والترفيه، وخلابة الألفاظ وسحر البيان، لا بل لو سئل أحدهما عن الحب وتعريفه وصفاته لما استطاع أن يجيب بشيء، لانه لايفهم من الحب سوى انه فى حاجة الى بقاء صاحبه بجانبه لايفارقه، ولا بغيب عن وجهه، لايزيد على ذلك ولا ينقص شيئا. ولقد استقر هذا الشعور فى نفسيهما، وملك عليهما حواسهما وخواطرهما، فلم يفكرا فى تشخيصه وتحديده، واستعراض صوره وألوانه، فكان أشبه شيء بالايمان فى قلوب العجائز، والالهام فى أنفس الحيوان، والعبقرية فى أذهان الخاملين المغمورين، فهما ينعمان بحب هادئ لطيف لاجلبة فيه ولا ضوضاء، ولا تجاذُب ولا تآخُذ، ولا شكوى ولا عتاب، ولا سهرَ ولا قلق، ولا خوفَ من الطوارق، ولا خشية من الفواجئ

إلا أن هيلين وقد رأت فتاتها تنمو وتترعرع ويتلألؤ

(١) أرث النار أوقدها

وجهها بتلك المحاسن الباهرة بدأت تفكر فى أمرها وأمر مستقبلها، وتقول فى نفسها ماذا يكون مصير هـذه الفتاة المسكينة غداً إن عَدَت علىّ عوادى الدهر ، وفرقت المنيةُ بينى وبينها ، وخلفتُها وحدها هنا فى هذه القفرة المجدبة بين هذه الخلائق الغريبة وحيدة منقطعة لاسند لها ولا معين

وكانت لهـا فى فرنسا عمة مثرية ثراء واسعاً الا أنهـا كانت امرأة متكبرة تيّاهة شديدة الذَهاب بنفسها، مدلّة بجاهها ونفوذها، متشددة فى آرائها وأفكارها ، فنقمت عليها أشد النقمة لاتصالها بذلك الفتى الفقير الذى اختارته زوجا لها ، واعتبرتْ حادثتها هذه نكبة من أعظم النكبات ، التى حاتْ بها وبأسرتها ، فأبت أن تغفر لها زلتها ، وأن تمد لها يد المعونة عنـد ما عزمت على السفر الى هـذه الجزيرة ، واستهانت بدموعها وآلامها ، وضراعتها ومناشدتهـا ، فسافرت وقد آلت على نفسها أن لا تلجأ اليها فى شأن من شؤون حياتها ماتردّد لها نفسٌ على وجه الأرض ، أما الآن

وقد أصبحت أمًّا يَعنيها من أمر فتاتها مايَعنى الأمهاتِ من أمر فتياتهن ،فلم تر بداً من أن تحمل نفسهاعلى ذلك المكروه الذى عافته برهة من الزمان ،فكتبت إلى تلك العمة القاسية كتاباً طويلا أفضت اليها فيه بخواطر نفسها ، ووساوس قلبها، وقصت عليها قصة حضورها الى هذه الجزيرة ، وما كان من وفاة زوجها على أثر حضورها ، وحياتها الشقية التى تحياها الآن من بعده وحيدة منقطعة لا ناصر لها ولا معين ، وظلت تحدثها حديثاً طويلا عن ابنتها وما تخشاه عليها فى مستقبل حياتها إن نشب بها ظفرُ جارح من أظفار الدهر ، وفرقت المنية بينها وبينها ، ثم قالت لها فى ختام كتابها « إن كنت تَرَيْنَ انى لاأزال مذنبة بعد ذلك ، وأن تلك الدموع السخية التى روّيتُ بها ثرى الأرض اثنى عشر عاما لاتكفى لمحو زَلّتى من صحيفة أعمالى فارحمى هذه الفتاة المسكينة من أجلها لا من أجلى ، فهى حفيدة أخيك ، وغصن دوحتك ، والبقية الباقية من أسرتك »

ولبثت تنتظر رداً على كتابها فلم يأتها ، فأتبعته بآخر ، ثم بآخر ، وضَرَعت فى ذلك ضَراعة لم يكن مثلُها مما يهون على مثلها لولا عاطفةُ الأمومة ورحمتها ، حتى كانت سنة ١٧٣٨ أى بعد قدومها هنا باثنى عشر عاما وبعد مرور ثلاث سنوات على قدوم مسيو « دى لابُورْدونيه » حاكما على الجزيرة إذ علمت أن ذلك الرجل يسأل عنها ليسلمها كتابا ورد عليها من عمتها ، فاستطيرت فرحا وسروراً ، وعلمت أن أيام شقائها قد انتهت ، وأن الله قد رحمها ، ورثى لبؤسها وشقائها ، وهرعت الى « پورلويس » لمقابلته فدخلت عليه فى ذلك الثوب البنغالىّ الخشن الذى اعتادت أن تلبسه فى بيتها غير حافلة بشىء الا بتلك السعادة التى ستقدمها عما قليل لابنتها ، فاستقبلها الرجلُ استقبالا جافاً خشناً ، وهى المرأة الشريفة الطاهرة التى تُغضى العيون بين يديها إجلالا وإكبارا ، والبائسة المسكينةُ التى تهابها النفوس مرثاة لها ، ومرحمة لبؤسها وشقائها ، ولم يزد على أن أومأ اليها برأسه إيماءة

خفيفة ، ثم تقدم نحوها بعظمة وكبرياء وأعطاها كتابها ، فاختطفته من يده وأنشأت تقرؤه بلهفة وسرور إلا أنها لم تقرأ منه بضعة سطور حتى امتُقع لونها ، وارتعشت يدها ،



« حاكم الجزيرة يقدم لهيلين كتاب عمتها »

وترنحت فى مكانها ترنحَ الشارب الثمل ، فقد كتبتْ اليها عمتُها تؤنبها وتُقرعها تقريعاً مؤلماً مُهيناً ، وتشمتُ بها وبمصيرها ، وتقول لها هذا جزاء تمردك وعصيانك ، وخروجك

على أهلك وقومك، وانقيادك الى شهواتك البهيمية، واسترسالك فيها استرسالا دفع بك الى أحضان ذلك الفتى الوضيع المهين الذى لا يليق به أن يحمل سيورَ حذائك ، حتى جلبت على نفسك وعلى أهلك العار الذى لا يمحى ، ولقد أحسنت كل الاحسان بمغادرتك هذه البلاد وفرارك الى تلك الجزيرة النائية المنقطعة لتدفنى فيها نفسك وعارك الى الأبد ، وما موتُ زوجك ، وولادةُ ابنتك ، وشقاءُ عيشك، والوساوس التى تعتلج فى صدرك خوفاً على فتاتك وعلى مستقبلها ، إلا عقوبةٌ أنزلها الله بك ليمحِّصَ عنك ذنوبك ، ويمهدَ لك سبيلَ غفران سيآتك ، فاصطبرى لها ولا تجزعى حتى يقضىَ الله قضاءه فيك

ثم أنشأتْ تُدلُّ عليها بنفسها ، وتفاخرها بعفتها وطهارتها ، وترفُّعها وإبائها ، وأنها قضت أيام حياتها عانساً متبتِّلة ماتَزلق بها شهواتها فى هُوة من تلك الهُوَى التى تَزلق فيها أقدام النساء الجاهلات ، ولا تُسْلم قيادها الى رجل

من الرجال كائناً من كان ضناً بحريتها أن تعبث بها أيدى المطامع والاهواء

وكانت كاذبة فيما تقول ، فهى امرأة دميمة شوهاء ، غريبة الاخلاق والاطوار ، ليس لها من المزايا إلا ثروتها الطائلة ، وجاهها الواسع ، ومكانتها من البلاط الملكى ، وكان كبرياؤها الكاذبُ يأبى عليها إلا أن تتزوج من رجل من ذوى البيوتات العظيمة والألقاب الضخمة ، وليس بين هؤلاء جميعاً من يرضى أن يبيعها نفسَه بيعاً مهما بلغ من رقة الحال ، وشظف العيش ، ولم يزل هذا شأنها حتى تجاوزت سن الزواج وضاعت بين سخافتها وكبريائها

ثم ختمت كتابها بقولها « لابد لك أن تعملى لنفسك ، فقد علمتُ أنك فى جزيرة صالحة للعمل والاستثمار ، وأن جميع المهاجرين الذين يؤمونها يعودون منها بالثروة الطائلة والربح الكثير ، على أننى قد كتبت الى مسيو دى لابُورْدونيه حاكم الجزيرة أوصيه بك خيراً ، فاعتمدى

عليه وعلى معونته ، ولا تكتبي الىّ بعد اليوم »

وكانت صادقة فى كلمتها هذه ، فانها كتبت إلى ذلك الرجل كتاباً توصيه بها فيه ، إلا أنها ملأته بذمها وثلبها ، والاستطالة عليها فى عرضها وشرفها ، كأنها تلتمس لنفسها عذراً عنده فى قسوتها عليها ، وعُنفِها بها ، وضنِّها عليها بالمعونة والمساعدة

فكان من أثر ذلك فى نفسه أن ازدراها واحتقرها ، وتجهَّم لها حين رآها ، ثم ودعها بمثل ما استقبلها به ، لم يسألها عن شأن من شؤونها ، ولم يمنحها غير وعود كاذبة كان ينطق بها بلهجة جافة خشنة مملوءة ضجراً ومللاً ، فكأنما أوصته بقتلها ، والقضاء عليها

٨

العزاء

عادت هيلين الى المزرعة ونفسُها تسيل لوعة وأسى ، فما بلغت كوخَها حتى ألقت بالكتاب على المنضدة وتهافتت على سريرها باكية منتحبة ، فهرعَتْ اليها صديقتها تسألها ماشأنها ، فأشارت الى الكتاب وقالت ها هى ذى خلاصة حياتى من أولها إلى آخرها ، ولم تكن مرغريت تحسن القراءة فأتتها بالكتاب فأنشأت تقرؤه عليها وفؤادها يتمزق لوعة وأسى ، فقاطعتْها مرغريت وأقبلت عليها تقول لها متى تَخلى اللهُ عنا يا هيلين فنلجأ إلى الناس فى شؤوننا ، ونعتمد عليهم فى رزقنا ، ونحن أغنياء عنهم بما هيأ الله لنا من القوت فى هذه الجنة الصغيرة التى نعيش فيها ، فما فينا من يشكو جوعاً أو عطشاً ، ولا من يمشى عارياً أو حافياً ، ولا من يبيت مغتماً أو محزوناً ، فروِّحى عن نفسك ، فالله أرحم بك وبنا من الاقارب والاصدقاء ، ثم عجزت عن

امتلاك نفسها ، ومتابعة حديثها ، فاختنق صوتها بالبكاء ، فتهافتت هيلين على عنقها وضمتها الى نفسها وظلت تقول لها آه ياصديقتى ! آه ياصديقتى !

وكانت ڤرچينى واقفة بجانبهما فأثر فى نفسها هذا المنظر المحزن ،فاستعبرت باكية، وظلت تتناول يدأمها مرة ويد مرغريت أخرى فتقبلهما وتبلهما بدموعها ، وتقول لهما أرجو أن لايكون ذلك من أجلى ، فبكى لبكائها الزنجيان وكانا واقفين عند الباب واشتد نحيبهما ونشيجهما ، أما پول فقد عصفتْ فى رأسه عاصفةُ الغضب وظل يضرب الأرض بقدميه ويشير بيديه متهدداً متوعداً لايعلم من يهدِّد ولا من يتوعّد ، ولا على أى رأس من الرءوس يرسل صاعقة غضبه ، لانه لم يفهم مما كان شيئاً ، فكان هذا المأتم الغريب فى تلك الساعة الرهيبة مظهراً من مظاهر الاخلاص والولاء بين قوم جمعتهم جامعة البؤس والشقاء ، ووحدت بين قلوبهم الهموم والآلام ، وما اجتمعت القلوب على شىء

هو أجمع لشملها ، وأوثق لرباطها ، من اجتماعها حول مواقف الهموم والاحزان ، فسُرِّى عن هيلين قليلا ، وضمت پول وڤرچيني إلى صدرها وقالت لهما إنكما وان كنتما يا ولدىَّ سبب أحزانى وآلامى ولكن الشقاء لم يأتنى منكما ، فلم يفهما شيئاً مما تقول ، ولكنهما علما أنها قد هدأت وسكنت ، وأنها تبتسم لهما ، فاعتنقاها وقبلاها

وما لبثوا جميعاً أن عادوا إلى سرورهم وغبطتهم ، ولعبهم ومرحهم

وكانت تلك الحادثة أشبه شيء بسحابة واعترضت وجه الشمس ساعة ثم اضمحلت

٩

الاستعمار الاوربى

مضت على ذلك أيام والولدان ينموان فى جوهما نموّ النبات المحيط بهما ، وينمو معهما طيب أخلاقهما وحسن سجاياهما ، فبينا ڤرچيني جالسة فى الكوخ ذات يوم تهيئ طعام الافطار

لاسرتها كعادتها ، والشمس لاتزال فى خدرها ، وامّاها قد ذهبتامع دومينج لأداءصلاة الأحدفى كنيسة « بمبلموس » ، وبول فى الحديقة يشذّب بعض أشجارها ، وماري وراء الكوخ تشتغل ببعض شؤونها ، اذ دخلت عليها زنجية مسكينة آبقة [1] كأنها الهيكل العظمى نحولا وهُزالا ليس عليها من الثياب إلا خرقة بالية تدور بحَقْويها [2] فجثت على ركبتيها بين يديها باكية منتحبة وأنشأت تقول لها الرحمةَ يا سيدتى فانى أكاد أموت جوعاً ، وقد مرّ بى يومان وأنا أجوب هذه الأحراش والغابات أتوارى مرة ، وأظهر أخرى ، وأقتات كل ما هو فوق التراب ، مخافة أن تقع علىّ عيون بعض الفضوليين من الصيادين فيعيدونى الى سيدى ، والموت أهون على من أن أعود اليه ، فهو رجل قاس غليظ لا يزال يجلدنى ويمزق لحمى بسوطه كلما بدا له أن يفعل ذلك ، ثم كشفت ثوبها عن جسمها وأشارت الى مواضع الضرب منه

(١) الآبقة الهاربة من مولاها
(٢) الحقو الخصر

فاذا خطوط حمراء ملتهبة لايستطيع نظر الناظر أن يثبت أمامها لحظة واحدة ، ثم قالت : ولقد حدثتُ نفسى كثيراً بالانتحار فما كان يمنعنى منه الا الخوف والجزع ، ثم سمعت الناس يتحدثون عنكم حديثا حسنا ، ويقولون إنكم وإن كنتم من هذا الجنس الابيض المخيف ولكنكم قوم محسنون راحمون ، فأضرعُ اليك ياسيدتى أن ترحمينى وتعودى علىّ بلقمة أتبلّغ بها وأن تحولى بينى وبين الشقاء ، وهنا اشتد بكاؤها ونحيبها فأوَت[1] لها فرجينى ورقت لها رقة شديدة ونهضت الى الطعام الذى كانت أعدته لأسرتها فأتتها به فالتهمته فى لحظات قليلة وأخذ وجهُها يتطلّق فرحاً وسروراً ، فقالت لها فرجينى أتحبين أن أذهب معك الى سيدك وأشفع لك عنده عله يعفو عنك ويرحمك ويكون لك فى مستقبله خيراً منه فى ماضيه ؛ وما أحسبه الا فاعلاً حين يرى بؤسك وشقاءك ومنظر جسمك المعذب المقروح ، فشكرتْ لها الجاريةُ فضلها ورحمتها

(١) أوى له واليه بالقصر رحمه ورثى له

وقالت لها سأتبعك يا سيدتى حيث شئت فأنت ينبوع الرحمة والاحسان .

فهتفتْ ڤرجينى بپول فحضر فحدثته حديثَ الجارية والرأىَ الذى رأته لها، فوافقها على رأيها ، واقترح عليها أن يرافقها فى رحلتها، ثم سارا معًا والجارية تتقدمهما وتخترق بهما الغابات والأجَمات فى ممرات مستدقة غامضة تعرفها. وكانت تعترضهما فى مسيرهما بعض هضبات عالية كانا يجدان مشقة عظمى فى تسلقها حتى أشرفا وقت الظهيرة على ضفة النهر الاسود حيثُ مُقام الرجل ، فانحدرا اليه، وهناك شاهدا بِنْيةً عظيمة فخمة تحيط بها حدائقُ غناءُ، وأدواحٌ ملتفّة، ومزارعُ منبسطة، وعبيدٌ كثيرون منتشرون فى كل مكان يحرثون ويحصدون ، ويحفرون وينقبون ، ويخوضون الأوحال ، ويحملون الاثقال ، ويقطعون الصخور ، ولحاصاحب المزرعة يتمشى بينهم مِشية الخيلاء و « غليونه » فى فمه ينفُث منه الدخانَ وبيده عصا خيزران طويلة ، وهو رجل طويل القامة ، مهزول الجسم، غائر

العينين مقرون الحاجبين ، أخضر اللون ، مقطب الجبين ، كأنما قد جثمت روحُه الشريرة بين عينيه واستعدت للوثوب على كل من يدنو منهـا ، فارتاعت ڤرجيني لمنظره المرعب المخيف الا أنها لم تجد بداً من التقـدم ، فمشت نحوه خائفة مضطربة تعتمـد على يد پول والجاريةُ من خلفهما تتبعهما حتى بلغتهْ ،فجثت بين يديه وأخذت تضرع اليه أن يعفوَ عن جاريته المسكينة ويرحمها وتناشده اللهَ والـكتابَ فى ذلك ، فلم يكترث فى مبدأ أمره لمنظر فتًى وفتاة فقيرين زريَّين فى ملبسهما وهيأتهما ، الا أنه لمـا وقع نظره على ڤرجيني ورأى منظرها البديع الجـذاب ، وشعرها الاصفر الذهبيَّ المسترسـل على ظهرها ، وتلك العصابةَ الزرقاء التى تدور بجبينها الأبيض المشرق ، ورأى ماء الحياء يترقرق فى وجهها تَرقرق الطل فى ورقات الورد،وسمع صوتها الرخيم المتهدج كأنه ينبعث من آلة موسيقية شجية ، بُهت وشُدِه وأخرج غليونه من فمه، وابتسم ابتسامة نـكراء ، وتقدم نحوها قليلا

وألقى عليها نظرة فاجرة مريبة ، وقال لها قد عفوت عنها أيتها الفتاة الجميلة لا من أجل الله ، ولا من أجل الكتاب ، بل من أجلك أنت

فأشارتْ ڤرجيني الى الجارية أن تتقدم لتشكر لسيدها نعمتَه وفضله ، ثم انكفأتْ راجعة تركض ركوض الهارب وپول يتبعها حتى ارتقيا الجبلَ الصغير الذى هبطا منه وجلسا تحت دَوحة من أدواحه يستريحان ، وكان التعب قد نال منهما منالاً عظيما ، فقد قطعا فى ذلك اليوم خمسة فراسخ فى أرض صخرية وعرة لا يستريحان فيها ولا يهدآن ، ولا يتبلّغان[1] بطعام ولا شراب ، فقال پول لڤرجيني : هاقد مال ميزان النهار وبيننا وبين مزرعتنا مفازة منكَرةٌ لا أحسَبُ أننا نستطيع قطعها قبل الغروب ، وليس فى هذه البطحاء المحيطة بنا شجرةٌ واحدة ذاتُ ثمر صالح نَطعمه أو نَنتفع ظلمأنا بعُصارته ، وأنت ظامئة

(١) تبلغ بالشيء اكتفى وقنع

جائعة لا طاقةَ لكِ بالصبر على أكثرَ مما صبرتِ ، خيرٌ لنا أن نعود الى مزرعةِ مَولىَ الجارية ونطلب اليه أن يُمدنا بشيء من الطعام والشراب ، وما أحسبه ضانًّا علينا بهما

فوجمتْ ڤرچيني وقالت : لا يا پول ، إن هذا الرجل قد ملأ قلبي خوفاً ورعباً ، وما أحب أن أرى وجهه مرة أخرى ، واذْكرْ تلك الكلمةَ التي كانت تقولها لنا أمي دائما « ان خبز الاشرار يملأ الفم حصى » فلنمض في سبيلنا ، وما أحسب أن الله يخذُلنا ، أو يتخلى عنا

قال وما العملُ ، والشقة بعيدة ، والمنالُ وعرٌ ، والارض قاحلة جدباء لا ماءَ فيها ولا ثمرَ ولا شيء مما يتبلّغ به المتبلّغ ، أو يتعلل به الظامئ

قالت إن الله الذي يسمع زقزقة العُصفور الصغير في عُشه فيرسل اليه الحبةَ التي تقوته ، والقطرة التي ترويه ،

سيسمع دعاءنا ، ويردّ لهفتنا ، وماذلك عليه بعزيز

ثم سارا فى طريقهما فما أبعدا إلا قليلا حتى سمعا خريرَ ماءٍ على البعد فانتعشا وصاحا بصوت واحد « ان ههنا ماء » وتبعا الصوتَ حتى وصلا إلى صخرة عظيمة عالية يتفجر من صدوعها ماءٌ زلال رَقراق كأنه ذَوْب البلّوْر فى شفوفه ولمعانه ، فشربا منه حتى ارتويا ، ووجدَا من حوله بعضَ الاعشاب التافهة فأصابا منها قليلا ، ثم جاسا فى مكانهما

وإنهما لكذلك إذ لمحا على البعد نخلة سامقة من نخيل الجوز ، والجوزُ أنواع كثيرة متعددة ، وهذا النوع منها دقيقٌ مستطيلٌ لايزيد حجم ساقه عن حجم ساق الانسان إلا قليلا ، وربما ذهب فى الهواء ستين قدماً أو أكثر ، وله فى شَعَفاته[1] لفائفُ ضخمة متراكبة أشبه شىء بلفائف الكرنب تحمل فى جوفها طلعاً أبيض ناصعاً ، حلو الطعم ، جيد الغذاء

(١) شعفاته أعاليه

فابتهجا بها إذ رأياها، وهرعا اليها، وكانا بين أن يَصعداها، وهو مالاسبيل إليه، أو يقطعاها وهو ماتَعيا به قوتهما، لأن جذعها على رقته ونحافته مؤلف من خيوط ليفية متداخلة متينة النسج، سميكة القشرة، تعيا بها الفؤوس القاطعة، فلم يبق أمامهما إلا أن يحرقاها فتهوي بين يديهما فيظفرا بثمرها. ولم يكن لديهما نارٌ ولا شيءٌ مما تُقتدح به النارُ، وليس فى تلك المدَرَة جميعها على كثرة صخورها وأحجارها، واختلاف صورها وأشكالها، حجرٌ من أحجار الاقتداح، ففتقت الحاجةُ لبول حيلةً من أغرب الحيل وأبدعها، وقديما فتقت الحاجاتُ حيلَ الرجال، واستثارت دفائن ذكائهم وفطنهم، وما انتفع العالم فى جميع شؤونه وأحواله بمثل ما تفتقه الحاجات والضرورات، ولا نبتت أغراس المعارف والعلوم والمستكشفات والمخترعات إلا فى تربة الفقر والاقلال، فعمِد إلى ظِرّ [1] رقيق الاطراف

(١) الظر الحجر المحدد

مما يَقُوم لدى سكان تلك الاصقاع مقام المُدى فى منفعتها وجدواها ، فبرى به طرفَ غصن يابس متين حتى صيَّره كالسهم ، ثم عمد إلى غصن آخر من نوع غير نوعه فثقبه ثقباً دقيقاً بحد ذلك الحجر نفسه ، ثم أدخل طرفَ الغصن الاول فى ثقب الغصن الثانى بعد ماشد عليه بقدمه وظل يديره بكلتا يديه بسرعة عظيمة ، فما هى إلا لحظاتٌ حتى التهب الغصنان وانبعث منهما دخان وشَرر ، فجمع بضعة أعواد يابسة وأوراق جافة وألقاها على النار فاشتعلت ، فأدناها من ساق النخلة فنشبت بها ، ولم تلبث إلا قليلا حتى هوت بين يديه هُوِىَّ الكوكب النارىّ من سمائه ، فأخذ ينفض اللفافات عن طلعها الابيض النضير ، وجلس هو وڤرچينى يشتويان ويأكلان ألذّ طعام وأهنأه حتى اكتفيا ، ومرت بهما ساعةُ سرور وغبطة نسيا فيها بؤسهما وشقاءهما ، ثم ما لبثا أن جمعا شتات نفسهما وأخذا يتمثلان حيرتَهما وضلالهما ، وبُعد الشقة بينهما وبين أرضهما ، ويذكران قلق

أميهما عليهما، وجزعهما لغيابهما، ويقولان فى نفسهما لابد أن تكون الظنون قد ذهبت بهما مذاهب سيئة فى شأنهما حينما عادتا من الكنيسة الى المزرعة فلم تجداهما، ولم تعرفا الوجه الذى ذهبا فيه

ثم نهضا من مكانهما وأخذا يدوران بأنظارهما يمنة ويسرة ليتعرّفا الطريق التى أتيا منها فأضلاها فسقط فى أيديهما ولم يعرفا كيف يعودان، وكان پول أهدأ من ڤرجينى روعا، وأثبت جأشاً، فظل يعللها ويهدئ روعها ويقول لها إن كوخنا يكون دائما فى مثل هذه الساعة تحت قرص الشمس، فاذا نحن اتجهنا جهة الشرق لا نحيد عنه يمنة ولا يسرة ثم صعدنا هذا الجبل المثلث الرأس الذى نراه أمامنا لا نلبث أن نجد أنفسنا فى مزرعتنا

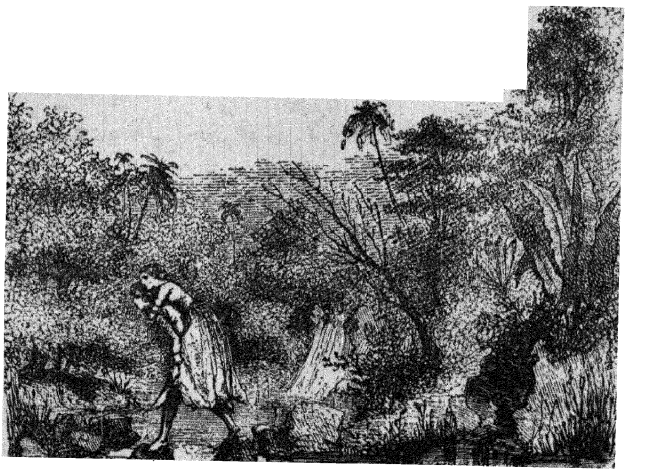
وأخذا يسيران فى الوجهة التى توهماها فمرا بغابات كثيرة، وأدواح ملتفّة، وهضاب عالية، وأنهار جارية، لم يطأ السائحون لها أرضاً حتى اليوم، وظلا على ذلك ساعتين

حتى اعترض طريقهما نهرٌ واسع يتدفق ماؤه تدفقاً، فذُعرت ڤرجيني لمنظره ومنظر الصخور السوداء الجاثمة فى مجراه واستحال عليها أن تضع قدمها فيه . فلم ينشَبْ[1] پول أن حملها على ظهره وخاض بها الماء لا يحفل بتياره المتدفق ، ولا بصخوره المتزلّقة ، وظل يقول لها وهو سائر بها : لا تخشى شيئاً ياأختاه فانى جَلْدٌ قوىٌّ لا يعجزني حمل شيء من الاشياء كيفما كان شأنه . وأشعر أنى أزداد قوة وجلداً حين أكون معك ، وأستطيع أن أقول لك إن نفسى كانت تحدثنى بشر عظيم لذلك الرجل مولى الجارية حينما ظننتُ أنه احتقرك وازدراك فلم يحفل بك ولا برجائك ، ولو أنه فعل لبطشت به بطشة لا أبالى بعواقبها

فاضطربت ڤرجيني وقالت له ولكنك لا تفعلُ يا پول إلا إذا أردت أن تكون غلاماً شريراً ، دع الاشرار ياصديق وشأنهم ، لا تَهْجم ، ولا تعترض طريقهم ، عسى أن يموت

(١) لم ينشب لم يلبث

شرهم فى صدورهم حينما لايجد له مضطرَباً ولا منتدَحا، ثم تنهدت ورفعت رأسها إلى السماء وقالت: آه يارب لمَ لا تجعل طريق الخير سهلا ليناً كطريق الشر



« پول يخوض النهر حاملا »

« فرجينى على ظهره »

ولم يزل سائراً بها حتى بلغ الضفة الاخرى، وأراد أن يستمر فى سبيله حاملا إياها على ظهره حتى يصعد بها الجبل

المثلث الرأس اعتزازاً بقوته وبأسه ، فألحت عليه ألا يفعل فأنزلها

واستمرا سائرين فى أرض وعرة كأداء [1] كاطّراد السيف تحفى فيها النعال ، وتدمى الاقدام ، وكانت ثرجينى قد نسيت نعلها فى كوخها حينما ورد عليها من أمر تلك الزنجية المسكينة ماأذهلها وطار بلبها ، فأضرَّ بها الجهد ، وأدمى قدميها المسير ، فلم تزل تتحامل على نفسها حتى وصلت إلى جدول ماء جار فترامت على ضفته وأخذت تَنضح قدميها بمائه ، ثم مدت يدها إلى شجرة فرعاء حانيةٍ عليه فاقتطعت بعض أعوادها وأوراقها ونسجت منها لنفسها ما يشبه النعل ، فانتعلته فبدأ بعض مابها ، وأقبلتْ على پول تقول له هاهى ذى الشمسُ قد أشرفت على المغيب ، ولا تزال الشقة بيننا وبين المزرعة بعيدة جداً ، وقد نال منى التعب ، ولم يبق لى جلدٌ على المسير . فاتركنى وحدى هنا ، واذهب إلى المزرعة لتخبرَ

(١) الارض الكأداء الشاقة الوعرة

أهلنا خبرنا فيطمئنوا علينا ، وابعثوا إلى من قبلكم من يحملنى اليكم ، فأبى پول مستعظما الأمر ، وقال الموتُ أهون علىّ من أن أتركك وحدك فى هذا المكان الموحش المقفر ، فسأبقى معك ما بقيت ، فان أظلّنا الليل قطعت لك نخلة من نخيل الجوز فأطعمتك ثمرها كما فعلتُ الغداةَ ثم نسجتُ لك من أعوادها وأغصانها مهاداً لينا تنامين عليه وأنا ساهر بجانبك حتى الصباح

فأذعنتْ لرأيه وكانت قدشعرت بشىء من الراحة بعد ما خَصفت قدميها بتلك الاعواد المخضلّة ، فقامت تعتمد بيمناها على فرع قطعته من تلك الشجرة ، ويسراها على كتف پول ، حتى بلغا غابة كثيفة قد أحاط بها من جميع أقطارها كثير من الأدواح الباسقة الملتفة ، فدخلاها ، وما أمعنا فيها الا قليلا حتى احتجب عنهما وجه الشمس وراء تلك الهضاب الشامخة ، والأدواح العالية ، وغاب عن عينيهما الجبل المثلث الرأس ، وكان علمهما الذى يهتديان به ، فاذا هما

فى مَضلّة يهماء لا يريان فيها غير الصخور العالية ، والهضاب المشرفة ، والأشجار المتشابكة ، والمسالك المتشابهة ، والأعماق المتغلغلة ، فذعر پول ذعراً شديداً ، ووقف فى مكانه حائراً ذاهلا لايدرى ماذا يأخذ وماذا يدع ، ثم اندفع يعدو ههنا وههنا هائماً مخبولا عله يجد طريقاً أو مسلكا ، أو دليلا يهديه الطريق ، فلم يجد ، فتسلق شجرة عالية ووقف بين فرعين من فروعها وظل يدور بنظره حوله ليرى موضع الجبل المثلث الرأس ، أو يرى قرص الشمس فى منحدَرها الى مغربها ، فلم ير غير ذوائب الأشجار العالية تتلألؤ على أوراقها الخضراء أشعةُ الشمس الذهبية قبل انحدارها الى الغروب ، وغيرَ الظلال الممتدة التى يرسلها الليل طلائعَ لجيوشه الزاحفة المتدفقة ، وكانت الريح قد هدأت وخفت صوتها شأنَها ساعة الغروب ، وساد السكون على كل شىء ، فأصبحت الغابة كأنها كوكب من كواكب السماء ، السابحة فى أجواز الفضاء ، لايدب فيها حيوان ، ولا يخطر انسان ، فملك الخوفُ قلب پول

وجُن جنونه ، وأخذ يصيح بأعلى صوته لا يَدرى من يحدِّث ولا من ينادِى ، الغوثَ الغوثَ ، النجدةَ النجدةَ ، الىّ أيها الناس لتنقذوا ثرچينى البائسة المسكينة ، فلم يجبه غير الصدى المتردد



« پول يصيح ويستنجد الناس »

ولم يزل يكرر هذا النداء والصدى يردد صوتَه حتى خيل اليه أن صوته قد أصبح صدى من تلك الأصداء ، فنزل من مكانه خائراً متضعضعاً ، ليس وراء ما به من الهمّ

غاية ، ثم وقف وأجال نظره فى الفضاء فلم ير ماءً ولا ثمراً ، ولا نخيلا ولا شجراً ، ولا كِنّاً ولا مأوى ، ولا شيئاً مما يقتات به المقتات ، أو يتعلل به المتعلل ، فصرخ صرخة عظمى ، وتهافت على الارض باكيا منتحباً ، فدُعرت فِرجينى حين رأته على تلك الحال وهرعت اليه وضمته إلى نفسها وظلت تقول له : لاتبك ياپول فان بكاءك يقتلنى هما وكمداً ، واغفر لى جريمتى التى أجرمتها اليك فلولاى لما قاسيتَ هذا البلاء الذى تقاسيه الآن ، ولقد كان خيراً لى ألا أُقدمَ على عمل من أعمال الخير أو الشر إلا بعد استشارة أمى ، ثم قالت له دع البكاء والنحيب ولنتوجه الى الله تعالى بالضراعة والابتهال عسى أن يفرج كربتنا ، ويجعل لنا من أمرنا مخرجا

وجثيا يصليان صلاة طويلة استغرقت شعورَهما ووجدانَهما ، وذهبت نفساهما فيها حيث تذهب نفوس القانتين المتبتّلين فى مواقف خشوعهم وابتهالهم ، وكانت الشمس قد انحدرت إلى مغربها ولم يبق منها فى حاشية الأفق

إلا كما يبقى على صفحة البحر الهادئ من آثار السفينة الماخرة، فلبثا على ذلك هنيهة ثم استفاقا على صوت كلب ينبح نباحاً شديداً، فصاح پول إنه كلب أحد الصيادين الذين يرصدون



« پول وفرجيني يصليان »

الايائل[1] في أعماق هذه الغابات ليطلقوا عليها كلابهم فتعقرها، ثم اشتد نباح الكلب وأخذ يدنو منهما شيئاً فشيئاً، فارتعدت فرجيني وقالت يخيل الىَّ ياپول أني أسمع صوت كلبنا « فيديل » لا بل هو بعينه، وما ارتبتُ فيه قط،

(١) الايائل جمع أيل بالتشديد حيوان كالوعل

وما أتمت كلمتها حتى كان الكلب « فيديل » تحت أقدامهما يتمسح بهما ويجاذبهما أثوابهما ، ويكاد لو استطاع أن يبكى فرحا بهما ، ثم ما لبثا أن رأيا الزنجى دومينج مقبلا عليهما ، فازداد سرورهما واغتباطهما ، وما وقع نظر الرجل عليهما حتى هرع اليهما وجثا تحت أقدامهما باكيا مستعبراً ، وظل يقول لهما لقد مر بأميكما اليوم ياولدىّ يومٌ ما مر بهما مثله منذ نزلا هذه الأرض حتى اليوم ، ولقد كان جزعهما عظيما جداً حينما عادتا من الكنيسة فلم تجدا كما ، ولم تعرفا أى سبيل سلكتما ، ولا أىّ أرض اشتملت عليكما ، ولم تستطع مارى أن تقول لهما شيئاً لأنها كانت مشتغلة ببعض الشؤون وراء الكوخ فى الساعة التى خرجتما فيها فلم تركما ، وقد فتشنا عنكما فى كل مكان ، وسألنا عنكما كل غاد ورائح ، فلم نجد من يدلنا عليكما ، فرأيت أن أستعين بالكلب فيديل على تتبع آثاركما ، فأحضرت له بعض أثوابكما وألقيتها بين يديه فاشتمّها ، وكأنه علم ما يراد منه فألصق خيشومه بالارض

وانبعث فى الطريق التى سرتما فيها فعلَ الدليل الحاذق ، فتبعتُه أخترق الغابات والأجمات ، وأتسلق الصخور والهضاب ، وأجتاز الجداول والأنهار ، وأشعر بجميع ماشعرتما به من المتاعب والآلام ، حتى بلغنا ضيْعة الرجل الاوربى ، على شاطئ النهر الاسود ، وهنالك حدثنى بعض الذين عرفتهم من عبيده وأجرائه أنكما حضرتما اليه لتسألاه العفو عن زنجية مسكينة كانت قد أبقتْ منه وخافت الرجوع اليه فوعدكما بالعفو عنها . ثم ما لبثتما أن عدتما أدراجكما قبل أن تعلما ما تم فى شأنها

فاضطربت فِرجينى وقالت : وماذا تم فى شأنها ؟ ألم يعف الرجل عنها ؟ فابتسم دومينج وقال : نعم عفا عن قتلها وإزهاق روحها ، أما ما دون ذلك فلا . فانه ما لبث على أثر ذهابكما أن أمر بشدها الى بعض الأشجار عارية ، وظل يجلدها بسوطه حتى تناثر لحمها ، وتدفق دمها ، ثم تركها مكانها تتأوه آهات تستبكى العيون وتذيب الأكباد ، وقد رأيتها

بعيني ، فلم أستطع البقاء أمامها لحظة واحدة

وما أتم كلمته حتى صعقت فرجيني وهتفت بكلمتها التي كانت ترددها دائما : آه يارب لِمَ لم تجعل طريق الخير سهلا لينا كطريق الشر

ثم عاد الزنجي الى حديثه يقول :

ثم انكفأ فيديل راجعاً فتبعتُه فسار قليلا على شاطئ النهر الاسود ثم صعد الجبل الصغير المشرف عليه فصعدت وراءه حتى قادني الى عين ماء جارية رأيت على مقربة منها نخلة من نخيل الجوز ساقطة محترقة لايزال ينبعث دخانها وبقايا طلع مشوىّ متناثر حولها ، فعلمت أنكما عجلتما بهذا المكان وأن الجوع كان قد نال منكما منالا عظيما فتجشمتما في طلب الطعام هذا العناء الكثير ، ثم قادني الكلب بعد ذلك الى هنا كما تريان ، ونحن الآن على مقربة من الجبل المثلث الرأس ، وبيننا وبين المزرعة أربعة فراسخ ، وقد أرسلتْ لكما سيدتاي هذا الطعام فكلاه وخذا لنفسكما

راحتها وسكونها ، ثم نرى بعد ذلك كيف نعود ، وأخرج لهما طعاماً كثيراً ، وأثماراً متنوعة ، وركوة ماء قراح ، وشيئاً من شراب الليمون المحلى بالسكر ، وجلسوا جميعاً يأكلون ويشربون فرحين مغتبطين ، لولا ما كان ينغص على ڤرجيني أحياناً من ذكرى تلك الزنجية المسكينة المعذبة حتى فرغوا من الطعام وتهيأوا للمسير ، فاذا پول وڤرجيني ضعيفان متضعضعان لا يستطيعان الانتقال خطوة واحدة لما نالهما من الأين والاعياء

فوقف دومينج وقفة الحائر المضطرب لا يدرى ماذا يصنع ، أيحملهما على عاتقه ، وهو مالا طاقة له به ، أم يقضى الليل بجانبهما ، ووراءهما أمّاهما تنتظرانهما انتظار الظامئ الهيمان علالةَ الماء البارد ، أم يرجع الى المزرعة وحده ليعود منها بمن يساعده على حملهما ، وكيف له بتركهما وحدهما فى هذه القفرة الموحشة التى لا يعلم الا الله ماذا تضم بين أقطارها من مخاوفَ وأهوال ، فتنفّس تنفسةً طويلة وأنشأ

يقول : أسفى على تلك الأيام المواضى التى كنت أحملكما فيها يا ولدىّ على ذراع واحد ما أشكو ولا أتبرّم ، أما اليوم فقد وهَن عظمى ، وضعفت مُنى ، وتقاربت خطاى ، ولم يبق لى من الحياة الا هذه الخطوات البطيئات التى أخطوها الى قبرى

وإنه لكذلك إذ لمح أشباحا سوداء تنحدر إليه من قمة الجبل كأنها قطع الليل فراعه منظرها ، ثم تبينها فاذا قوم من الزنوج السود الآبقين من ظلم مواليهم البيض فى شعاب الجبال ومخارمها ، وكانوا قد سمعوا وهم فى مكمنهم حديثه مع الولدين ورأوا حيرته فى أمرهما فجاءوا لمساعدته ، وقال له زعيمهم : إن هذين الأبيضين الصغيرين من أطيب الناس قلباً ، وأشرفهم نفساً ، وأدناهم رحمة ، فقد جشّما اليوم نفسهما عناء عظيما فى سبيل مساعدة زنجية مسكينة كان قد بلغ بها الشقاء والبلاء مبلغهما ، فرحماها وأَوَيا اليها وذهبا بها الى سيدها ليشفعا لها عنده ويسألاه العفو عنها والمرحمة بها ،

وقد رأيناهما صباح اليوم وهما سائران معها إلى شاطئ النهر الاسود فشكرنا لهما فى أنفسنا فضلهما ونعمتهما ، وعجبنا كيف استطاع ذلك الاهاب الابيض الدميم أن يضم بين أقطاره قلباً غير أسود ، وقد سمعنا الآن حِوارك معهما . وعلمنا أنهما فى حاجة إلى من يحملهما الى مزرعتهما ، فجئنا لنتولى ذلك بأنفسنا مكافأة لهما على نعمتهما التى أسدياها الى تلك الطريدة المسكينة

ثم أشار الى أصحابه فاقتطعوا فى لحظات قليلة بضعة أعواد من بعض الاشجار العاتية وصنعوا منها ما يشبه المحفّة فصعد إليها بول وڤرجينى ، وحملها أربعة منهم على عواتقهم ومشى الباقون أمامهم يتيرون الطريق بمشاعلهم ، ويغنون أغانيهم الخاصة ، كأنما قد نسوا جميع همومهم وآلامهم التى يعالجونها فى أنفسهم حتى وصلوا عند منتصف الليل الى المزرعة

وكانت هيابن ومرغريت تنتظران ولديهما منذ غروب

الشمس عنـد سفح الجبل ، وقد نصبتا حولهما على أبعاد مختلفة بعض المشاعل الـكبيرة لتريا على ضوئهـا وجوه القادمين ، فـا لمحتا المحفّةَ عن بعد حتى طارتا إليها وضمتا ولديهما إلى صـدرهما با كيتين منتحبتين ، فبكى الولدان لبكائهما ، وبكى الجميع لبكائهم ، والتفتت هيابن الى ابنتها وقالت لها أين كنتما أيهـا الولدان الشقيان ، ومن أذنكما بالذهاب وحدكما فى هذه الفلاة الموحشـة ، فجثت ڤرچينى بين يدى أمها ، وقالت لها العفو يا أماه ، فقد جاءتنى اليوم زنجية مسكينة آبقة من سـيدها تتضور جوعا ، وتسيل نفسها هماً وكمداً ، فسألتنى أن أطعمها وأسقيها ، وأن أنقذها من بؤسها وبلائها ، فقدمت لهـا ما شاءت من الطعام والشراب ، ثم حرت فى أمرها بعد ذلك فلم أرَ خيراً لهـا من أن أصحبها إلى سيدها وأسأله العفو عنها والمرحمة بها ، وأبى پول الا أن يصحبنى فذهبنا الى شاطئ النهر الاسود فلما فرغنا من شأننا وأردنا الرجوع ضللنا الطريق ، وظللنا

حائرين ساعات طوالا حتى وافانا دومينج ، وكان التعب قد نال منا منالا عظيما ، فعجزنا عن المسير ، فتقدم هؤلاء السود الطيبون لمساعدتنا وصنعوا لنا هذه المحفّة ، وحملونا عليها رحمة بنا ، ووفاء بذلك المعروف القليل الذى بذلناه لمواطنتهم المسكينة ، وكذلك يجزى الله المحسنين خيراً بما فعلوا

فضمتها أمها الى صدرها ، وقالت قد عفوت عنكما يا ولدىّ ، ولا أحرمكما الله نعمة العطف على البائسين والمنكوبين

ثم عادوا جميعاً الى أكواخهم فرحين مغتبطين وقدموا للزنوج كثيراً من الطعام والشراب فشكروا لهم فضلهم وانصرفوا

١٠
السعادة

وهنا تنفس الشيخ الصعداء ثم قال : أستطيع أن أقول لك يابنيّ إن السعادة ينبوع يتفجر من القلب ، لا غيث يهطل من السماء ، وإن النفس الكريمة الراضية البريئة من أدران الرذائل وأقذارها ، ومطامع الحياة وشهواتها ، سعيدة حيثما حلت ، وأنّى وُجدت ، فى القصر وفى الكوخ ، فى المدينة وفى القرية ، فى الأنس وفى الوحشة ، فى المجتمع وفى العزلة ، بين القصور والدور ، وبين الآكام والصخور ، فمن أراد السعادة فلا يسألْ عنها المالَ والنشب ، والفضة والذهب ، والقصور والبساتين ، والارواح والرياحين ، بل يسألْ عنها نفسه التى بين جنبيه ، فهى ينبوع سعادته وهنائه إن شاء ، ومصدر شقائه وبلائه إن أراد ، وماهذه الابتسامات

التى نراها تتلألأ فى أفواه الفقراء والمساكين ، والمحزونين والمتألمين ، لأنهم سعداء فى عيشهم ، بل لأنهم سعداء فى أنفسهم ، وما هذه الزفرات التى نسمعها تتصاعد من صدور الأغنياء والاثرياء ، وأصحاب العظمة والجاه ، لانهم أشقياء فى عيشهم ، بل لانهم أشقياء فى أنفسهم ، وما كدَّر صفاءَ النفوس وأزعج سكونَها وقرارها ، وسابها راحتَها وهناءها ، مِثلُ عاطفة البغض ، ولا أثار صفحتها وجلّى ظلمتها ، مِثلُ عاطفة الحب ، فأشقى الناس جميعاً المبغِضون الذين يضمرون الشر للعالَم ، فيجزيهم العالَم شراً بشر ، وأسعدهم جميعا المحبون الذين يحبون الناس ويمنحونهم ودهم وصفاءهم . فيمنحهم الناس من بنات قلوبهم مِثل ما منحوهم

وكذلك استطاعت تلك الأسرة الفقيرة المسكينة أن تكون سعيدة هانئة على فقرها وإقلالها وجعجعة المصائب بها ، فقد كانت تحمل بين جنويها نفوسا طاهرة شريفة

لا تضمر حقداً ، ولا تعرف غلاً ، فأحبت القريب والبعيد ، والمحسن والمسيء ، وعطفت على الناس جميعاً ، من تَمتُّ اليه بصلة ، ومن لا تمتُّ اليه بشيء

ولم تحقد على الناس أو تضمر لهم فى نفسها شراً ، وما لها إلى الناس حاجة ، ولا رأى لها فى مطالبتهم بشيء مما فى أيديهم من مال أو جاه ، أو قوة أو سلطان ، فقد قنعت من عيشها بما قسم الله لها ، ولم تطلب مزيدا ، ورضيت من حياتها بهذه العُلالة القليلة التى تتعلل بها ، فأراحت نفسها من هموم المطامع ومتاعبها

وكانت أحاديثها التى تجرى بينها أحاديثَ طاهرة بريئة لا تَطغى فيها الالسنة ولا الأفكار ، ولا تتناول شأناً من شؤون الناس خاصِّها أو عامها ، والغيبة رسولُ الشر بين البشر . بل هى أسّ الشرور جميعها ، قديمها وحديثها ، لان المرء اذا اعتقد من طريقها الشرَّ فى صديقه أو عشيره وملكته فكرةُ سوء الظن به أبغضه واجتواه ، وحَذِره

واتقاه ، وكان لابد له من احدى اثنتين ، إما أن يصارحه ببغضه إياه ، فتصبح حياته معه حياة نكدة لا نهاية لهمومها وآلامها ، أو يماذقه ويداوره ، فيصبح رجلا منافقاً كذاباً ، وخير له من هذا وذاك ألا يسمع عن الناس خيراً ولا شراً

نعم إنها لم تكن تعتمد فى حديثها على العلم والتاريخ كما يعتمد الناس فى مجتمعاتهم ، ولا كانت محاضراتها حافلة بالشواهد والامثال ، والعظات والعبر ، والمقارنات والموازنات ، ولكنها كانت لذيذة شهية رقيقة مستملحة ، لانها كانت تستمد جمالها ورونقها من كتاب الطبيعة المفتوح أمامها ، وكتابُ الطبيعة هو الكتاب المشرق المنير الذى لا يقبل تأويلا ، ولا يحتاج إلى تفسير ، والذى يرى فيه قارئه الحياة كما خلقها الله ، فلا حاجة به إلى من يدله عليه ، أو يرشده اليه

وما هى إلا أيام قلائل حتى انتشر لتلك الأسرة الكريمة بين سكان تلك الجزيرة ذكرٌ عطر ، فأخذ الناس

يتحدثون بأدبها ولطفها ، ومروءتها وكرمها ، وأياديها الظاهرة والخفية ، ورحمتها الخاصة والعامة ، وان لم يعرفوا لها إسما ولا لقباً ، فاذا سأل سائل من السابلة أو الطارئين من هم ؛ كان جواب المجيب : إنهم قوم طيبون وكفى ، كشجرات البنفسج المختبئة بين لفائف الأدغال ينشق الناس طيبها ، ويحمدون عَرفها ، وان لم يعرفوا مكانها

١١
العمل

وكان پول وهو فى الثالثة عشرة من عمره كانه فى الخامسة عشرة قوة ونشاطا ، وهمة وعزيمة ، وذكاء وفطنة ، فكان لايمل العمل نهاره ولا ليله ، ولا يتلهى عنه بما يتلهّى به أمثاله من الغلمان فى مثل هذه السن ، وكأنما كان يشعر فى نفسه أنه مسئول عن هذه القفرة الموحشة أن يحيلها إلى جنة فيحاء من جنان الأرض ، فلا بد له أن

يعمل حتّى يصل إلى الغاية التى يريدها ، وكان لا يعمل قبل أن يفكر ، ولا يفكر إلا تفكيراً صحيحاً مستقيما ، وقد وهبه الله قريحة وقادة ، وذهناً خصباً ، وذوقاً سليما ، ومخيلة قوية قادرة على جمع شوارد الاشياء والتأليف بين متنافراتها ، فرسم فى ذهنه صورة بديعة لذلك الوادى الجميل كما يفعل المهندس الماهر ، وأخذ نفسه بالعمل لابرازها وتحقيقها ، فلم يخطئ ولم يضطرب ، ولم يلجأ إلى الاستشارة إلا فى القليل النادر مما يستعصى مثله على أمثاله . فكان لا يراه الرائى إلا غادياً أو رائحاً . أو مُصعداً أو منحدراً ، أو متسلقاً شجرة ، أو مكبّاً على قناة ، أو حاملا غرساً ، أو خائضاً نهراً ، ودومينج وراءه يعينه على مايعجز عنه من حمل الاثقال وتحويل المياه ونقل الاغراس ، فأنشأ الحظائر المختلفة للحنطة والشعير ، والدخن والذرة ، والقطن والقصب . تزخر كل حظيرة بما فيها من ماء وثمر ، وغرس أشجار الليمون والبرتقال والتمر هندى ونخيل البلح والجوز وألواناً من

الازهار والانوار تتألق فى أغصانها تألق الاحجار الكريمة فى التيجان المرصعة ، وأحرى المياه حول تلك الاغراس وفى خلالها بنظام دقيق كانما قد خطها بالبركار ، وزرع الاكمات والروابى المشرفة على الوادى من جميع نواحيه فتراءت لعين الناظر كانهـا قباب لطاف أو أهرام صغار مكسوة برقائق الخز والديباج على اختلاف أصباغها وألوانها، ولم يترك بقعة جدبة ولا أرضا صلبة إلا هز تربتها ، وأحيا مواتها ، فاستحالت إلى روضة أُنُف (١) تتدفق ثماراً وأزهاراً ، وتسيل عيونا وغدرانا ، وأعجب ما كان يعجب له الناظر فى هـذه الروضة الزاهرة منظر المياه المتدفقة من أعالى الجبال تنثر الخصب حولها نثراً ، وتدور بالربى والهضاب قلائد وعقودا ، وبالخمائل والاشجار أوشحة ومناطق ، وتتلوّى فى سيرها وتدفعها تلوىَ الحيات المذعورة الهائمة على وجهها ، حتى إذا انتهت إلى السفح مشت برفق وهدوء

(١) الانف من الرياض مالم يرعه أحد

تتبسّط فى مذاهبها ومناحيها ثم تتلاقى أطرافها فتكوّن بركا صغيرة مستديرة تحف بها الاعشاب المخضرة كما تحف بالعيون أهدابُها ، فاذا انعكست على تلك البرك زرقة السماء خيل اليك أنها المرايا[١] الصافيات فى أُطرها[٢] أو أحجار الفيروز فى خواتمها ، ولما كانت الارض فى تلك الدائرة متدرجة غير مستوية فقد راعى أن يغرس الادواح الباسقة فى البقاع المنخفضة ، والاشجارَ المتوسطة فى الاماكن المتوسطة ، والشجيرات القصيرة فى المشارف العالية ، فاستوت رءوس الاشجار فى علوها وارتفاعها كأنما قد قرضت ذوائبها بمقراض ، أو كأنما غرسها غارسها فى بطحاء مستوية ، وكان يعمد إلى الهضاب العالية ذات الجباه البارزة فيغرس بين يديها الاشجار العظيمة المورقة فتتلاقى ذؤابة الشجر بذؤابة الهضبة فتتكون منهما قبة جوفاء تشرف على مجلس رطب ظليل كانوا يفيئون اليه من حر الهاجرة

(١) المرايا جمع مرآة (٢) الاطر جمع إطار وهو مايحيط بالشيء

فاذا هم فى روضة يانعة من رياض الجنة تَزْخَر أشجارها ، وترنّ أطيارها ، وترفّ ظلالها ، وتتهادى نسائمها ، وأجمل من هذا وذاك انه غرس صفين متقابلين من الاشجار الوحشية الضخمة يمتدان على مدى بعيد فتألّفَ منهما دهليز ضيق مستطيل لاتنفذ اليه أشعة الشمس ، ولا تكاد تصل اليه أضواء النهار ، فاذا دخله الداخل خيل اليه أنه يسير فى نفق مظلم تحت الارض ، وشعر بوحشة غريبة أشبه بتلك الوحشة التى يشعر بها سكان السراديب فى سراديبهم ، أو عملة المناجم فى أعماق مناجمهم

فى أحضان ذلك الوادى الجميل ، وفى ذمة تلك الجنة الزاهرة ، وبين أعطاف تلك الدائرة الواسعة المخضرة من الربى والهضاب ، كان يعيش هؤلاء القوم فى أكواخهم البسيطة عيشاً سعيداً هانئاً متمتعين بما لايتمتع به الأثرياء فى قصورهم وبساتينهم ، والسعداء فى جناتهم وعيونهم ، فاذا انقضى النهار وأوت الشمس الى خدرها صعدوا الى

صخرة عظيمة تشرف على ذلك الوادى جميعه فيتجلى أمامهم منظره العام بعيونه وغدرانه ، وأعشابه وأشجاره ، وخمائله وكرومه ، ومروجه وحرَجاته ، وظلاله وأضوائه ، فاذا ألقوا بأنظارهم فى جو السماء المائج فوق رءوسهم بأضوائه وأنواره خيل اليهم أنهم بين سماءين متقابلتين ، سماء تنبت الكواكب والنجوم ، وأخرى تنبت الأزهار والأنوار ، أو روضتين مترائيتين ، تتألق فى احداهما الزنابق البيضاء ، على ديباجة زرقاء ، وفى أخراهما الورود الحمراء ، على قطيفة خضراء

١٢

التاريخ

وكانوا يسمون هذه الصخرة « اكتشاف الصداقة » لأن پول غرس فى قمتها شجرة دقيقة من شجر الاثل ورفع فى أعلاها منديلا أبيض يشبه العلم وناطه بخيوط مختلفة تسترسل الى أسفل الشجرة ، فاذا لمحنى مقبلا على البعد شدّ الخيط فانتشر المنديل واضطرب فى الهواء ، وكان ذلك إعلاناً للأسرة بقدومى ، كما يُرفع العلم على قمة الجبل إعلاناً بقدوم سفينة الى الشاطئ

وكذلك كان شأنهم دائما فى تسمية الاماكن والبقاع والجذوع والأشجار التى يحبونها بأسماء لطيفة يرمون بها الى غرض خاص ، ويُسجلون بها فكرة معينة ، فكان يخيل الىّ انهم يلقون عليها أشعة أرواحهم النورانية السامية فتدبُّ فيها حياة جديدة فوق حياتها الأولى ، فأطلقوا اسم

« ميدان الاتفاق » على بساط من العشب الأخضر مُسَوّر ببضع شجيرات متّسقات من أشجار البرتقال كان پول وڤرچيني يرقصان عليه معاً في ضوء القمر ، وأطلقوا اسم « الدموع الممسوحة » على شجرة عتيقة جلست تحتها هيلين ومرغريت لأول عهدهما باللقاء ، وأخذت كل منهما تقص على صاحبتها قصتها وتبثها أحزانها وآلامها فتضمها الأخرى الى نفسها وتعزيها عن همها وتمسح لها دموعها ، وسموا حقلا من القمح باسم « نورماندى » مسقط رأس هيلين ، وآخر من الأرز باسم « بريتانيا « مسقط رأس مرغريت ، الى كثير من أمثال تلك الذكريات القديمة ، كأنما أرادوا وقد هجروا بلادهم الى الأبد وحالت الحوائل بينهم وبينها أن يستصحبوها معهم تصوراً وخيالا ، بعد ما فقدوها سكناً وموطناً ، ليأنسوا بها بعض الأنس ، ويطفّوا من حرارة شوقهم اليها

وأغرب من ذلك أن الزنجيين ماري ودومينج لم يكن

قلبهما خالياً من ذلك الشعور الطيب الشريف شعور الوفاء للوطن الأول والحنين اليه ، فأطلقوا اسم « أنغولا » و « فول پوانت » على بعض حقول الدخن ومنابت القرع شغفاً بأوطانهما وعهود صباهما وضنا بذكراها أن تزول

وكانت تعجبنى من هؤلاء القوم كثيراً تلك الروح الاثرية الغالبة على شعورهم ووجدانهم لأنى أعتقد انها هى بعينها روح الوفاء والاخلاص ، وان من لاخير فيه لماضيه ، فلا خير فيه لحاضره ومستقبله

وما زلتُ مذ نشأت لأوثر منظراً من مناظر الحياة ولا مشهداً من مشاهد الحسن والجمال على منظر أثر قديم أعثر به فى سفرة من أسفارى فى بادية منقطعة أو صحراء شاسعة فأقف بين يديه ساعة من نهار وأرى فى نؤيه وأحجاره وصخوره المبعثرة وأعمدته المتناثرة ونقوشه المحفورة على بقاياجدرانه صورةَ أولئك القوم البائدين الذين كانوا يسكنونه ويَعْمُرون عرصاته ومغانيه ، وكانى أسمع

فى صفير رياحه وعزيف جنّاته وغيلانه صائحاً يصيح بى : لقد كان يعيش فى هـذا المكان عالم مثل عالمكم ، يشعرون كما تشعرون ، ويفكرون كما تفكرون ، ويؤملون فى الحياة الطيبة الهانئة كما تؤملون ، وهم وان ذهبوا بأجسامهم ، وخلاوجه الأرض من سميرهم وأنيسهم ، فهم باقون بينكم بأرواحهم وآثارهم ، وما أنتم يا أبناءهم وأحفادهم وحملة أسرار حياتهم الا أرواحهم وآثارهم التى بقيت على الارض من بعدهم

هنالك أشعر أننى قد انتقلت من حاضرى إلى ماضىّ ، وأننى أعيش فى تلك العصور القديمة بين آبائى وأجدادى ، أحدثهم ويحدثونني وأفضى اليهم بذات نفسى ، ويفضون إلى بذوات نفوسهم ، فأقضى على ذلك ساعة من الزمان ، ثم أذهب لشأنى وقد فاضت نفسى شعوراً بأن النفس الانسانية خالدة باقية لا تنال منه عاديات الزمان ، ولا تعبث بصورتها الايام والأعوام

وكنت لذلك شديد الشغف بحفر الكلمات أو نقشها على كل ما يقع عليه نظرى من الجذوع والاشجار ، والصخور والاحجار ، وكل ما أمر به فى طريق مما أحبه وأرضاه ، وأتمنى له الخلود والبقاء ، كأنى كنت أريد أن أمُدَّ الاجيال المقبلة بالذكريات العظيمة ، كما أمدَّتنا الاجيال الماضيةُ بذكرياتها وعهودها ، فحفرتُ على ساق شجرة العلَم كلمة « هوراس » اللاتينى « وقاكِ الله شر العاصفة ولا عبثتْ بكِ إلا أيدى النسائم » وعلى جذع شجرةٍ كان بول يجلس تحتها أحيانًا ليشاهد منظر البحر الهائج قولَ الآخر « ما أعظم سعادتك لانك لاتعرف إلها غير إله النبات » وعلى باب كوخ هيلين وكان هو مجتمع الأسرة ومنتداها هذه الكلمةَ « هنا ضمير صالح ونفس لاتعرف الخداع »

وكانت فرجينى تستثقل أمثال هذه الكلمات وتراها غامضة ومتكلفة ، وقالت لى مرة حبذا لو أنك كتبتَ على شجرة العلَم « ثابتٌ دائما رغم اضطرابه » بدلا من كلمتك

التى كتبتها ، فأجبتها ذلك انما يقال فى موقف الحث على الفضيلة ، فاحمرّ وجهها خجلا وصمتت

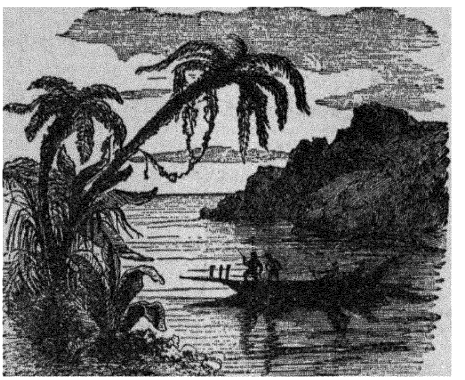
ذلك كان شأن هذا الوادى فيما مضى ، أما اليوم فقد عفا فيه كل شىء ، ودَرس كل أثر ، ولم يبق من تلك الرسوم الماضية إلا كما يبقى من الوشم فى ظاهر اليد ، وأصبحتُ أعيش فى هذا المكان كأننى أعيش بين خرائب أثينا أو أطلال منف ، وما مضى على تاريخها أكثر من عشرين عاما

١٣

مخدع فرجينى

ولم أر فيما رأيت من المناظر الجميلة والمشاهد الفاتنة المؤثرة منظراً أبدع ولا أجمل ولا أعلق بالقلوب ولا أشهى إلى النفوس من منظر ذلك المكان الذين كانوا يسمونه « مخدع فرجينى » وهو كهف صغير منحوت فى أصل الصخرة الكبرى كأنه مضجع النائم يتفجر بين يديه نبع

غزير صاف تحف به نخلتان من نخيل الجوز كانت مرغريت قد بذرت بذرة احداهما منذ أربعة عشر عاما يوم ولادة ولدها پول ، وبذرت هيلين بذرة الأخرى منذ ثلاثة عشر عاما يوم ولادة ابنتها ڤرجيني ، فنبتتا مع الولدين وسميتا



« استراحة فرجيني »

باسميهما ، وما ذهبتا مذهبهما في جو السماء حتى تدانت شعفاتهما واشتبك سعفهما كأنهما تتعانقان ، وكانت نخلة پول أطول قليلا من نخلة ڤرجيني لان پول كان أسن من ڤرجيني بعام واحد وأطول قامة منها

وربما كان هذا المكان هو المكان الوحيد الذى تركوه للطبيعة تذهب فى شأنه حيث شاءت من مذاهبها دون أن يتناولوه بتهذيب ولا تنسيق ، فنبتت من حوله فى طريق المياه المنبسطة بضع شجيرات مختلفة الألوان والاشكال ، والاحجام والأطوال ، ما بين ضخم الجذوع ودقيقها ، ومنتشر الفروع ومجتمعها ، وضارب فى أعماق الارض ، وذاهب فى جو السماء ، فاختلفت ثمراتها وزهراتها ، وطعومها ومذاقاتها ، وروائحها ونفحاتها . ودب بعضها الى ظهر تلك الصخرة المشرفة فنشر عليها غلالة رقيقة من أزهاره وريحينه ، ثم انحدر عنها خيوطاً دقيقة ناعمة ترفرف فى الهواء كما ترفرف شعور الحسناء على ضفاف الماء

ولم يكن شىء من الاشياء أحب الى قرجينى وأشهى الى نفسها من أن تأوى فى أوقات راحتها وفراغها الى هذا المكان الجميل لتمتع نظرها بمرأى تلك المياه الثلجية البيضاء المتفجرة من ذلك النبع الغزير ، ومرآى تينك النخلتين

البديعتين المتعانقتين على ضفته ، ومنظر تلك المروج الخضراء المنبسطة من حوله . وكانوا لذلك يسمونه «مخدع قرجيني »

وكانت تستصحب معها كلما ذهبت اليه غنيماتها وأعنزها فتتركها ترعى بين يديها ، ويعجبها أن ترى واحدة منها قد وثبت الى ظهر الصخرة ووقفت على مؤخر أطرافها واشرأبت بعنقها لتتناول بفمها بعض الأغصان فتقضمها قضما ، فكأنها معلقة فى الهواء . أو كأنها تمثال ماثل فى الفضاء

وربما أخذت معها ملابسها وملابس الأسرة فغسلتها على حافة النبع أو جاست ناحية تحتاب ألبان ماشيتها ثم تحضرها

وكان نول يختلف الى هذا المكان من حين الى حين كلما أمكنته الفرصة فيجلس الى قرجيني جلسة هانئة سعيدة يغتبطان فيها بتلك العزلة الهادئة الساكنة وذلك المنظر الساحر البديع



« فرجينى تنثر الحب لطيورها »

وكان أعظم مايروقهما ويستثير سرورهما وغبطتهما منظر الطيور البحرية وهى مقبلة من شاطىء المحيط الهندى مع الظلام زمراً زمراً ترسم فى صفحة السماء خطوطاً مستقيمة ومتعرجة ودوائر تامة وناقصة وتغرد أغاريدها المختلفة الالحان والنغمات حتى تنزل بهذا المعتزل الساكن الظليل لتقضى فيه سواد ليلها ، فاذا انقضت دولة الظلام ونشر الفجر رايته البيضاء فى آفاق السماء طارت مع أشعته وأضوائه وذهبت من مذاهبها حيث تشاء

وكأنّ پول قد عز عليه ألا تتمتع ڤرجينى بذلك المنظر البديع الرائق فى جميع أوقاتها فأخذ ينقل إلى الاشجار المحيطة بهذا المكان من الغابات القريبة فراخ الطير فى أعشاشها فتتبعها أمهاتها ، وماهى إلا أيام قلائل حتى اتخذت لها فى هذه الروض الاريض موطناً جديداً تروح اليه وتغدو ، فأنست بها ڤرجينى أنساً عظيما ، وعطفت عليها عطف الام الرءوم على صغارها ، فكانت تطعمها وتسقيها وتحمل

لها فى حجرها حبوب القمح والذرة فتنثرها بين يديها ، فاذا رأتها الطيور مقبلة من بعيد تطايرت اليها من أوكارها وأعشاشها صادحة مترنمة وحامت فوق رأسها تلتقط الحب من يدها مرة ومن الارض أخرى فيكون منظرها فى اختلاف ألوانها



« فرجينى تنثر الحب وپول يتبعها بنظراته »

وتمعّجها واضطراب حركاتها أشبه شيء بمنظر الثوب المفوّف قد عبثت أشعة الشمس بخيوطه الحريرية فماج بعضه فى بعض ، فتظل ڤرجينى لاهية بهذا المنظر الجميل مفتتنة به وپول

مغتبط باغتباطها راض عن نفسه برضاها حتى يعودا معاً ساعة الغروب إلى كوخهما

* * *

وهنا تنفس الشيخ الصعداء وألقى أمامه نظرة بعيدة جامدة كأنما ينظر إلى شبح مقبل عليه فألقيت نظرى حيث ألقى نظره فاذا هو محدِّقٌ فى تلك البقعة التى سماها مخدع فرچينى وأخذ يهمهم كأنما يحدث فى نفسه ويقول

أيها الولدان العزيزان ، إن أنسَ شيئا فانى لا أنسى أيامكما العذبة الجميلة التى ملأتما فيها حينى سروراً وغبطة، وكنتما لى صديقين حميمين ما أُنكر منكما ولا تنكران منى شيئاً ، ولا أنسى انكما كنتما أبر الناس بي وأحدبهم على حتى أصبحت أشعر أننى أعيش بجانبكما فى أسرتى بين أهلى وقومى ، وأن أيام صباى قد عادت لى بوجهها الطلق النضير، فسلام عليكما حيث كنتما ، وسلام على عهدكما البائد الدارس عهد الصلاح والبر ، والفضيلة والشرف ، والحب والوفاء

١٤

ليالى الشتاء

وكانوا إذا جاء الشتاء وسالت الأجواء برداً وقُرا ، وأوت الطيور إلى أوكارها ، والوحوش إلى أجحارها ، قضوا داخل أكواخهم ليالى سمر جميلة يجتمعون فيها حول منضدتهم العارية على ضوء مصباح ضئيل يلقى أشعته الصفراء الخفاقة على مانيط بجدران الكوخ من معاول وفؤوس وقواطع ومناشير ، وما كُدِّس فى أركانه من حقائب وجوالق وقرب وروايا ، فتتراءى كأنها الاشباح الجاثمة ، أو الوحوش الرابضة ، فيتحدث پول عن حقوله وأغراسه ، وغلاته وثمراته ، وأحواضه ومستنبتاته ، ومانضج من أزهاره وما لم ينضج ، وما نُقل منها الى الظل وما أبقى تحت أشعة الشمس ، وعن الكروم وعناقيدها ، والقمح وسنابله ، والذرة وأعوادها ، وتحدثهم ڤرجينى عن عصارة القصب

ومنقوع الشعير وشراب الليمون وأمثال ذلك من الاشربة التى تعلمت من أمها صنعها وإجادتها واعتادت أن تقدمها لاسرتها صباح كل يوم ومساءه ، وقد تحدثهم أحياناً عن حديقتها الصغيرة فتظل تصف لهم نبعها المتفجر الثجاج ، ونخلتيها الباسقتين المتعانقتين ، وما نبت حولها من ألوان الزهر وصنوف العشب ، وما يختلف الى خمائلها وأشجارها من أسراب الطير وجماعاتها ليلها ونهارها صادحة مترنمة كأنها فرقة موسيقية تتحد نغماتها ، وتختلف رناتها ، وتقص عليهم مرغريت بعض القصص الغريبة المملوءة هولا ورعبا كقصة السائح المسكين الذى ضل به طريقه فى احدى الليالى الداجية المدلهمّة فى بعض غابات برتانيا الموحشة فخرج عليه بعض اللصوص من مكمنهم فسلبوه ماله وراحلته ثم خافوا جريرتهم فقتلوه وألقوه فى أحشاء الغابة ، أو قصة السفينة التى عصفت بها الريح فى بحر الشمال وأحاط بها الموج من كل جانب وأُخذت عليها جميع السبل

فغرقت وغرق معها ركابها ، ولم يبق من آثارها الا بضعة ألواح ألقاها الموج على جوانب بعض الصخور الناتئة ، فيتأثر پول وڤرجينى لسماع أمثال هذه القصص تأثراً شديداً ، ويتفجر فى قلبيهما ينبوع صاف من الرقة والرحمة بهؤلاء البائسين المنكوبين ، ويتمنيان بكل ماتملك أيديهما أن لو وُفّقا فى يوم من أيام حياتهما الى هداية سائح ضال عن طريقه ، أو إنقاذ غريق من مخالب الموت

وكثيرا ما كانت تقرأ عليهم هيلين شيئاً من قصص « العهد القديم » وبعض آيات من « العهد الجديد » فيسمعها الآخرون ساكنين خاشعين تسيل نفوسهم أسى ، وعيونهم أدمعاً ، إلا انهم ما كانوا يحفلون كثيرا بتفهم مضامينها ، واكتناه أسرارها ، كأنما كانوا يشعرون فى أنفسهم انهم أغنياء عن هذا كله بما وهبهم الله من ايمان فطرى بسيط لايحتاج الى تفسير ولا توضيح ، ومن يقين راسخ فى أعماق قلوبهم يثلج صدورهم ويملأ فضاء نفوسهم راحة وسكينة ،

حتى كان يخيل اليهم أحياناً أن الفضاء الذى بين أيديهم انما هو معبد مقدس يصلون لله فى أى بقعة من بقاعه شاءوا ، ويرون الله فى أى مطلع من مطالعه أرادوا ، وكأن الطبيعة بين أيديهم إنجيل مفتوح تقوم فيه الآيات المنظورة ، مقام الآيات المتلوّة ، والبراهينُ الحسية ، مقام البراهين التوفيقية المقروءة ، وهل الرحمة الالهية الا تلك الثمرات التى نبتت لهم فى أرض مقفرة مجدبة لا يُنبت مثلُها غير الجهد والشقاء ، وهل القدرة الربانية الا تلك الجنة الأرضية الزاهرة التى اختلفت أوضاعها وأشكالها ، وطعومها وروائحها ، وقد سقيت بماء واحد ، وأشرقت عليها شمس واحدة ، وهل العناية الصمدانية الا ذلك التوفيق الغريب الذى ضم بعضهم الى بعض على بعد دارهم ، واختلاف مواطنهم ، فتكونت منهم أسرة واحدة متحابة متآلفة يغنيها اجتماعها واتفاقها عن الاهل والوطن ، والمال والنشب

وكانت تجرى بينهم تلك الاحاديث والطبيعةُ خارج

الكوخ هائجة صاخبة ، تجلجل رعودها ، وتعصف رياحها ، وتتدفق سيولها ، وتصطخب أمواجها ، فيحمدون الله تعالى على ان كفاهم شرورها وويلاتها ، ومنحهم هذا الملجأ الامين الذى يفزعون اليه من كوارثها وأرزائها ، ثم لا تلبث السِنة أن تخالط أجفانهم ، فينسلُّوا الى مضاجعهم ، وينام فيها نوما هادئاً ساكناً لاقلق فيه ولا اضطراب ، ولئن كان صحيحا مايقولون من ان لكل امرئ فى الحياة يومين ، يوم بؤس ، ويوم نعيم ، فلقد كان لهؤلاء القوم من دون الناس جميعاً يوم واحد لايرون فيه غير وجه النعيم ، ولا تطلع عليهم شمسه الا بما يحبون ويرتضون

وكان الدهر يأبى عليهم أحياناً الا أن يُجرى حكمه فيهم كما يُجريه على الناس جميعاً فيأذن لبعض غيومه القاتمة أن تلم بسمائهم الصافية فتغشّى صفحتها ، وتكدر صفاءها ، فاذا نزلت بأحدهم نازلة مرض أوهمّ رأيت الباقين قد أحاطوا به وبسطوا عليه جناح عطفهم ورحمتهم ، وكأنما قد أصيبوا من

دونه بالذى أصيب به ، ولا يزالون يلاطفونه ويداورونه حتى ينتزعوا الهم من بين جنبيه انتزاعا ، فاذا هو بارئ سليم كأن لم يشكُ قبل اليوم هما ولا ألماً

وكانوا يذهبون أيام الآحاد لأداء الصلاة فى كنيسة « پامپاموس » ذات القبة العالية التى تراها هناك فى وسط ذلك السهل الفسيح مشاة على أقدامهم لا يشكون تعباً ولا نصباً ، فاذا وصلوا اليها رأوا كثيراً من الاثرياء وأرباب النعمة مقبلين فى هوادجهم المحمولة على أعناق عبيدهم فى رونق بديع يملأ العين بهجة والقلب روعة ، فلا يحفلون بهم ولا يكترثون ، ولا يحسدونهم على ما آتاهم الله من نعمة ، بل كانوا يتجنبون جهدهم أن يخالطوهم أو يجيبوا داعى مودتهم ، لانهم كانوا يعتقدون أن القوى لا يمنح الضعيف وده ومحبته إلا ليبتاع منه ماء وجهه وكرامة نفسه ، ولا يبذل له القليل من بره ومعروفه إلا ليستعبده ويستأسره ويملك عليه زمام حياته ، وهم لا يريدون أن يبذلوا

من ذلك شيئاً ، كما أنهم كانوا يتجنبون جهدهم مخالطة الهمج والرعاع وأسقاط الناس وأشرارهم ضنا بنفوسهم أن يَسرىَ اليها من طريق المخالطة الساقطة ما يشوه جمالها ، ويغشّى لألاءها ، فاتهمهم الناس بالضعف مرة ، وبالكبرياء أخرى ، ومضوا معهم على ذلك عهداً طويلا حتى عرفوهم حق المعرفة واستشفوا سريرة نفوسهم فعلموا أنهم أشرف من هذا وذاك ، فانهم ما كانوا يضنون بأنفسهم أن يقفوا الوقفات الطوال مع من يعترض طريقهم من الناس فيسألهم حاجة من الحاج ، أو يستعين بهم على كارثة من كوارث الدهر ، أو يدعوهم إلى زيارة مريض ، أو مساعدة منكوب ، ولا يأبون أن يدخلوا الاكواخ القذرة الوبيئة لزيارة المرضى ومواساتهم ، وتفقد حالة المنكوبين والبائسين

فاذا دخلوا على مريض جلسوا حوله طويلا وعللوه كثيرا وحاطوه بعطفهم وعنايتهم فتقدم له مرغريت الدواءَ وقرچيني الابتساماتِ وهيأن التعزيةَ وبول النصائحَ الطبّيةَ ،

فكانوا يعالجون فى آن واحد نفسه وجسده، ثم يعودون وقد خالطت نفوسهم عاطفتان مختلفتان ، عاطفةُ الحزن على أولئك المعذبين المتألمين ، وعاطفة الغبطة بما وفقهم الله إليه من تسرية همومهم ، وتهوين آلامهم

وكان منزلى على مقربة من تلك الكنيسة ليس بينها وبينه إلا طريق واحد يمتد بجانب الجبل صُعُدا حتى يصل إليه ، فاذا قضوا حاجتهم من مواساة البائس وتعليل المريض وتعزية المنكوب سلكوا تلك الطريق إلى منزلى ليقضوا عندى بقية يومهم ، فكنت أُعد لهم الغداء على شاطئ جدول صغير تحت ظُلة دانية من شجر الموز ، وكان غداؤنا بسيطا جداً لايزيد على مايقذفه الينا البحر من أسماكه ، ومايساقطه علينا الشجر من أثماره ، وما نظفر به فى فضاء الجو من سارح أو بارح ، وربما ضممنا اليه شيئاً من التوابل والافاويه المركبة من الاعشاب الهندية الحارة ، فاذا قضينا غداءنا جلسنا للراحة فوق هضبة عظيمة على شاطىء البحر

لنمتع أنظارنا برؤية أمواجه وهى مقبلة علينا يتلو بعضها بعضاً حتى تتكسر تحت أقدامنا ، ثم تتبسط قليلا على ذلك الشاطىء الرملى الفسيح ، ثم تتلاشى كأنها لم تكن ، وكان پول إذا رآها مقبلة فر من بين يديها كانه طريدها الذى تطلبه ، وربما تلكأ فى جريه عمداً حتى تدركه فاذا هو مكفن فى كفن ضاف من نسيجها الابيض فتصرخ ڤرجينى حين تراه على هذه الحالة صرخة عظمى كان الامر قد بلغ عندها مبلغ الجد ، أو كأنها ترى من وراء حجب الغيب منظراً مخيفاً يروعها ويزعجها ، فتظل تقول بينها وبين نفسها يخيل إلىَّ وأنا أنظر إلى هذا البحر المائج المصطخب أننى أرى بين كل موجتين قبراً محفوراً ، ثم لا تلبث أن تعود إلى نفسها ، وتثوب إلى رشدها ، وتستأنف سرورها ومرحها ، فيدعوها پول إلى الرقص معه فيرقصان معاً على بساط الرمل الأصفر تلك الرقصة الزنجية البسيطة التى لا هُجر فيها ولا يشوبها عار ولا إثم ، ثم يغنيان بعض قطع جميلة لاأزال أذكر منها حتى اليوم قطعة «البحر

الزاخر » التى يثنى فيها قائلها على الحياة الهادئة البسيطة فوق ظهر اليبَس، ويذم الحياة القلقة المضطربة على سطح الماء، وينعَى نعياً كثيراً على أولئك الذين يدفعهم شرههم وطمعهم إلى ركوب البحر واحتمال مخاطره وكوارثه طلباً للثراء الواسع، والمال الكثير، بدلاً من بقائهم فى أوطانهم بين أهلهم وعشيرتهم، والقناعة بما قسم الله لهم من الرزق، وكان يخطر لشرجينى أحيانا أن تمثل بعض الروايات القصيرة التى سمعتها من أمها فتظهر على مسرح الشاطئ الرملىّ حاملةً جرتها على رأسها كأنها ذاهبة إلى بعض الآبار للاستقاء حتى إذا بلغت مكان البئر وقف دومينج ومارى ومرغريت فى طريقها كأنهم رعاةُ مَدينَ يحولان بين ابنة شعيب وبين البئر فيزاحمها بول على البعد فيسرع لنجدتها ويحمل على الرعاة حملة شديدة حتى يمزقهم كل ممزق كما فعل موسى، ثم يضع لها فوق رأسها طاقة جميلة من الزهر الاحمر ليضع الجرة فوقها، فكأنه يكللها باكليل الزواج، فأقوم أنا بتمثيل

دور «شعيب» وأزوج ابنتى «صفورة» من الفتى «موسى»

وأحياناً كانت تمثل دور البائسة «راعوث» حينما عادت إلى بلدها بعد غياب طويل فترى نفسها غريبة منقطعة لاأهل لها ولا رحم فتظل سائرة فى طريقها مطرقة الرأس ساهمة الوجه حتى تامح جماعة الصيادين وكان يمثلهم دومينج ومارى ومرغريت يحصدون فى مزرعتهم فتتبع خطواتهم وتلتقط بعض السنابل الساقطة لتتبلغ بها فيراها پول وهو يمثل دور «بوعز» أحد نبلاء المدينة فتدركه رقة لهافيتقدم نحوها ويسألها عن شأنها فترتعد بين يديه وتجيبه على أسئلته بصوت خافت متهدج فتذرف عيناه الدموع رحمة بها ومرثاة لها ويأخذ بيدها حتى يقف بها أمام شيوخ المدينة فى منتداهم ويعلن زواجه منها رغم فقرها وإقلالها

وهنا تذكر هيلين حياتها الاولى وأنها كانت أشبه شىء بحياة تلك الفتاة الاسرائيلية المسكينة وانها لقيت من أهلها وجفائهم وغلظتهم مثل ما لقيت، وكابدت من آلام

الحياة وهمومها مثل ما كابدت ، فتبكى بكاء طويلا

ثم لاتلبث أن تصل بخيالها إلى النهاية الطيبة التى خُتمت بها تلك الرواية فتهدأ نفسها قليلا وتتفاءل خيرا لابنتها أن يكون مصيرها هذا المصير السعيد

وجملة القول أننا كنا نتمتع فى ذلك اليوم بجميع مايتمتع به السعداء فى منتدياتهم ومجتمعاتهم ، ومعاهد أنسهم ولهوهم ، من أكل وقصف ، ورقص وتمثيل ، ولعب ومراح ، لافرق بيننا وبينهم إلا أننا لانزخرف المسرح الذى نتنقّل عليه بالصور الكاذبة للبحر والشاطئ والصحراء والسماء والكواكب والنجوم والنبات والعشب وهدير الامواج وزفيف الرياح ودمدمة الرعود كما يزخرفون ، فكل ذلك حاضر بين أيدينا حقيقة لاخيالا

ولا نزال هكذا حتى تدنوَ ساعة الأصيل ويقف قرص الشمس وقفة الوداع على قِمة الجبل متوهّجاً كاللهب الاحمر فيظل ينثر ذراته الذهبية فى عرض الفضاء ، وتظل قطع الانوار تتساقط من بين فجوات الاغصان كأنها الدنانير

المبعثرة ، وتستحيل أوراق الزهر فى سكون ذلك الجو وهدوئه الى أحجار جامدة من الزمرد والياقوت والماس والفيروزج ، ويخيل للناظر الى الجذوع الماثلة كأنها بقايا بركان قديم كان قد غمرها فى سالف العهد ثم انحسر عنها فاذا هى أعمدة صدئة من البرنز القاتم ، ثم لايلبث الظلام أن يمتد وينبسط فاذا الفضاء سكون ووحشة ، واذا البحر خشية وجلال ، واذا الطير حائمة على أوكارها تفر اليها من وحشة الظلام وهوله ، واذا كل شىء صامت جامد إلا ما كان من جرجرة الآذىّ [١] تصل إلى آذاننا من حين إلى حين كأنها الزئير المنبعث من حلوق الوحوش الضارية ، فنجمد أمام هذا المنظر الرهيب ساعةً ذاهلين مستغرقين ، وكأننا قد انتقلنا إلى عالم آخر من عوالم الملأ الأعلى حافل بعجائب المنظورات ، وغرائب المشاهدات ، ثم نعود الى أنفسنا فيودع بعضنا بعضا ، ثم نفترق الى أكواخنا

(١) الاذى موج البحر

١٥

آدم وحواء

نشأ بول وڤرجيني في هذه الجنة الارضية ، منشأ أبوينا الاولين في جنتهما السموية ، فكان بول مثال آدم ، له قامة الرجل وشطاطه ، وبساطةُ الطفل وسذاجته ، وكانت فرجيني مثال حواء لها جمال الانوثة وحلاوتها ، ودعةالنفس وعذوبتها

وكان يعيشان في معتزَلهما هذا حرين مطلقين لايسيطر عليهما مسيطر من تلك القيود التي تسيطر على عقول الناشئين وضمائرهم في تلك البلاد التي يسمونها بلاد الحرية والطلاقة ، ولا تسجنهما العلوم والمعارف في سجنها الضيق المظلم الذي يحول بينهما وبين التبسُّط والاضطراب في فضاء الكون كما يشاءان

ولم تكن لديهما ساعةٌ لمعرفة أوقات الليل والنهار ،

ولا تقويم لمعرفة الفصول والاعوام ، ولم يتلقيا درساً واحداً في علم الهيئة ، ونظام الكواكب والنجوم ، ولكنّ الطبيعة استطاعت أن تمنحهما من نفسها ماتمنح العلومُ والمعارف أمثالَهما ، فاستعانا بالاشعة والظلال على معرفة الاوقات ، وبنضوج النبات وظهور الاثمار وتلون الازهار على معرفة الفصول ، وبعدد ماغرسا من الأشجار على عدد ما مر بهما من السنين والاعوام ، فكانا يقولان « قد حان وقت الغداء » إذا انقبضت ظلال أشجار الموز وتضاءلت تحتها ، و« قرب الليل » إذا التفّت أوراق التمرهندى على أثمارها ، وكانا إذا وعدا أحداً بزيارة جعلا ميعادها ظهور قصب السكر أو نضوج أثمار النارنج ، وإذا سئلت فِرجيني عن عمرها أجابت : قد أثمرت الكروم مذ ولدت أربعة عشر مرة وأشجارُ البرتقال ثمانية وعشرين ، واذا سئل پول بكم يَكْبُرُ فِرجيني [1] أجاب بمقدار مابين النخلتين الماثلتين على

(١) يكبر فلان فلانا يزيد عليه فى العمر

حافة النبع ، كأن حياتهما متصلة بحياة النبات ، أو كانهما إلهان من آلهة الحقول التى تعيش بينها وترعاها

فكانا لايعرفان تاريخا غير تاريخهما ، ولا يطالعان مصوَّراً غير مصوَّر جزيرتهما ، ولا يقرآن كتاباً غير كتاب الطبيعة المفتوح أمامهما ، ولا يفهمان فلسفة غير أن عمل الخير سعادة ، وعمل الشر شقاء ، ولا يحفظان آية غير آية التفويض إلى الله تعالى فى كل ما يأخذان وما يدعان

وكانا إذا خلوا بنفسهما جرت بينهما أحاديث بسيطة ساذجة لايتكلفان فيها ولا يتعمَّلان ، ولا يحاولان أن يضعا حجاباً بين مايدور فى سريرتهما ، وما ينطق به لسانهما

ولقد سمعتهما مرة يتحدثان من حيث لايشعران بمكانى ، وكان پول قد عاد من عمله ساعة الغروب فرمى بفأسه وحقيبته الى الارض وجاس الى ڤرجينى يقول لها

إنى لأراك ياڤرجينى وأنا تعب مكدود ما أكاد أتماسك فأنسى تعبى وشقائي ، وكأننى لم أحمل فى يومى

فأساً ، ولم أفلح أرضاً ، وربما وقع نظرى عليك وأنا على قمة الجبل وأنت فى سفحه فيخيل الى أنك وردة بين الورود النابتة حولك ، إلا انك أنضر منها حسناً ، وأطيب أريجا ، فاذا غبت عن ناظرى وراء أكمة من الاكمات أو تحت ظلة من الظلل استطعت أن أعرف المكان الذى أنت فيه ، لاننى أشعر أن موجة من النور تحيط بك حيثما ذهبت ، وأنى حللت ، فاذا برق لى شعاعها علمت أين تحلين من بطن الوادى ، فلا أحتاج للسؤال عنك ، فاذا رأيتك وأنت عائدة إلى المنزل خيل الى لجمال مشيتك ، ورشاقة حركاتك ، كأنك قطاة تتنقل على بساط الخضرة ، وأنك موشكة أن تستقلى بجناحيك فى جو السماء

إنك كل شىء لى يافرجينى ، إنك حياتى التى لا أستطيع أن أعيش بدونها ، بل لا أستطيع فراقها لحظة واحدة ، إن زرقة عينيك أصفى من زرقة السماء ، وإن نضارة وجهك أجمل من نضارة الربيع ، وإن ماء الحسن الذى يجول فى

أديمك لهو الكوثر الذى يصفه الكتاب المقدس فيما يصف من بدائع الجنان

أسمع صوتك الذى هو أشبه شىء بصوت الطائر الغَرِد فيخفق قلبى خفقان أجنحة ذلك الطائر ، وأضع يدى فى يدك فتنبعث فى جسمى رعشة شديدة كرعشة الخائف المذعور ، وما أنا بخائف ولا مذعور

أتذكرين ياثرچينى يوم حملتك على ظهرى واجتزت بك ذلك النهر المتدفق ونحن عائدان من زيارة ذلك الرجل الشِّرِّير ؟

لقد كنت فى ذلك اليوم تعباً واهناً ، ولكننى ماشعرت بملامسة جسمك لجسمى حتى خيل إلى أننى قداستحلت إلى طائر خفاق الجناحين ، ولو أنك اقترحت على فى تلك الساعة أن أطير بك فى آفاق السماء لفعلت

لا أستطيع أن أفهم هذا الذى يؤثر علىَّ منك ياثرچينى ،

فانى لا أخافك ولا أخشاك ، بل أحبك وآنس بك ، فلم أضطرب حين أراك ، ولم أرتعد حين يلمس جسمى جسمك

إنك لاتستطيعين أن تحبينى كما تحبنى أمى ، أو تعطفى على عطفها ، أو تقاسمينى همومى وآلامى مقاسمتها ، ولكننى أشعر أن الذى أضمره لك من الحب والعطف فوقَ الذى أضمره لها ، ولقد عدت الآن من المزرعة وكان أمامى الطريقان ، طريق إلى الكوخ فلم أنتبه اليه ، وطريق اليك فجئتك دون أن أشعر بما أفعل ، أو أعرف لذلك سبباً

ما أحسب إلا أن حادثة الجارية الآبقة كانت هى السبب فى ذلك ، فما أنس لا أنسى صورة ذلك الألم الشديد الذى ارتسم على وجهك يوم جئتْ تلك البائسة المسكينة تحت قدميك وقصت عليك قصتها ، ولا تلك الدموعَ الغزار التى أذرفتِها رحمة بها وإشفاقاً عليها ، ثم ماخاطرتِ به بعد ذلك من راحة نفسك وهدوئها فى سبيلها

إنك طيبة القلب ياقرچينى ، إنك تحبين الخير للخير

لاتطلبين عليه جزاءًا ولا أجرا ، إنك تتألمين لمصاب المساكين والبائسين أكثر مما يتألم الناس جميعاً ، فأنا أحبك أكثر مما أُحب جميع الناس

تعالىْ إلى جانبي وخذى هذا الغصن الأخضر الذى قطعته لك الساعة من شجرة الليمون الكبرى وضعيه حين تنامين تحت سريرك فانه يملأ لك فضاء الكوخ عطراً وشذى ، وخذى هذا القرص من العسل فقد عثرت به فى جوف صخرة عالية فى قمة الجبل ، وسيكون فطورنا فى الصباح شهيا جميلا

تعالىْ إلى ياڤرجينى وضعى رأسك الجميل على فخذى لأشعر بالراحة من جميع متاعبى وآلامى ، وتحدثى إلىّ قليلا فحديثك غذاء نفسى وراحة ضميرى

فتخرج منديلها من جيبها وتمسح له عرق جبينه ثم تضطجع وتضع رأسها علي فخذه وتظل تقول له

أترى ياپول منظر هذه الاشعة الصفراء الساقطة على

رءوس الصخور وذوائب الاشجار ، ومنظر ذلك الشفق الاحمر الممتد على حافة الافق ، وتلك اللآلئ اللامعة الجميلة المنتشرة على سطح الماء

انها جميلة جدا ، ولكنها لا تستطيع أن تبعث السرور إلى نفسى كما يبعثه جلوسى بجانبك ، وامتزاج أنفاسى بأنفاسك

إننى أحب والدتى حبًّا جمًّا ، ولكننى أحبها أكثر من كل وقت فى الساعة التى أراها تحنو عليك فيها وتضمك إلى نفسها وتدعوك ياولدى ، وربما غفرت لها إغضاءها عنى أحيانًا ولكننى لا أستطيع أن أغفر لها اغضاءها عنك

إنك تتساءل فى نفسك لم تحبنى أكثر من كل شىء فى العالم ، أما أنا فانى أحبك هذا الحب نفسه ، ولكننى لا أسائل نفسى عن سبب ذلك ، لانى أعلم أن الطائرين اللذين ينشآن فى منشأ واحد ، وجو واحد ، يتعاطفان ويتآلفان ، حتى ما يكاد يصبر أحدهما عن صاحبه لحظة واحدة ،

أُنظر اليهما هما يتصايحان ويتهاتفان على بعد ما بينهما ، كأن كلا منهما يقول لصاحبه تعال إلى جانبي ولا تفارقني ، فانني لا أستطيع أن أجد لذة الحياة بعيداً عنك

كذلك نحن ياپول نشأنا فى منشأ واحد ، ورضعنا ثدياً واحداً ، ونمنا فى مهد واحد ، وابتردنا فى حوض واحد ، فأصبحنا شخصاً واحداً ، فاذا افترقنا ساعةً ظل كل منا يهتف بصاحبه ويناجيه ، أنت بمزمارك على قمة الجبل ، وأنا بأنشودتى فى سفحه ، كما يفعل ذانك الطائران المتناجيان على أفنانهما حتى نلتقى

تقول انك أحببتنى منذ ذلك اليوم الذى رأيتَنى فيه أعطف على تلك الجارية المسكينة وأنا أقول لك إننى أحببتك من ذلك اليوم نفسه ، فانني لا أستطيع أن أنسى انك أوشكت أن تخاطر بنفسك فى سبيلى حينما عزمت على مقاتلة ذلك الرجل الشرِّير من أجلى ، بل خاطرتَ بها فعلا حينما حملتنى على ظهرك وأنت تعب مكدود واجتزت بى ذلك النهر

الزاخر المتدفق لاتعلم أتصل إلى ضفته أم تسقط دون ذلك

إنى أجثو كل يوم بين يدى ربى أسأله الرحمة لأمى وأمك ومارى ودومينج ، حتى إذا مرّ ذكرك على لسانى ارتعشت شفتاى وشعرت كأنى أرتشف على الظمأ جرعة باردة ماخلق الله أهنأ ولا أطيب منها

لمَ تتسلق الصخور من أجلى ياپول ؟ ولم تجشم نفسك هذا العناء الشديد فوق عنائك الذى تكابده طول يومك ؟

إنى لا أفكر فى شىء وأنت غائب عنى سوى أن تعود إلى سالماً موفوراً ، فاذا رأيتك كنت أنت الهديةَ الثمينة التى تقدمها إلى ، وتستحق من أجلها شكرى وحمدى

١٦
الخفقة الاولى

ما لقرچينى حزينة مكتئبة لا تضىء الا بتسامات ثغرها كما كانت تضيئه من قبل !

مالها واجمة صفراء تمشى مطرقة ، وتجلس واهنة ، وكأنّ هما من هموم الحياة الثقال يملأ مابين جانحتيها ، ولا هم هناك ولا حزَن !

مالها تلجأ إلى الخلوات والمعتزلات وتتجنب جهدها أن تخالط الناس حتى أسرتها وقومها ، وحتى صديقها الوحيد الذى هو أعز عليها من نفسها التى بين جنبيها !

مالهذه الخضرة الزاهية البديعة ، ولتلك السماء الصافية المتلألئة ، ولذلك المنظر البديع الجذاب ، منظرِ الشمس فى طلوعها وغروبها ، والطير فى غدوها ورواحها ، لا يروقها ولا يستثير سرورها وبهجتها ، ولا يسرى عنها همومها

وآلامها ، كما كان شأنها قبل اليوم !

ذلك لأن قلبها قد خفق الخفقة الاولى ، والحب إذا خالط قلب الفتاة لأول عهدها به نقلها من حياة السرور والبهجة ، إلى حياة الهموم والاكدار

نعم قد تحولت الصداقة فى قلب ڤرچينى إلى حب ، وللحب شأن غير شأن الصداقة ، وحال غير حالها ، وشعور وإحساس غير شعورها واحساسها ، وكما أن المرأة الفارغة تشعر بتغير فى جميع حالاتها الجسمية اذا بدأت بذرة الجنين تنمو فى أحشائها ، كذلك الفتاة الخالية تشعر بتغير فى جميع حالاتها النفسية اذا أحست بدبيب الحب فى قلبها ، وربما كان هذا الشعور هو دليلها الوحيد على أنها قد أحبت قبل أن تعرف ما الحب وما الغرام

لقد كانت ڤرچينى تجهل فى مبدأ أمرها حقيقة الحال التى طرأت عليها ، ولا تفهم منها شيئاً سوى أنها قلقة مستوحشة ، لا تأنس بالناس أنسها الاول ، ولا تجد

فى الجلوس الى أسرتها ولا فى الذهاب الى « مخدعها » الراحةَ التى كانت تجدها من قبل ، فكانت تهيم على وجهها فى القفار والغابات وضفاف الانهار وقمم الجبال ، ماتكاد تستقر فى مكان واحد ، فاذا وقع نظرها على پول فى بعض



« فرجينى فى حالة وحشتها وكآبتها »

غدواتها أو روحاتها طارت اليه فرحاً وسروراً ، وبسطت اليه يدها لتعانقه ، فاذا دانَتْه انقلبت فجأة من سرور إلى حزَن ، ووقفت فى مكانها جامدة جمود الدُّمية فى محرابها ،

يتلهب وجهها حمرة ، ويرفضّ جبينها عرقا ، فيعجب پول لشأنها ، ويظل يقول لها ، إن الخضرة اليوم زاهية جدا ، وإن الشمس ساطعة متلألئة تضيء كل شيء حتى الانفاق والاغوار ، وكل مافى الوجود ضاحك مستبشر ما عداك



« فرجيى واضعة رأسها فى حجر أمها »

ياڤرجينى ، فهل لك أن تحدثينى ما الذى ألمّ بك ، وما هذه الغبرة القاتمة التى تَلبس أديمَ وجهك ، ثم ينقضُّ عليها ليضمها إلى صدره كعادته فتملّس من بين يديه أملّاساً ،

وتركض هاربة الى أمها لتضع رأسها فى حجرها ، فيظل پول واقفاً مكانه يعجب لامرها عجباً شديداً ، لا لان الذى يضمر لها من الحب أقل من الذى تضمر له ، ولا لان نفسه خالية من الهم الذى يخالط نفسها ، ولكن المرأة ضعيفة خائرة لا تملك من الصبر والجلد بين أيدى النكبات النفسية التى تنزل بها ما يملك الرجل ، فاذا أحبت لأول عهدها بالحب ، وكانت شريفة فاضلة ، خرج بها الحب إلى حالة أشبه بالجنون والخبل ، وما هى بمجنون ولا خبل ، ولكنها حيرة النفس وضلالها

ولم يزل هذا شأنها حتى جاء شهر ديسمبر وهو الشهر الذى تشتد فيه حرارة الشمس فى تلك المنطقة اشتدادا عظيما ، وتظل تصب عليها أشعتها عمودية كانها السهام المنبعثة من أقواسها ، وتنقطع عنها ريح الجنوب التى تعتادها طول العام ، وتهب عليها بدلا منها أعاصير شديدة تزلزل أرضها زلزالا ، وتطير بما شاءت من معالمها ومجاهلها ، وتشقق

ما أرادت من أطرافها وأنحائها ، فيثور الغبار ملتفاً فى جو السماء ثم يجمد فى مكانه ما يتزحزح ولا يتحلحل كأنه العمَد المنتصبة ، وتصبح سفوح الجبال وجوانب الهضاب كأنها أتُن مشتعلة تنفث اوارها من حولها فتلتهب الاجواء بالتهابها حتى مايستطيع متنفس أن يتنفس الا زفيراً ، ولا مستنشق أن يستنشق الا شُواظاً ولهيباً ، وحتى ما يجد المُبترد ضَحضاح ماء فى غدير من الغُدر أو خليج من الخلجان يبترد فيه ، ويزحزح عن عاتقه ذلك القميص النارىّ اللاصق به ، وتتساقط الماشية فى ظلال الاشجار وفى سفوح الجبال واهنة متضعضعة مادةً ألسنتها الى السماء كأنها أيد مبسوطة بالدعاء الى الله تعالى أن يجودها بقطرة تبُل غلتها ، وتطفئ لاعجها ، وكأنّ ثُغاءها وعجيجها وصفير الرياح السافيات من حولها وطنين البعوض الحائم عليها مناحة قائمة على هذه الطبيعة الميتة ، فاذا أقبل الليل عجزت يده الباردة الندية أن تخفف شيئاً من لهيب ذلك الاتون المستعر ، وظهر القمر فى أفق

السماء أحمر كامداً كانه الوجه المخضب بالدم ، ثم يمشى فى طريقه متثاقلا متظالعاً كانما هو يسبح فى لجة عميقة من السحب المحيطة به

فى ليلة من تلك الليالى الداجية السوداء عجزت ثرچينى عن أن تأخذ لنفسها راحتها فى مضجعها وعجز الكرى عن أن يلم بأجفانها فثارت من مكانها متململة وأخذت تسمتها الى «مخدعها» عساها أن تجد فيه ما يروح عن نفسها ، وكان القمر لا يزال يرسل ذلك النزر القليل من أشعته الكامدة ، فأزعجها انها لم تجد من جدولها المترع المتدفق الا خيطا دقيقا يلمع فى ضوء تلك الاشعة الباهتة كانه ثعبان ممدود يتقلب على حرّة سوداء ، ثم مشت الى حوضها الصغير التى اعتادت أن تستحم فيه فلم تجد فيه الا ضحضاحا من الماء ما يكاد يغمر جسمها ، فخلعت ملابسها ونزلته فاستطاعت أن تجد قليلا من الراحة ، وكان أول ما مر بخاطرها فى تلك الساعة بعد ان عادت اليها نفسها ذكرى تلك الايام الماضية التى كانت

تستحم فيها مع پول وهما طفلان صغيران فى هذا الحوض الصغير ، وذكرت كيف كانا يقضيان الساعات الطوال على ضفافه عاريين يرقصان ويمرحان ، ويعتليان الهضاب والربى ، ويتسلقان النخيل والاشجار ، ليقطعا أغصانها ، أو يجنيا ثمارها ، ثم ألقت رأسها على صدرها فرأت بين ثدييها وفوق ذراعيها العاريين ظل النخلتين المتسماتين باسمها واسم پول ، وقد طالت عناكيلهما ، وانتشرت سعفاتهما ، وكبر جوزهما ، ولصقت كل منهما بالاخرى لصوقا شديداً ، فأثار ذلك المنظر فى نفسها شعوراً غريباً لم تستطع أن تفهمه ، ولا أن تفهم ما الذى يقلقها منه ، فلم تطق البقاء فى مكانها لحظة واحدة ، فنهضت الى ثوبها فأسبلته على جسمها ، واندفعت راكضة الى كوخها ، وأيقظت أمها من منامها ، واضطجعت بجانبها ، وأخذت بيدها وظلت تضغط عليها ضغطا شديدا ، كأنما تريد أن تبثها ألمها وتفضى اليها بسرها فلا تستطيع ، وتحاول أن تنطق باسم پول فيحتبس لسانها فى فمها ، ثم

لا يلبث ذلك السعير المتأجج فى صدرها أن يستحيل الى زفير فشهيق فبكاء ، فتذرف من دموعها ما شاء الله أن تذرف، حتى يهدأ مابها ، وأمها صامتة ساكنة تفهم كل شىء ولا تقول شيئاً سوى أن ترفع نظرها إلى السماء سائلة الله تعالى بنظراتها السابحة فى ذلك الفضاء أن يمنح ابنتها الهدوء والسكينة ، وأن يقيها العثرات والزلات

ولم يزل الحر آخذاً فى اشتداده حتى استثار من مياه البحر أبخرة عظيمة مازالت تتكاثف وتتجمّع حتى انعقدت فى سماء الجزيرة ظُلَّةً سوداء فاحتجب قرص الشمس، وتلفعت الجبال والهضاب والرُّبى والآكام بأردية بيضاء من الضباب ، فما تكاد تقع عين الناظر على منظر مستبين ، ثم مالبث الرعد أن قصف قصفاً شديداً دوت به أرجاء الجبال ، وأخذ البرق يرسل شراراته الحمراء فى خلال السحب الكثيفة المتراكمة، فأنار بعضاً منها وعجز عن بعض ، ثم انفجرت السماء عن أمطار غزار سالت بها الاودية والقيعان ، وسبحت فيها الربى

والهضاب ، وما هى إلا لحظات قليلة حتى أصبح ذلك الحوض الواسع بحراً عجاجا يعُبُّ عبابه ، وتصطخب أمواجه ، واختفى كل شىء من هواديه وأعلامه . وأُطُمه وذراه ، ولم يبق طافيا منه على سطح الماء الا تلك الربوة العالية التى يرفرف فوقها العلم الأبيض علم الاستكشاف ، فكان منظرها فى وسط ذلك البحر العجاج منظر السفينة المضطربة ، فى أيدى الامواج الثائرة ، فصعدت اليها تلك الاسرةُ المسكينة تنتظر قضاء الله فيها وفى زروعها وضروعها

وظلت الحال على ذلك عدة ساعات ثم هدأت العاصفة ورقّت السحب واستطاعت الشمس أن ترسل من خلالها بعض الاشعة البيضاء ، فى انحاء الفضاء . ، وأخذ پول ودومينج يفتحان للمياه المتراكمة شعابا ممتدّة فى أطراف الحوض تنحدر منها الى البحر حتى لم يبق منها بعد ساعة الا ماركد فى الحفائر والاغوار . والبطون والوهاد ، فذُعر پول وڤرجينى لمنظر الاشجار الساقطة ، والجذوع المتهافتة ، والاغصان

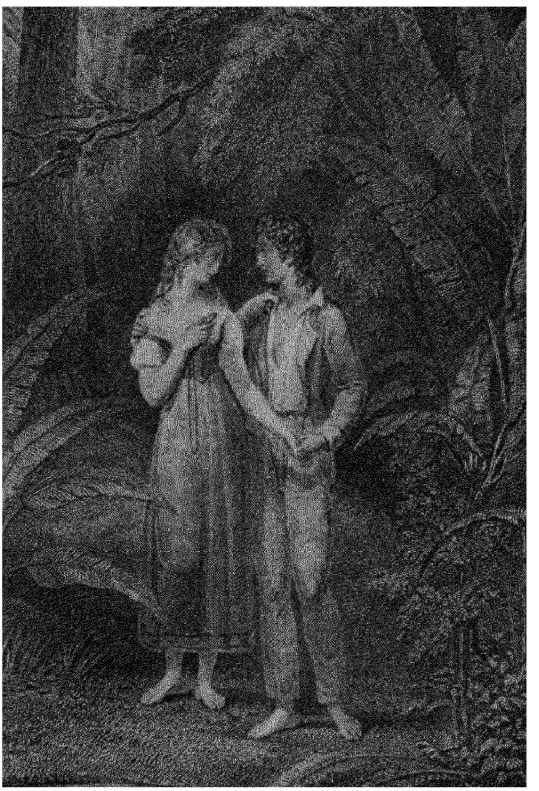
المتناثرة ، والازهار المبعثرة ، كأنهم يشهدون أطلالا بالية قد عصفت بها وبساكنيها أيدى الحدثان ، وعوادى الزمان

وخطر لفرجينى أن تذهب لزيارة حديقتها لترى ما فعلت تلك الحوادث بهـا فعرض عليها پول أن يَصحبها فسارا معا حتى أشرفا عليها فاذا هى قفر يباب لاشجر ولا ثمر ، ولا طيور ولا أعشاش ، ولا جـداول ولا غدران ، الا ما كان من تلك البلابل الضاوية الواقعـة على ذوائب بعض الاشجار تُرَعد برداً ، وتغرد تغريداً شجيا هو بالانين والبكاء ، أشبه منه بالترجيع والغناء

فأطرقت فرجينى إطراقة طويلة ثم رفعت رأسـها والتفتت الى پول وقالت له لقد ضاعت كل آمالى فى الارض ياأخى فلم يبق لى الا أملى فى السماء ، لقد غرستُ تلك الجنة الزاهرة ، وأجريت فى خلالهـا الجداول والغدران ، وأنشأت فى أنحائها ماشئت من الحظائر لماشيتى ، والاعشاش لطيورى ، وكانت أنسى وراحتى ، وملجأ همومى وأحزانى ،

وهاهى ذى أيدى الحدثان قدعصفت بها ، وعفّت رسومها ومعالمها ، ومحت سطورها من كتاب الدهر كانْ لم تَغنَ بالامس ، فلم يبق لى ما آنس به فى هذا العالم ، ولا ماأسكن اليه ، فلا طلب لنفسى سعادة غير هذه السعادة ، فى عالم غير هذا العالم ، لاتعصف به العواصف ، ولا تجتاحه السيول ، ولا تنال منه أيدى الصروف والغير

فاضطرب پول عنـد سماع هذه الكلمات وسرت فى جسمه رعدة شديدة ملكت ما بين أقطاره فصمت هنيهة ثم التفت اليها وقال لها هونى عليك الامر ياڤرجينى ، فكما يعرض الموتُ على الحيـاة ، تَعرض الحيـاةُ على الموت ، وأعدك وعداً صادقا ان كل شىء سيعود إلى ما كان عليه ، وسترينَ عما قليل خمائلك وأشجارك ، ومياهك وظلالك ، وأطيارك وأعشاشك ، عائدة إلى شأنها الاول ، فيعود لك أنسك واغتباطك ، وسرورك وابتهاجك ، فرفعت طرفها إلى السماء وظلت على ذلك ساعة كانما تحاول أن تطير بروحها



« فرجينى واقفة مع پول تتحدث اليه فى شأن حديقتها »

إلى ذلك الملأ الاعلى ، ثم وضعت يدها على عاتقه وقالت له أتدرى ماهو خير من هـذا كله ياپول ؟ قال لا ، قالت إن لسميِّك « پول » الرسول عندى منزلةً لاتَعدِ لهـا منزلةً أخرى ، وقد رأيت لهصورة عنـدك تحتفظبها فى أطواء ثيابك فرجائى إليك أن تهـدينى اياها ، قال لا أحبَّ إلى من ذلك ، وانطلق يعدو إلى كوخه عدو الظليم ليأتىَ بهـا ، وهى صورة أثرية قديمة كانت تحملها مرغريت فى قلادتها منذ زمن بعيد ، فلمـا وَلدت ولدَها پول ورأت فى ملامح وجهه ما يشبه ملامح ذلك القديس العظيم سمته باسمه و ناطت تلك القلادة بعنقه كتميمة تحفظهمن عاديات الدهر ، وغوائل الايام ، ولم يزل حاملا اياها حتى كبر وأيفع فاحتفظ بهـا فى صندوقه بين ملابسه كأعز شىء لديه حتى سَمع فِرچينى تقترح عليـه أن يُهديها اياها فلم يكن شىء من الاشياء أحب اليه من أن يفعل راضيا مغتبطا ، وماهى إلا ساعة أو بعض ساعة حتى عاد بهـا طائراً فرِحا فقدمها

اليها فسرت بها سروراً عظيما ، وجرى ماء البشر فى وجهها طلقا غدقا ، وقالت له ستبقى هذه الصورة تذكارك الدائم عندى ما حييت ، ولن تفارق عنقى قط حتى الساعة الاخيرة من ساعات حياتى ، ولن أنسى أبد الدهر انك قد اهديت إلىَّ الشىءَ الوحيد الذى تملكه ، فحنا عليها وهم أن يحتضنها الى صدره فأفلتت من يده برفق وركضت هاربة الى حجر أمها كعادتها

فوقف پول فى مكانه حائراً مكتئباً مذهوباً به كل مذهب تعبث بعقله الوساوس والأوهام

ولقد طال هذا الأمر بينهما وأصبحت حياتهما حياة غريبة مضطربة لا عهد لهما بمثلها من قبل ، فخلت مرغريت يوما من الايام بهيان وقالت لها إنى لا أتزوج پول من فرجينى فقد بدآ يشقيان فى عيشهما ، وأخاف أن يتمادى بهما الامر الى ما هو أعظم شراً من ذلك ، وعندى انه متى تكلمت الطبيعة وجب الاصغاء اليها ، والاذعان لها ، وما شق الناس



« پول يقدم صورة پول الرسول الى فرجينى »

هذا الشقاء الذى نراهم يعالجونه كل يوم الا لانهم تمردوا على الطبيعة وخلعوا طاعتها وسولت لهم نفوسهم السير فى طريق غير طريقها ، فقالت هيلين ان الولدين لايزالان صغيرين وفقيرين ، فماذا يكون شأنهما غداً إن قُسم لهما أن يلدا أولاداً كثاراً فى قفرة مثل هذه القفرة لايعين المرءَ فيها على العيش غير المال ، اننا كابدنا أعظم ما يكابد امرؤ فى العالم من عناء وشقاء فى سبيل تربيتهما وتغذيتهما ، فمن لهما وهما ضعيفان ساذَجان وقد رحلنا عنهما الى عالمنا الآخر الذى ينتظرنا ورحل معنا دومينج ومارى بقوة تعينهما على أمرهما وأمر حياتهما العائلية المستقبلة ، إن الزمان قد دار دورته ، وقد أصبحتُ أشعر منذ أعوام بآلام شداد تخالط كل جزء من أجزاء جسمى ، وأرى اننى أسير سيراً حثيثاً فى تلك الطريق التى يسير فيها الذاهبون الى حفائرهم ، وأن ليس بينى وبينها إلا خطوات قليلة ، وقد أصبح دومينج شيخا هرما لا يكاد يحمل عبء نفسه ، وأصبحت مارى على

مقربة من ذلك ، فلا يبقى لهما مساعد ولا معين

والرأى الذى أراه أن نباعد بينهما ، فنرسل بول الى بعض أصقاع الهند ليتجر فيها بما يتجر به الأوروبيون المنتشرون فى تلك البلاد ، عله يتلهى عن ڤرچينى بشواغله وأعماله ، وربما عاد عليه من ذلك مايعينه على أمرها وأمره غداً

ثم اتفقتا على أن تستشيرانى فى هذا الأمر فأشرت عليهما بما رأتا ، وقلت لهما إن فى هذه الجزيرة وفى ما حولها من الجزر كثيراً من السلع التى تنفق نفاقا عظيما فى الأسواق الهندية كالقطن والآبنوس والأصباغ وما اليها ، فاذا سافر بول بها فباعها هناك ، ثم عاد ببعض السلع الهندية الغريبة فباعها هنا ، وطال مرانه على ذلك واعتياده رجوت له فى مستقبل حياته خيراً كثيراً

فعهدتا الى أن أفاتحه فى هذا الشأن فخلوت به ذات يوم وأنشأت أحدثه حديثاً طويلا عن التجارة وفضائلها ومزاياها ، وعن الضرب فى آفاق الأرض وثمراته وفوائده ، ثم أفضيت

اليه بذلك المقترح فأصغى اليه وهو صامت واجم لايقول شيئاً حتى انتهيت من حديثى ، فرفع رأسه الى وقال : وهل يوجد عمل أعظم ثمرة وأعوَد فائدة من عمل الفلاح الذى يقوم بزراعة حقل من الحقول لايعطيه الا القليل من جهده وأقل من القليل من ماله فيعود عليه منه ضعفُ مابذل له خمسين أو ستين مرة ! ومتى كانت البحار ياسيدى وطاءً ليناً أخاطر فيه بنفسى لأربح شيئاً أستطيع أن أربحه من بيع ما فضل عن حاجتنا من حبوب وأثمار فى أسواق هذه الجزيرة وماحولها من الجزر : وأى حاجة بنا الى المال الكثير ونحن والحمدلله فى سعة من العيش لانشكو جوعا ولاظمأ ، ولا ضيقا ولا ضجرا ، ولا نطلب لأنفسنا منزلة فى الحياة فوق المنزلة التى نحن فيها ، ولا أكتمك ياسيدى أننى أخاف المال وأخشاه خشية شديدة ، وأقشعر من ذكره كلما سمعت به ، وأعتقد أننا لانزال سعداء فى هذه الحياة مادمنا بعيدين عنه وعن التفكير فيه ، فان قُدر لنا يوماً أن نشقى فيها فانما

شقاؤنا يكون على يده وبشؤم طالعه ، فلنتمتع بالسعادة التى قسم الله لنا ، ولا نجن على أنفسنا بالتكلف والمحاولة ، وركوب الطريق الهوجاء التى لا نعرفها ، ولا نعرف غايتها ولا منتهاها ، والله أعلم بنا منا ، وأحنى علينا من آبائنا وأمهاتنا

فوقفتُ بين يدى هذه الكلمات الحكيمة المملوءة شرفاً وفضيلة موقف الجمود والصمت ، لا أستطيع أن أقول له شيئاً ، ولا أن أنكر عليه أمراً ، ولا أن أفضى اليه بسر ذلك المقترح الذى اقترحته عليه ، ضنا به أن يهلك يأسا وجزعا

١٧
الرسالة

وهنا وصلت سفينة من فرنسا تحمل كتابا لهيلين من عمتها تقول لها فيه إنها ندمت على ما كان منها فى الماضى من قسوتها عليها ونُبوِّها بها واطّراحها اياها ، وانها قد بلغت

السن التى تحتاج فيها إلى قلب رحيم من قلوب أهلها أو ذوى رحمها يخفق بجانبها ، لانها تعيش فى بلد لا أهل لها فيه ولا رحم ، فهى تقترح عليها أن تحضر اليها بنفسها ، فان حال دون ذلك حائل أرسلت اليها ابنتها بدلا منها لتكون بجانبها فى ساعتها الاخيرة ، وقالت لها انها قد عزمت على أن توصىَ لڤرجينى بجميع ثروتها من بعدها

فوقع ذلك الكتاب من نفوسهم جميعاً موقع الدهشة والعجب ، وكانما قد نزلت بهم كارثة من أعظم كوارث الدهر ، فقد تمثل لهم أن هيلين ستفارقهم وينقطع أنسها عنهم ، وأن ذلك الوادى سيقفر منها ومن فواضلها وأياديها بعد ما عمرَته أعواماً طوالا ، ففجمت مرغريت ، وأطرقت ڤرجينى . وجمد پول فى مكانه جمود الصنم ، واستعبر دومينج وماری ، ومرت بهم على ذلك ساعة لم تمر بهم مثلها مذ وطئت أقدامهم هذه الارض حتى اليوم ، ثم التفتت هيلين إلى مرغريت باسمة وقالت لها هدئى روعك ياصديقتى فاننى

لا أفارقك قط، وما أحسبنى مستطيعة ذلك لو أردته، فقد سعدت بك برهة من الزمان لا أستطيع أن أنساها أو أنسى يدك البيضاء فيها، ثم أقبلت عليهم جميعاً وقالت لهم كونوا مطمئنين يا أولادى، فسأبقى معكم حتى أموت بينكم وأدفن فى التربة التى تعيشون فيها، ولقد جرح الدهر قلبى فيما مضى جرحاً دامياً فكنتم أنتم أطباءه وأساته، وما زلتم به تنفون عنه غثاثته وتنضحونه بالبارد العذب من ودكم واخلاصكم، وعطفكم ورحمتكم، حتى التأم أو كاد، فلن أكفر بنعمتكم قط، ولن أجازيكم على احسانكم شر الجزاء، ولئن كانت قد بقيت فى أعماق قلبى بقية من ذلك الشجن القديم، والذكرى المؤلمة، فذلك مالا يدَ لكم فيه، ولا حيلة لكم فى أمره، ولاتوجد قوة فى العالم سواء أعشت فى هذا الكوخ الحقير، أم فى ذلك القصر العظيم، تستطيع ان تشفينى من دائى، إلا أن يمدَّ الله إلى يد معونته ورحمته

فما سمعوا منها ذلك حتى استطيروا فرحاً وسروراً،

وداروا بها يقبلونها ويعتنقونها ، ويهنئونها بوفائها واخلاصها ، فلا ه ما أشرفهم وأكرم نفوسهم ، إن الثروة الطائلة التى يقتتل عليها الناس اقتتالا وينحر بعضهم بعضاً فى سبيلها ، تعرض نفسها عليهم عرضاً فيأبونها ويطيرون فرحاً بالخلاص منها

وانهم لكذلك إذ سمعوا ضوضاء خارج الكوخ وأصواتاً غريبة ، فدخل عليهم دومينج وأخبرهم ان سيداً عظيما يركب مركباً فارهاً ووراءه عبيد كثيرون يقصد هذا الكوخ ، وما أتم كلمته حتى دخل ذلك السيد العظيم ، فاذا هو حاكم الجزيرة المسيو « لابوردينيه » فنهضوا له إجلالا وإعظاماً ، وحيّوه بتحية الحاكمين ، وقدمت له مرغريت كرسيًّا من القش فجلس عليه ، وقدمت له هيلين شراب الارز فى إناء بسيط من القرع فتناوله مغالبا نفسه على كتمان ما شعر به من التقزز حينما شربه ، ثم دار بعينيه فى أنحاء الكوخ ، فعجب لحقارته ورثاثته ، وبساطة مايشتمل عليه من الآنية والاثاث ، وبدأ حديثه بمعاتبة هيلين فى انقطاعها

عن زيارته تلك المدة الطويلة ، وانها لم تلجأ إليه فى ساعات شدتها و بؤسها ليمدها بالمعونة التى تحتاج اليها ، وكان پول واقفا بجانب الباب يسمع حديثه ويلقى عليه نظرة شزراء وكأنما قد أُلهم مايدور فى نفسه ، وماقدم من أجله ، فتقدم نحوه خطوة وقال له : إنك لست بصادق فيما تقول ياسيدى ، لان أمى ذهبت اليك فى بيتك منذ أعوام فازدريتها واحتقرتها ، ولم تأذن لها أن تجلس على كرسى بين يديك ، ولقد أراد الله بها خيراً اذ كفاها مؤونة حمل منتك أو منة أحد من الناس غيرك ، فالتفت الحاكم إلى هيلين وقال لها ألك ولد أيضًا ياسيدتى ؟ قالت لا ، ولكنه ولد صديقتى مرغريت ، وهو يسمينى أمه لأنه ربى مع ثرچينى فى مهد واحد . ورضع معها ثديا واحداً ، وأحبها حبا لايحبه الأخ أخاه ، فنظر اليه الحاكم وقال له ادن منى ياولدى ، فدنا منه ، فمسح بيده على رأسه ، وقال له انك لاتزال صغيراً يابنى ، فاذا بلغت مبلغ الرجال ، وفهمت ضرورات الحياة وأحكامها ، أدركت مبلغ شقاء

هؤلاء القوم الذين تسمونهم حكاما ، وعلمت أن أعظم ما يشقون به فى حياتهم انهم ليسوا أحراراً فى إجراء العدالة بين الناس ، وإراحة الحقوق على أهلها ، وتحرى الصدق فيما يقولون ، والفضيلة فيما يفعلون

فتناول پول يده وهزها هزاً شديداً ، وقال له أشكر لك صدقك وصراحتك ياسيدى ، وان كنت قد أسأت الينا فيما مضى ، وأظن أنى أستطيع أن أتخذك صديقاً لى منذ اليوم ، فابتسم الحاكم وقال : ولى الشرف العظيم بذلك ياولدى

ثم أشار الى هيلين انه يريد محادثتها على انفراد ، فأشارت اليهم جميعا فانصرفوا ، فأقبل عليها يقول لها لابد أن تكونى قدقرأت الكتاب الذى أرسلته اليك عمتك اليوم ، وقد جاءنى منها كتاب فى البريد نفسه تطلب الىّ فيه أن أزورك ، وابذل كل ماأملك من الجهد فى حملك على السفر اليها ، أو ارسال ابنتك ڤرجينى بدلا منك ، وأرى أن ترسلى

اليها ابنتك ، فهى فتاة ناشئة فتيّة ذات نضرة وجمال ، وليس من الرأى ان تدفنى مثل هذه الحياة الغضة النديّة فى مثل هذه التربة القاحلة المحرقة والحياةُ السعيدة هنالك تنتظرها وتمد ذراعيها لاستقبالها ، وإنى وان كنت أَعلم انى أَطلب اليك مايشق عليك ، ويفتّ فى عضدك ، ولكنى أَعلم أَيضاً انك أَرحم بابنتك وأحنى قلباً عليها من أن تحولى بينها وبين تلك السعادة التى تنتظرها هناك من أَجل متعة نفسك برؤيتها جالسة بين يديك ، وأَعتقد انك لاترين بأساً من التضحية بشىء من عواطفك النفسية فى سبيل راحتها وسعادتها ، وهناء عيشها طول أَيام حياتها ، ولقد كتب الى وزيرُ المستعمرات انى أُعنى بهذه المسألة عناية كبرى ، وأَن لاأَدعها تفلت من يدى ماوجدت الى ذلك سبيلا ، ومعنى ذلك عنده ان آخذك بالشدة فى هذا الأمر ، وأُكرهك منه على مالاتحبين ، ولكننى لم أَحفل بكلامه ، ولم أَكترث له ، بل جئت اليك بنفسى لأعرض عليك الامر عرضا ، لالألزمك

به الزاما ، وانى أكل اليك وإلى رحمتك وشفقتك ، وتعقلك ورزانتك ، مستقبل هـذه الفتاة المسكينة ، فاختارى لها مايجب أن تختاره الأم الرؤوم لابنتها ، على أن صلتها بك لن تنقطع فى مستقبل الأيام ، وستسمعين غداً من أحاديث هنائها ورغدها ، ورفاهيتها ونعمتها ، ماينير لك ظلمة الوحشة التى تشعرين بها بعد فراقها ، على أنها ربما عادت اليك بعد قليل من الأيام ، فان عمتك على ما أعلم فى الدور الاخير من أدوار حياتها ، وهى هامةُ اليوم أو غد

فقالت له هيابن إننى ماتمنيت على الله فى حيانى شيئاً سوى أن أرى ابنتى سعيدة فى حياتها ، هانئة بعيشها ، إلا أننى لا أحب أن أفتات عليها فى أمر من أمورها ، فلا بد لى من أن آخذها بالرفق واللين حتى تذعن لما أريد ، وأرجو أن يعينى الله على ذلك ، وأظن أنى أستطيع أن أفضى اليك بالأمر غداً أو بعد غد

قال أرجو أن تعجلى بقدر ما تستطيعين ، فالسفينة موشكة على السفر ، ولا أحسبها باقية عندنا أكثر من ثلاثة أيام ، ولا أعلم متى تعود بعد ذلك

ثم نهض قائماً وأخرج من جيبه كيساً كبيراً مملوءاً بالقطع الذهبية ووضعه على المائدة وقال هذه هدية عمتك اليك لتستعينى بها على شأنك وشأن ثرچينى وودعها ومضى

١٨
الوداع

لم يثقل هذا الامر كثيراً على نفس هيلين ، بل صادف هوى من قلبها ، ولم تكن كاذبة فى قولها للحاكم إنها لا تتمنى على الله فى حياتها شيئاً سوى أن ترى ابنتها سعيدة فى حياتها ، هانئة بعيشها ، الا أنها لاتحب أن تفتات عليها فى أمرها ، فان الحاكم لم يتجاوز عتبة باب الكوخ حتى دعت اليها ابنتها وخلت بها وأنشأت تحدثها حديثاً طويلا قالت لها فيه انى أصبحت يابنيتى امرأة عليلة

منهوكة ، لاقوة لى ولا عزيمة ، وما مرغريت بأحسن حالا منى ، وقدصار دومينج وماري شيخين ضعيفين ، والشيخوخة أسرع إلى سكان هذه المناطق الحارة منها إلى سكان المناطق الاخرى ، وپول لايزال فتى غريراً عاجزاً عن أن يستقل بنفسه فى مايعالج من شؤونه . فاذا يكون حالكما غداً لو أنكما أصبحتما تحملان وحدكما عبء هذه الحياة الثقيلة على عاتقكما ، وكيف يهون عليكما أن تريا أولادكما الصغار غداً بؤساء أشقياء لايملكون لأنفسهم ولا تملكان لهم نفعا ولا ضرا ، وقد مثّلتُ لنفسى بين أن تعيش بجانبى فأراك فقيرة معوزةً تشقينَ ليلك ونهارك فى جمع قوتك كما تشقى الاجيرة العاملة ، وبين ان تفارقينى بضعة اعوام أسمع فى أثنائها على البعد من أنباء سعادتك وهنائك ، ونعمتك ورغدك ، ما يُثلج صدرى ، ويذهب بوحشة نفسى ، فوجدت انى أستطيع احتمال الثانية ، وأعجز عن احتمال الاولى ، فسافرى يابنيتى ، وكونى غداً عكاز شيخوختى ، وعماد

حياتى ، ومعينتى على دهرى

فرفعت ڤرجينى رأسها اليها فاذا دمعة رقراقة تتلألأ فى عينيها ونطقت بتلك الكلمة التى عجزت عن أن تنطق بها قبل اليوم فقالت « وكيف لى بترك پول يا أماه »

قالت انما أطلب اليك السفر من أجل پول ، لامن أجل غيره ، فهو غلام مسكين يبذل من راحته وقوته فى سبيل العمل ما أحسب انه قاتله وذاهب بحياته ان طال عليه أمره ، فارحميه واشفقى عليه ، وأنقذيه من بؤسه وبلائه ، ولقد آثرت أن أفارقك واحتمل كل مكروه فى سبيل ذلك حتى الموت ضناً بك وبسعادتك ، فكونى مثلى وفارقيه رحمة به وإبقاءً عليه ، وليكن حبك إياه عظيما مجيداً كحبى إياك ، ولن يعظم الحب ولن يمجد إلا إذا بنى على اساس من التضحية والبذل

قالت ألم تقولى لى يا أماه قبل اليوم إن للكون إلها يتولى شأنه ويرعاه ، وقد رعانا وتولى شأننا بالامس ، فلم يتخلى عنا غداً ؟

ألم تقولى لى إننا ما خلقنا إلا للعمل ، وإن العمل هو ينبوع الحياة ومادتها التى لاتفنى ، فلم تطلبين إلى اليوم أن أعتمد فى حياتى على غيره ، وألتمس الرزق من سبيل غير سبيله ؟

دعينى أعش بجانبك ياأماه ، وبجانب پول ومرغريت ودومينج ومارى ، وعلى مقربة من شُوَيهاتى وأعْنُزى ، وطيورى وعصافيرى ، وبين أحضان هـذا الوادى الجميل الذى أنست به وأحببته ، وألفت ليله ونهاره ، وكواكبه ونجومه ، وأشعته وظلاله ، فانى لا أستطيع أن أعيش بين قوم لا أعرفهـم ولا أفهمهم ، ولا أحسبنى أحمدهم إن عرفتُهم وفهمتهم

دعينى أعش ممـا قسم الله لى من الرزق ، ولقـد رزقنى الجم الـكثير الذى لا أطلب فوقه مزيداً ، ولا أبتغى به بدلا

لقد عشت فى هذا الوادى خمسةعشر عاماً ماشكوت

ولا تألمت ، ولا بت ليلة جائعة أو ظامئة ، أو ساخطة أو نافمة ، فلم تطلبين إلىَّ أن أترك مالا يَريبنى إلى ما يَريبنى ، وأن أبيع هذا الحاضر المعروف ، بذلك الغائب المجهول ، وإن نفسى لتحدثنى بشر عظيم فى هذه السفرة التى تدعو نى إليها ، وما أزعم لنفسى علم مافى الغيب ، ولكننى أشعر بخوف شديد لا أعرف له سبباً ، وحسبى أن أعلم أن لا سبيل لى إلى الوصول إلى ذلك العالم الثانى الا إذا ركبت تلك المطيّة الوعرة التى يسمونها البحر حتى تسيل نفسى رهبة وجزعاً

فأطرقت هيلين صامتة ولم تستطع أن تقول شيئاً لأنها وان كان من أشهى الاشياء اليها أن ترى ابنتها بعيدة عن پول فى تلك الأيام وأن تراها آخذة بحظها من تلك السعادة التى تنتظرها هناك إلا أنها رحمتها وأشفقت عليها فلم تستطع أن تجادلها فيما تقول

ثم قالت لها بعد قليل إننى لا أحب أن أشق عليك يابنيتى فى شأن من شؤونك الخاصة بك ، فاختارى لنفسك

الحياة التى تحبينها وتؤثرينها ، غير أنى أضرع اليك فى أمر أرجو ألا يثقل عليك ، قالت وما هو ، قالت أن تكتمى سرك الذى تعالجينه بين جنبيك ، فلا تبوحى به لأحد من الناس كائناً من كان حتى لبول نفسه ، وأن تجعلى الفضيلة والطهارة والشرف والعفة رائدك فى كل ما تقولين وما تفعلين . وأن تأخذى نفسك بالاناة والرفق فى جميع خطواتك وتصرفاتك اتقاءَ العثرة والزلة ، وأن تجعلى نُصب عينيك دائما أن الرجل لايحترم إلا المرأة التى تضن بنفسها عليه ، ولا يحتقر مثل المرأة التى تبذل نفسها له ، أى انه يحب المرأة الفاضلة ، أكثر مما يحب المرأة الجميلة ، بل لايعرف للمرأة جمالا غير جمال الأدب والعفة ، وإن زعم فى نفسه غير ذلك ، قالت ذلك ما أعرفه يا أماه ، ولا أعرف شيئاً سواه

وما أتى المساء حتى وفد إلى الكوخ كاهن الجزيرة وهو رجل من أولئك الدهاة الماكرين الذين تستعين بهم

الحكومات الاستعمارية على غزو القلوب الضعيفة وحيازتها بلا سفك دم ، ولا انفاق مال ، والذين يكونون دائما فى حاشية حكام المستعمرات ليعينوهم على ماهم آخذون بسبيله من الفتح والغزو ، وكان هذا الكاهن يختلف إلى هذه الأسرة من حين إلى حين ليرشدها ويباركها ، فلما رأوه قادماً إليهم ظنوا انه انما جاء لزيارتهم كعادته التى اعتادها ، فأحسنوا استقباله وتحيته ، ورأت هيلين أن تكاشفه بذلك الامر الذى كان يشغلها ، فكاشفته به ، فلم يلبث أن قضى فيه قضاء مبرماً ، وأعلن أن الله يأمر هيلين بالبقاء فى الجزيرة ويأمر ڤرچينى بالسفر إلى فرنسا ، وانهما ان لم تفعلا فقد خالفتا إرادة الله وباءتا بسخطه وغضبه ، فذُعرت ڤرچينى ذعراً شديداً ، ولم تجد بداً من الخضوع والاذعان ، فانصرف الكاهن عائداً إلى قصر الحاكم ليرفع اليه ماتم من الأمر على يده

وما أصبح الصباح حتى علم سكان الجزيرة ان تلك

الاسرة الفقيرة الخاملة التى تسكن ذلك الوادى المقفر الموحش قد أمطرتها السماء فضة وذهباً ، فوفد اليها الوافدون من كل مكان ، مابين مستمنح يطلب حاجة ، ومستعين يطلب معونة ، وتاجر يعرض سلعة ، فأعطت السائل ، واعانت المسترفد ، وابتاعت من الانسجة والشفوف وصنوف الديباج والخز وأنواع الأثاث والرياش مايزيد عن حاجتها ، وما يضيق به كوخها ، وخلع جميع افرادها أسمالهم القديمة البالية وقُمْصهم البنغالية الخشنة ، وارتدوا ملابس جديدة بديعة الشكل والهندام ، ولبست ڤرجيني ثوباً حريرياً أزرق مطرزا بالقصب ، واعتصبت بعصابة وردية زاهية ، ولصق ثوبها بجسمها فشله تمثيلا بديعاً ، ووصفه وصفاً دقيقاً ، وپول يرى كل هذا ولا يفهم منه شيئاً ، لان أحداً منهم لم يجرُؤ ان يكاشفه بالامر ، إلا ان يظن ذلك ظنا ، فعظم حزنه واكتئابه ، وساورته الوساوس والهموم ، فرحمته أمه

مما به ، وكانت تمسك فى نفسها شيئا من العتب على صديقتها هيلين فى رضاها بسفر ابنتها ، وتضحيتها بابنها فى سبيلها ، فدعته إليها وخلت به وقالت له لم تعلل نفسك يابنى بالآمال الكاذبة ، والامانى الضائعة ، ولم تتطلع إلى ماتقصر عنه يدك ، ويضيق به ذرعك ، ولقد آن أن أكشف لك حقيقة أمرك الذى كتمته عنك زمنا طويلا لتعلم من أنت ، ولتقدر آمالك على مقدار حقيقتك ، لاعلى مقدار تصورك ، فاعلم أن أمك امرأة فلاحة وضيعة لاحسب لها ولانسب ، وأن قدراً من الاقدار الجارية بين الناس قد نزل بها فى صباها فحاد بها عن طريق الشرف والاستقامة ، فحملت بك من سفاح ، أى انك لا أب لك يعرفه الناس ، ولا لقب لك غير لقب أمك ، فلا تقس نفسك بفرچينى ، فهى فتاة شريفة نبيلة من أسرة كريمة مشهورة ، ولها عمة ثرية كانت قد أغفلت أمرها حقبة من الزمان لامر مّا ، ثمّ ذكرتها اليوم فأرسلت فى طلبها لتعيش معها فى باريس متمتعة بثروتها

الطائلة حتى اذا ذهبت لسبيلها ورثت عنها هذه الثروة من بعدها ، فلا تطمع فى أن تتصل بها يوماً من الايام إلا أن تكون فلتة من فلتات الدهر ، أو أُعجوبة من أعاجيب الايام ، وأرح نفسك من هموم الأمانى ومتاعبها ، والله أولى بك وبى من كل مخلوق

واعلم يابنى اننى لم أقترف هذا الجرم الذى ذكرته لك وأنا أعلم أنى آثمة أو مذنبة ، ولكنه قضاء الله قد جرى بما لاحيلة لى ولا لأحد من الناس فى أمره ، فاغفرلي خطيئتى ان كنت ترى اننى مخطئة ، أو اننى الجالبة لك هذا الشقاء الذى تكابده فى حياتك

ثم أسلمت رأسها إلى ركبتيها وبكت بكاء طويلا

فحنا عليها پول وطوق عنقها بيديه وقال لها لاتبك يا أماه ، فما أنت ببائسة ولاشقية مادمت معك ، أما هفوتك التى تتحدثين عنها فما أحسب إلا أن الله قد غفرها لك ، لانك قد كفرت عنها بدموعك وآلامك وشقائك الذى

كابدته زمنا طويلا ، وكوني على ثقة من انك أجل فى عينى ، وأكبر فى نفسى ، من أن أعد عليك أمثال هذه الهفوات والعثرات ، وأنى لا يعنينى أكان أبى معلوما أم مجهولا ، شريفاً أم وضيعاً ، لانى ما فكرت يوما من الايام أن أفخر به ، أو أعتمد فى حياتى عليه ، أما تلك التى حدثتنى عنها فسأحمل نفسى على نسيانها وسلوتها ، وأرجو أن يعينى الله على ذلك ، ولقد شعرت قبل اليوم بانقباضها عنى ، وتجهمها لى ، ولا بد أن تكون قد وقفتْ من بضعة شهور على هذا السر الذى أطلعتنى عليه اليوم فازدرتنى واحتقرتنى ، ونفضت يدها منى إلى الابد ، والامر لله وحده

ثم نهض قائما وقد ظن أنه قد شفى مما به ، فتنفس نفس الراحة ومضى لسبيله

إلا أنه لم يبعد إلا قليلا حتى شعر بوخزة فى قلبه فلم يُبَلْ بها ، ثم تتابعت الوخزات فخيل اليه أن قلبه يرفرف ما بين أضلاعه رفرفة الطائر بأجنحته ، وأنه يحاول أن ينبعث من

مكانه ويطير فى أجواز الفضاء ، فصرخ صرخة عظمى وظل يهتف : آه ياڤرچينى ! آه ياڤرچينى ! حتى وصل إلى صخرة عالية على شاطئ البحر فتهافت عليها وأسلم رأسه إلى ركبتيه وذهبت به نفسه مذاهب لا يعلمها الا الله

وظل على ذلك ساعة حتى انحدر قرص الشمس إلى مغربه ، وبدأ كوكب الليل يخطر فى جو السماء محفوفاً بحاشية من سحبه وغيومه ، فلا يكاد يلمحه اللامح من خلالها إلا كما يلمح وجه الحسناء من وراء خمارها ، ثم أخذ يرسل أشعته الباهتة الخضراء على ما تحته من صخور وهضاب ، ورمال وتلال ، فأضاءتها وأضاءت فيما أضاءته ذلك الشبح الضئيل الجاثم على تلك الصخرة المنفردة

وإنه لكذلك إذ شعر بيد قد وضعت على عاتقه وبأخرى ترفع رأسه فانتبه فاذا ڤرچينى واقفة أمامه ودموعها تترقرق فى عينيها ، فذعر إذ رآها وظل ينظر اليها نظراً حائراً مضطرباً ، فقالت له ما بقاؤك هنا وحدك فى هذا المكان

ياپول ؟ فقال لها لقد حدثونى عنك انك مسافرة بعد يومين أو ثلاثة ، وانك ذاهبة لتفتشى لك عن أخ آخر غيرى يصلح لك وتصلحين له ، لانك عرفت انك فتاة شريفة سرية لايجمل بك أن تتصلى بفتى وضيع مسكين مثلى ، فأحزننى



« فرجينى تنبه پول من إغمائه »

ذلك حزناً عظيما ، وكنت أظن أننى استطيع ان احمل نفسى على الصبر عنك ، واليأس منك ، فعجزت ، فلم أر بداً من أن أروّح عن نفسى ببضع قطرات من الدمع أذرفها فى هذا المكان الخالى

ثم أشار اليها أن تجلس بجانبه وأقبل عليها وظل يقول لها : الى أين تريدين أن تذهبي ياڤرجيني ؟ وأى أرض تلك الارضُ التى اخترتِها وآثرتها على أرضك التى نشأت فيها ،



« پول يعاتب فرجيني »

وألفت ماءها وهواءها ، وظلالها وأفيـاءها ، وخضراءها وغبراءها ؟ وأى قلب ذلك القلبُ الذى رأيتِ أنه يحمل لك فى سويدائه من الحب والعطف أكثر ممـا يحمل لك

قلبُ أمك فاستبدلتِه به ، وسكنتِ اليه مِن دونه ؟

لمن تتركين تلك المرأة المسكينة وأنت أنس وحشتها، وسمير وحدتها ، وعماد حياتها ، وكل أملها ورجائها في هذا العالم

كيف تستطيع أن تهنأ بنومها حينما تمد يدها في ظلام الليل وسكونه الى مضجعك فلا تراك بجانبها ، وكيف تستقبل وجه النهار اذا فتحت عينيها في الصباح فلا تقعان على وجهك المشرق الجميل ، أو تجد لذة الطعام والشراب إذ جلست إلى المائدة فلا تراك بين الجالسين اليها ، أو تصغي الى أصوات الطبيعة المترنمة وصوتك لا يجلجل بينها ، ولا تنبعث رنته بين رناتها

وكيف لي بتعزيتها وتعزية أمي عن همومهما وأحزانهما اذا دخلت اليهما فرأيتهما باكيتين منتحبتين تسألان عنك الليل والنهار ، والأصائل والاسحار ، والظباء السانحة ، والطيور البارحة . فلا تسمعان ملبيا ولا مجيباً ، ولا تقبلان عزاء ولا سلوى

وصمت هنيهة ثم قال وعيناه مخضلّتان بالدموع : وماذا أصنع أنا من بعدك أيتها الغادرة القاسية اذا ظللت أفتش عنك فى كوخك ومخدعك ، وتحت ظلال الاشجار ، وعلى ضفاف الانهار ، وفى جميع الاماكن التى أعلم أنك تأوين اليها ، لأجلس اليك ساعة أتمتع فيها بلذة حديثك ، وحلاوة سمرك ، فلا أراك فى واحد منها ، ومن لى بمن يستقبانى حينما أعود من المزرعة تعبا لاغبا فيبتسم لى تلك الابتسامة العذبة الجميلة التى تذهب بجميع أوجاعى وآلامى ، ومن ذا الذى يصحبنى فى هدوء الليل وسكونه الى شاطئ البحر وقد بسط القمر أشعته على أمواجه المنبسطة وصبغها بلونه الفضى الجميل فيجلس بجانبى على رملة من رماله الميثاء فيسمعنى تلك الاناشيد الساحرة الخالبة التى تستغرق شعورى ووجدانى ، وتملك علىّ مداركى وعواطفى ، وتخيل إلىّ حين أسمعها أنها هابطة من الملأ الاعلى ، وانها نغمات الحور الحسان ، فى فراديس الجنان

إننى لاأستطيع أن أعيش من بعدك ياڤرچينى ، ولا أستطيع أن أسألك أن تستصحبينى معك فى سفرك ، فأنت أجل من ذلك شأناً ، وأعظم خطراً ، ولقد أفضتْ الىّ أمى اليوم بسر حياتك وسر حياتى فعلمت أنك فتاة شريفة جداً ، وأننى فتى وضيع جداً ، لا أصلح أن أكون أخاً لك ، بل لاأصلح أن أكون عشيرك وجليسك ، وانما أسألك أن تأذن لى بركوب السفينة التى تركبينها لاكون ملاحا من ملاحيها ، أو خادما من خدمها ، فأراك على البعد ، فأجد فى رؤيتك راحتى وسلوتى ، وأعدك وعداً صادقاً لا اغدر فيه ولا أحنث أننى لا اجالسك ، ولا ادنو منك ، ولا أتصل بك بوجه من الوجوه ، الا اذا عرض لك خطر من الاخطار ، فاننى ابذل لك فى تلك الساعة جميع ما تملك يدى ، وما تملك يدى غير حياتى ، فأبذلها لك طيبَ النفس عنها

ما الذى طرأ عليك يا ڤرچينى ؟ وما الذي نال من نفسك هذا المنال كله حتى استحالت حالتك إلى حالة اخرى أكاد أنكرها ولا أعرفها ؟

كنت تخافين البحر أشد الخوف ، وتجزعين لرؤية عواصفه وأنوائه جزع الاطفال الصغار ، وتعجبين كل العجب للذين يخاطرون بأنفسهم فى ركوبه ، فاذا أنت مزمعة أن تعبريه ، وأن تلبثى بين أمواجه الثائرة تسعين يوماً كاملة

كنت تتألمين أشد الألم لفراق أمك يوماً واحداً ، فها أنت تريدين أن تفارقيها فراقاً طويلا لايعلم مداه الا الله تعالى ، ومالك حيث تذهبين من الارض أم سواها

كنت تقولين لى إننى لاأجد لذة الحياة بعيدة عنك . فها أنت تجدينها بعيدة عنى جداً بين أقوام لاتعرفينهم ، ولا تمتين إليهم بصلة من الصلات ، أو سبب من الأسباب

لقد شعرت بهذا الطارئ الجديد الذى طرأ على نفسك مذ رأيتك تلبسين هذا الثوب الضيق اللاصق بجسمك ، وعهدى بك انك تضيقين ذرعا بالريح العاصفة اذا مدت يدها اليك ، وحاولت أن تعبث بذيل ردائك ، أو تدور

بقميصك حول جسمك ، ولا أدرى ماذا يكون شأنك غدا إذا فارقت هـذه القفرة الموحشة الى ذلك العـالم المزدحم الهائل الذى يتدفق حرية واستهتاراً ، ويسيل نعمة ورغدا

نعم إنك قد مللتنى ياڤرچينى ، ومللت الحياة بجانبى ، وأصبحت تشعرين بالحاجة الى المال الذى لا أستطيع تقديمه لك ، والى العيش الرغد الذى تقصر يدى عنه ، فلا ألومك ولا أعتب عليك ، ولكننى أسألك هل أنت على ثقة من أن المـال هو السبيل الوحيد الى السعادة التى تنشدينهـا ، وأنك تكونين فى ذلك الفناء الواسع أسعد منك فى هذه الزاوية الضيقة ؟ إننى أخاف ان تكونى مخطئة فيما تظنين

إننى لا آسَى على نفسى ياڤرچينى . فقد عرفتُ من أنا ، وعرفتُ من أنت ، وأصبحت لا أمل لى فى أن أعيش فى دائرة أوسع من الدائرة التى خُلقتُ لهـا ، ولكننى أضن بك على الدهر وأرزائه أن يمتـد اليك ظفر من أظفاره الجارحة فأهلك على اثرك هما وكمداً

فاما ان تعدلى عن السفر ، او تأذنى لى بالسفر معك ، فانى لاأستطيع أن أحول بين قلبى وبين القلق عليك مادمت غائبة عنى ، فان أبَيْتِهما فودعينى منذ الساعة الوداع الاخير ، فلا امل لى فى الحياة من بعدك

فلم تستقبله الا بدموعها تتحدَّر على خديها تحدرَ حبات العقد وهَى سلكه فانتثر ، وانشأت تقول له

إنى انما اسافر من اجلك ياپول لامن اجل نفسى ، لانى أصبحت اشفق عليك الاشفاق كله من هذا الشقاء الذى تكابده فى سبيلى وسبيل هذه الاسرة المسكينة ، وطالما بكيتك بينى وبين نفسى كلما رايتك صاعداً شَرفا ، أو عابراً نهراً ، او سالكا وعراً ، او حاملا ثقلا ، حذراً عليك ان تزل بك قدمك فى هوة من الهُوى فتهلك فأهلك على أثرك ، فأنا ان فارقتك فانما أفارقك بجسمى لا بنفسى لاعود اليك بعد قليل من الأيام بالراحة الطويلة من آلام هذه الحياة ومتاعبها ، ولنستطيع ان نتمتع غدا فى هذا

المعتزل الساكن الجميل متعة لايكدرها علينا مكدر حتى الموت

ورجائى اليك الا تعود مرة اخرى الى ذلك الحديث المزعج الذى حدثتنيه الساعة ، فانما نحن اخوان توأمان ، نشأنا معا ، ودرجنا معا ، وشربنا الحياة من كأس واحدة ، وسلكنا سبيلها من طريق واحدة ، هذا هو نسبنا ، وهذا هو حسبنا ، لانعرف غيره ، ولا نفهم شيئا سواه ، وإنى قائلة لك كلمة ما كان يمنعنى من أن أقولها لك قبل اليوم الا الخجل والحياء ، لو أن الدنيا عُرضت على بحذافيرها على أن أبتاعها بشوكة تُشاكها ، أو لحظة تتألم فيها ، لأبيتُها غير آسفة ولا نادمة

على أننى لاذنب لى فيما كان ، فقد أمرتنى أمى بالسفر ، ولا أستطيع أن أخالف لها أمراً ، وأبانى الكاهن أن تلك ارادة الله ومشيئته ، ولا قبل لي بالخروج عن ارادته ؛ وبعد فهأنذا بين يديك فمر فىَّ بما تشاء من أمرك أُطعك

وأذعن اليك ، غير مبالية بشئ بعدك ، فكل ما فى الحياة هين علىّ الا أن أراك جازعا أو متألماً

فصاح پول صيحة الفرح والسرور وقال سافرى يا ڤرچينى ، وسأسافر معك لأقيك بنفسى عاديات الدهر ، وطوارق الحدثان ، فان حيينا حيينا مماً ، وإن هلكنا هلكنا معاً ، ثم دنا منها وضمها الى صدره فشعر بالراحة التى يشعر بها الملقى عصاه بعد سفر طويل

وكنا نفتش عنهما فى تلك الساعة أناوهيلين ومرغريت ولا نعرف لهما مكانا ، حتى سمعنا صيحة پول حين صاح فقصدنا اليه ، فما وقع نظره علينا حتى انتفض من مكانه ومشى الينا ، ثم التفت الى هيلين وألقى عليها نظرة ما ألقى عليها مثلها قبل اليوم ، وقال لها بنغمة الهازئ الساخر : نعمت الأم أنت ياسيدتى ، ونعم ما تُسدينه الى ولديك الكريمين عليك من نعمة سابغة ، ويد بيضاء ، اذ تريدين أن تفرق بينهما ، وتمزق شمل حياتهما ، وتعذبى قلبيهما

الناشئين الضعيفين بصنوف العذاب ، وألوان الآلام ، وأنت تعلمين أنهما متحابان متآلفان ، لايستطيع أحدهما أن يصبر عن صاحبه لحظة واحدة ، وأنّ افتراقهما هو القضاء عليهما معاً

لقد كنتِ يا سيدتى أزهد الناس فى المال ، وأشدهم نقمة عليه ، وزراية به ، وزهداً فيه ، فما الذى بدا لك فى شأنه حتى أصبحت تخاطرين بولديك العزيزين عليك فى سبيله ، بل تخاطرين بكرامتك وعزة نفسك ، لأنك تريدين أن ترسلى ابنتك إلى تلك الارض التى أهانتك واحتقرتك ، وأبت أن تسمح لك بالبقاء فيها ، والعيش تحت سمائها ، عقاباً لك على هفوة صغيرة ما كان مثلها جديراً بمثل هذا العقاب المؤلم الشديد

نعم إنها ابنتك وأنت صاحبة الشأن فيها ، ما ينازعك فى ذلك منازع ، ولكننى أنا أيضاً أخوها وصديقها وعشيرها ، فصلتى بها عظيمة جداً لاتفترق عن صلتك إلا قليلا ، ولئن

فرق بينى وبينها النسب فلقد جمعَنا الحب والاخاء ، والود والوفاء ، والولادة فى مهد واحد ، والرضاعُ من ثدى واحد ، وبكائى عليها إن مسها ألم ، وبكاؤها علىّ إن نالنى وصب ، ومخاطرةُ كل منا بنفسه فى سبيل صاحبه حتى يستنقذ حياته من يدىْ أجله أو يهلك دون ذلك ، واشتراكُنا معاً فى الخير والشر ، والنعيم والبؤس ، والجوع والشبع ، والرى والظمأ ، وخوض الانهار ، واجتياز القفار ، وتسلق الجبال ، ومقاساة الاهوال ، فكيف لى بالصبر على فراقها ، أوْلها بالصبر على فراقى

أبعديها عنى ماشئت ، ولكننى سأتبعها ، وأترسم آثارها ، حيثما حلت من الأرض ، فان أبيتم ألا أن تقفوا فى وجهى ، وتحولوا بينى وبين ركوب السفينة التى تحملها ، خضت البحر وراءها خوضاً ، لا أبالى بالمخاطر التى تعترضنى فى طريق ، فان قُدّرت لى النجاة فذاك ، أوْلا ، فحسبى منها أنها تُلْقى علىّ فى الساعة الاخيرة من ساعات حياتى نظرة

من نظراتها ، وأن تذرف فى سبيلى دمعة من مدامعها ، فيكون شخصها آخر ما أرى من الأشياء ، وصوتها آخر ما أسمع من الاصوات

فاستعبرت هيلين وقالت وماذا يكون حالنا من بعدك ياپول ؟

قال وهل تظنون أننى أبقى من بعدها إنساناتستطيعون أن تنتفعوا بى فى شأن من شؤونكم ؟ أو أن يبقى لى من الفهم والادراك مايعينني على مأرب من مآرب هذه الحياة ؟ إنها فكرى وعقلى ، وتصورى وإدراكى ، وقوتى وعزيمتى ، وحياتى من مبدئها إلى منتهاها ، فان أردتم أن تفقدونى إلى الأبد ، فابعدوها عنى ، وودعونى الوداع الاخير قبل أن تودعوها

ثم اختنق صوته بالبكاء وحاول أن يذرف دمعة واحدة يروح بها عن نفسه فلم يستطع ، فارتعد جسمه ، واستحال لونه ، وشاعت نظراته ، ولمعت عيناه ، ولبس وجهه أغرب

صورة لبسها فى حياته وظل يهذى ويقول :

أيتها المرأة القاسية : لامتعك الله برؤية ابنتك بعد اليوم ، ولا أعادها البحر اليك إلا جثة باردة طافية على أمواجه ، ولا وقعت عيناك عليها إلا محمولة على الأيدى إلى مقرها الاخير ، ولتكن ذكراها مبعث ألم دائم لك لا يفارقك حتى الموت

ثم دار على نفسه دورة سريعة وسقط مغشياً عليه ، فبكت هيلين ومرغريت ، وبكيت أنا أيضاً على جفاف دمعتى ، ونضوب مادة حياتى ، لأننى أصبحت والدا لهذا الولد المسكين ، وأى والد يستطيع أن يملك نفسه ومدامعه أمام دموع ولده المنهلّة بين يديه ، وظللت أقول فى نفسى : ويل لك أيتها القارة المشؤومة ، لاخلاص منك ، ولا نجاة من يدك أبد الدهر ، فقد فرت منك تلك الأسرة المسكينة ، ولجأت إلى أقصى مكان يمكن أن تناله يد فى العالم ، فمازلت بها ترسلين وراءها عقاربك واحدة بعد أخرى حتى أزعجتها

من مستقرها ، واستطعت بحفنة واحدة من الدنانير أن تفسدى عليها حياتها ، وتبددى ما اجتمع من أمرها ، وأن تعيديها إلى حبائلك المنصوبة التى ظنت أنها قد أفلتت منها أبد الدهر ، فواشقاءك ، وواشقاء العالم بك

وهنا تقدمت نحوه ڤرجينى تمشى بخطوات خفيفة مختلسة حتى جلست إلى جانبه ، وقد تلألأ وجهها بنور سموى غريب ، لايشبه نور القمر ، ولا نور الشمس ، ولا نور أى كوكب من كواكب الأرض والسماء ، بل هو مبعث ذاته ، ومنبع نفسه ، وأكبّت على أذنه تقول له : سواء بقيتُ هنا ياپول أو رحلتُ ، فانى أقسم لك بدموعى ودموعك ، وآلامى وآلامك ، وبما قُدر لنا أن نلقاه فى حياتنا من شقاء ولوعة ، أننى أكون لك ماحييت ، ولا أكون لأحد غيرك ، أقسم لك على ذلك بين يدى أمى وأمك ، وبين يدى هذا الشيخ الصالح الجليل ، فهم شهود على ما أقول ، والله من ورائهم محيط

فكأنما صبت على جسمه سَجلا من الزلال البارد ،

فانتفض ورأرأ بمقلتيه واستوى جالساً ، وظل يدور بنظره حوله ثم أسبلت عيناه الدموع فى هدوء وسكون ، فاحتضنته أمه إلى صدرها ، وبكت حتى امتزجت دموعه بدموعها ، فهمست هيلين فى أذنى : إن الموقف مؤلم جداً ، ولا صبر لى على مشاهدته ، فتقدمتُ نحو پول وحذبت يده ، وقلت له هيا بنا ياولدى إلى المنزل ، فقد انتصف الليل ، فمشى معى صامتاً لايقول شيئاً ، ولا يلوى على شىء مما وراءه ، حتى بلغنا مفترق الطريقين ، طريق إلى كوخى ، وطريقه إلى كوخه ، فقلت له هل لك أن نترك أهلك الليلة يستريحون من آلامهم ومتاعبهم ، وتذهب معى إلى كوخى لتبيت عندى ثم تعود فى الصباح ؟ وكن على ثقة أن فرچينى لاتسافر بعد اليوم ، فقد عزمت غداً أن أكلم الحاكم فى أمرها ، والحاكم لايردّ لى رجاء ، وما أحسب إلا أن الامر سينتهى على مانحب وترضى ، فأسلم لى يده فقدته كما تقاد السائمة البلهاء حتى وصلنا إلى المنزل ، فقضى ليلته قلقاً مروّعا لا يذوق النوم إلا لماماً حتى أصبح الصباح

١٨
السفر

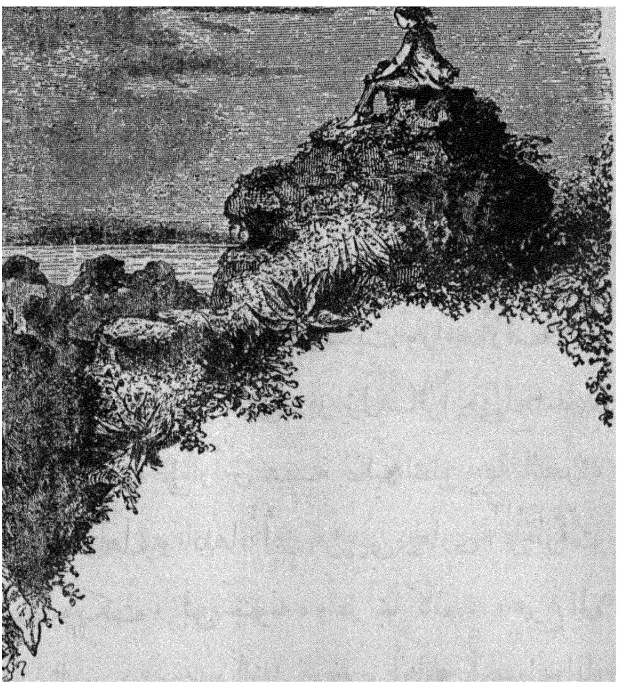
وهنا صمت الشيخ وأطرق برأسه فدنوت منه وقلت له مابك ياسيدى ؟ قال بي أن هذه الذكرى تهيجنى ، وتبعث شجونى وأحزانى ، ولا أرى لك ياولدى فائدة من ذكرها ، فالحياة كما تعلم ذات لونين أبيض وأسود ، وأنتم معشر المتمدينين لاتحبون منها إلا لونها الأبيض ، فلا أريد أن أنحرف بك إلى مالا تحب من لونيها ، قلت قل ياسيدى فنحن أبناء الدموع والآلام ، وسلائل البؤس والشقاء ، ومالنا أن نبرأ من أصولنا وأعراقنا ، أو نذهب فى حياتنا مذهبًا غير مذهب آبائنا وأجدادنا ، وهل يطهر معدنَ النفس من أخلاطه وشوائبه ، وينقيه من أدرانه وأكداره ، غير تلك الالسن النارية التى تنبعث من صدور المتألمين ، وقلوب المحزونين ، على أننا لا بد لنا أن نفهم

الحياة كما خلقت ، خيرها وشرها ، سعودها ونحوسها ، ولا بد لنا حين ننظر الى نصف الكرة الذى يقابل وجه الشمس أن نعلم أن نصفها الآخر مظلم قاتم ، وأننا ونحن فى ضوء النهار سيدور الفلك دورته فنصبح فى ظلمة الليل البهيم

فرفع رأسه واستمر فى حديثه يقول :

جاء الصباح فنهض پول من مضجعه القلق المضطرب ومشى فى طريقه الى كوخه ، ومشيت وراءه أرقبه على البعد من حيث لا يشعر بمكانى ، فلم يزل سائراً حتى لمح الخادم « مارى » واقفة على رأس هضبة عالية تنظر جهة البحر ، فذعر اذ رآها ، وناداها : أين ڤرچينى يامارى ؟ فأطرقت برأسها وبكت ، فجن جنونه ، وعلم بما كان ، وهرع الى شاطئ البحر يعدو عدو الظليم ، فلم ير أمامه على سطح الماء شيئاً ، وحدثه الناس هناك أن السفينة قد أقلعت قبيل الفجر وأنها قد تجاوزت مدى البصر فلا سبيل إلى رؤيتها ،

فكر راجعاً حتى وصل إلى ذلك الجبل العظيم الذى يسمونه جبل الاستكشاف ، فارتقاه باسرع من لمح البصر على



« پول على قمة الجبل ينظر سفينة فرجينى »

وعورته وتشعّب مسالكه حتى بلغ قمته العليا ، وضرب

الفضاء بنظره ، فلم ير فى عرض البحر الا نقطة سـوداء صغيرة تتلاشى شيأ فشيئاً ، فعـلم أنها السفينة التى تحمـل ثرچينى ، فاستمر نظره عالقاً بها لا يفارقها حتى غابت عن عينيه ، فظل واقفاً حيث هو ، ينظر حيث ينظر ، كأنما يظن أنها لاتزال باقية فى مكانها ، وظل على ذلك ساعة حتى نشأت أمام عينيه سحابة سوداء حجبت عنه كل شئ ، فلوى رأسه وانفجر باكيا ، وأنشأ يعج عجيجا محزنا يرن فى أجواف الغابات والأدغال ، وتُردد صداه أكناف الجبال ، فصعدتُ درجات من الجبـل حتى كنتُ منه بحيث يسمع صوتى ، وظللت أناديه وأضرع اليه أن ينزل فلم يفعل إلا بعد لأى ، فتناولت يده وذهبت به الى كوخه ، فبكت أُماه إذ رأتاه ، وكانت صورته قد استحالت إلى أغرب صورة لبسها فى حياته ، وكأنّ بؤس الحياة جميعه قد تجمّع واتخذ له مكاناً بين حاجبيه ، فظل ساعة صامتاً لا يقول شيئاً سوى أن يدور بطرفه ههنا وههنا كالذاهل المختبل ، ثم أخذ يتكلم كأنما

يحدث نفسه ويقول : لمَ لم ينبئونى بالساعة التى تسافر فيها لاقضىَ حق وداعها قبل أن تفارقنى : إنهم لو فعلوا لما زدت شيئاً على أن أدنوَ منها وأقبلها قبلة الوداع ، ثم أقول لها : إن كنت تذكرين ياثرچينى أني أسأت اليك يوماً من الايام ، أو بدرت منى بادرة آلمتك وجرحت نفسك ، فاغفرى لى ذنبى قبل أن تفارقينى ، وإن كنت عزمت على أن تجعلى فراقك هذا الفراقَ الاخير الذى لالقاء بعده ، وأن تتخذى لك فى المكان الذى تذهبين إليه أخا آخر غيرى ، تمنحينه من عطفك وودك مثل ما كنت تمنحيننى ، فأنت فى حل من ذلك ، وهنيئاً لك ما تختارين وما تؤثرين ، فلا تكن ذكراى سبباً فى تنغيص عيشك المقبل ، وتكدير حياتك الجديدة ، ثم أنصرف بعد ذلك لشأنى ، وقد هدأت نفسى وبرد غليلى ، ولكنهم لم يشفقوا على ولم يرحمونى ، لأننى ولد مسكين لاشأن لى فى الحياة ، بل لا مكان لى بين الأمكنة التى يجلس فيها ذوو الأصول والأنساب

فدنت منه هيلين وما بين القلوب قلبٌ أكثر من قلبها لوعة وأسى وتناولت يده وقالت له كن رجلا يابنى كما كنت طول أيام حياتك ، واعلم أننا ما كنا نعرف الساعة التى تسافر فيها ثرجينى ، فقد طرق بابَنا بعد عودتنا إلى الكوخ وفى هدوء الليل وسكونه حاكم الجزيرة ووراءه أعوانه وجنوده وقال لنا إن الريح قد اعتدلت ، والسفينة على وشك السفر ، فلتستعد الفتاة ، فأبت ثرجينى أن تسافر قبل أن تراك ، وظلت تهتف باسمك وتناديك وتبكى بكاءً مرا ، فلم يجد الحاكم بداً من أن يأمر رجاله بحملها ، فاحتملوها إلى هودج كانوا قد أعدوه لها ، وساروا بها الى شاطئ البحر وهى لاتنفك عن ذكرك ، والبكاء عليك ، حتى أقلعت السفينة

فرفع پول اليها نظره وظل يردده بينها وبين أمه ، ثم قال لهما : فتّشا لكما الآن عن ولد غيرى يدعوكما بأمه ، ويحمل عنكما همومكما وآلامكما ، فقد فقدتمانى الى الابد ،

ثم انفتل من مكانه مسرعا وخرج هائما على وجهه يمر بكل مكان كانت تجلس فيه ڤرجيني فيجلس فيه ، وبكل شجرة كانت تستظل بظلها فيقف تحتها ، وبكل جدول كانت تنام على ضفته فينام مكانها ، وأخذ يخاطب الماشية التى يجدها فى طريقه كأنها تعقل عنه مايقول فيقول لها : مسكينة أنت أيتها السائمة الضعيفة ، من ذا الذى يرحمك ويعطف عليك بعد صاحبتك ، ويقول للطيور التى تغرد فى أعشاشها لا تنتظرى بعد اليوم من يحمل اليك الطعام فى حجره ، والماء فى يده ، فقد سافرت ڤرجيني ، ورأى الكلب « فيديل » سائراً فى طريقه يسوف التُرب ويشتمُّه ، كأنما يفتش عن شيء ضاع منه ، فقال له فتش ماشئت فانك لن تراها بعد اليوم ، ورأى عنزةً تتبعه حيث سار فالتفت اليها وقال لها : أنا سائر وحدى ، وليست ڤرجيني معى ، فانصرفى لشأنك

ولم يزل هذا شأنه حتى بلغ الصخرة التى جاس عليها

معها ليلة الأمس فارتقاها ورمى بنظره فى الفضاء حتى استقر فى المكان الذى شاهد فيه تلك النقطة السوداء من البحر فى الصباح فلم يزل نظره عالقاً به كانما يظن أن السفينة لا تزال باقية فيه ، وظل على ذلك ساعات طوالا

وكنا نتبعه على البعد من حيث لا يشعر بمكاننا ، ونترقب مذاهبه ومراميه ، ونرثى له مما به ، وقد أصبحنا ولا شأن لنا غير رعايته وملاطفته ، وتهوين خطبه عليه ، وتسرية همومه وأحزانه ، ماوجدنا إلى ذلك سبيلا ، حتى استطعنا بعد لأى أن نعود به إلى الكوخ ، واستطاع هو بعد مرور يومين كاملين لم يذق فيهما طعاماً ولا شراباً أن يُصيب شيئاً من الطعام ، فكان إذا جاس على المائدة خيل اليه أن فرجينى لا تزال بجانبه ، فيظل يحادثها ويلاطفها كما كان يفعل من قبل ، ويضع بين يديها أصناف الطعام التى يعلم أنها تحبها ، ثم لا يلبث أن ينتبه لنفسه فيطرق برأسه خجلا وحياء ، وتظل عيناه تنهملان بالدموع ،

ثم ينهض من مكانه وينصرف لشأنه

وكان لا يعجبه من الأحاديث مثل الحديث عنها ، ولا يطربه خطاب مثل خطاب هيلين حين تناديه : يازوج ابنتى ، أو ياصهرى العزيز ، فاستطاع الهدوء أن يجد شيئاً فشيئاً إلى نفسه سبيلا ، فأخذ يجمع آثار فرجينى من جميع أماكنها ومظانّها ، فجمع طاقة من الزهر كان قد أهداها إليها قبل سفرها بيوم واحد ، وعصابة حمراء كانت تعتصب بها فى أيام الأعياد ، وكأس الشاى التى كانت تشرب بها ، وزجاجة العطر التى كانت تحفظها فى صندوقها ، ومشط الآبنوس الذى كانت تمشط به غدائرها ، وأمثال ذلك من الادوات والآنية ووضعها فى مكان واحد سماه « متحف فرجينى » فكان يختلف اليها من حين إلى حين ليلثمها ويقبلها ويضمها إلى صدره كأنما هو يضم صاحبتها

وما هى إلا أيام قلائل حتى عادت له تلك الروح العظيمة الشريفة التى كانت تملأ مابين جنبيه ، روح الرجولة والهمة ،

والعزة والأنفة ، فعزّ عليه أن يرى أمّيه وهما ضعيفتان منهوكتان تختلفان إلى المزرعة لمناظرتها ، والقيام عليها ، فأخذ يحمل عنهما ذلك العبء شيئاً فشيئاً حتى استقل به . فعادله جده ونشاطه ، وأصبح العمل مَلهاته الوحيدة التى يلجأ اليها من همومه وأحزانه ، ويعتصم بها من وساوسه وبلابله

وكان يأنس بى فى ذلك الحين أنساً عظيما ، ويقضى معى جميع أوقات فراغه ، لأنّى كنت أعزيه وأهون عليه همومه وآلامه ، لابالدموع والبكاء ، كما كانت تفعل أُمّاه ، بل بالحديث والسمر ، وسرد القصص ، وضرب الأمثال ، واستخراج العبر والعظات من مشاهد الكون ومناظره ، فاقترح علىّ يوماً من الايام أن أعلمه الكتابة والقراءة ، ولعله كان يضمر فى نفسه أن يعرف السبيل الى مراسلة فرجينى ، فأعجبنى مقترحه هذا ، وأخذت أعلمه ما أراد ، وأقسم لك يا ولدى أنى ما رأيت فى حياتى ذهناً أحدّ ولا أمضى ، ولا

فطرة أقوم ولا أسلم ، من ذهن هذا الغلام وفطرته

فقد استطاع بعد بضعة شهور لا تزيد على تسعة أو عشرة أن يقرأ فصلا طويلا من كتاب أدبي بسيط ، وأن يكتب مسودة رسالة لفرجيني



« پول يسود رسالة لفرجيني »

وما هو الا عام وبعض عام حتى طلب الى أن أعلمه فن الفلاحة ، ولعله أراد أن يصل من طريقه الى الثروة الواسعة ارضاءً لفرجيني ، وعِلمَ تقويم البلدان لِيعرف النقطة التي تحلها فرجيني من سطح الأرض ، وعِلمَ التاريخ

ليعرف شيئاً من شؤون أولئك القوم الذين تعاشرهم ثرچيني ، فعامته من ذلك مايستطيع أن يقوم به مثلى ، ولم يلبث إلا قليلا حتى استطاع أن يستقل بنفسه فى دراسة تلك العلوم وغيرها مما بدأ له أن يعرفه ويزاوله ، فأصبح يشعر بلذة عظمى ما كان يشعر بمثلها من قبل ، وسمت نفسه إلى درجة عالية من الفهم والادراك لم يسمح الدهر بمثلها لفتى فى مثل سنه ، وفى مثل الزمن الذى قضاه فى الدراسة ، وأصبح ينظر إلى الحياة وشؤونها نظر الفيلسوف الحكيم ، ففهمها على حقيقتها ، واستشف الكثير من بواطنها وخفاياها ، وعرف الفروق الدقيقة بين الخير والشر ، والصلاح والفساد ، والاساءة والاحسان ، فلم يشتبه عليه مسلك من المسالك ، ولا سبيل من السبل ، وكان السبب فى ذلك أنه تعلم العلم لا ليتخذه آلة يتوصل بها إلى غرض من أغراض الحياة ، أو مطمع من مطامعها ، ولا ليتجمل به بين الناس كما يفعل أولئك الفاخرون المغرورون الذين

يعتبرون العلم حلية من الحلى يفاخرون بها كما يفاخرون بأثوابهم القشيبة ، وجواهرهم الثمينة ، وقصورهم الشامخة ، ومراكبهم الفارهة ، بل ليفهم الحياة على حقيقتها ويراها كما خلقها الله لا كما عبثت بها يد الانسان ، فكان له ما أراد

وكذلك استطاع الحب أن يخلق من هذا الغلام الهمجى المتوحش انساناً كاملا ، مستنير الذهن ، مستوىَ العقل ، فياض الشعور والاحساس ، واستطاعت شمسه المشرقة أن ترسل أشعتها الوضاءة إلى أعماق ذلك القلب المظلم القاتم ، فتنير جوانبه ، وتبدد ظلماءه . واستطاعت شعلته الملتهبة أن تطهر بنارها تلك النفسَ الصدِئةَ المتبلدة ، وتستخلصها من أخلاطها وشوائبها ، فاذا هى سبيكة صافية من الذهب ، تتوهج توهجاً ، وتلتمع التماعا ، إلا أنه لم يمض على ذلك زمن طويل حتى بدأ يمل التاريخ لكثرة ما يشتمل عليه من وصف المجازر البشرية ، والمصارع الانسانية ، الآخذ بعضها بأعناق بعض ، ومن تلك الجداول المستطيلة الحافلة برذائل

الملوك والامراء ، وفظائع الاشراف والنبلاء ، وما سودوا به صحائف حياتهم وحياة العالم أجمع من عار وشنار ، كما ملّ تقويم البلدان لكثرة ما يحتويه من أسماء الامكنة والبقاع ، والجبال والتلال ، والانهار والأنهيرات التى لانهاية لها ، ولا فائدة منهـا ، وشغف الشغف كله بالأدب شعراً ونثرا ، وقصصا وروايات ، وأمالىَ ومحاضرات ، لأنه خلاصة العقل البشرى ، وزبدته الاخيرة التى تمخض عنهـا ، ولانه المرآة الصافية التى تتراءى فيـه صور الحياة على حقيقتها ، ومشاعر النفوس بكل ماتشتمل عليه من حب وبغض ، وسرور وألم ، وطمع ويأس ، وارتياح وانقباض ، وكان خير مايعجبه من الشعر شعر « هومير » ومن النثر قصة « تليماك » لأنها تصور حياة الفطرة والبساطة ، وتمثل المشاعر النفسية بدقائقها وأجزائها ، وترْسم مزالق الشهوات التى تزل فيهـا أقدام البشر من فجر التاريخ حتى اليوم ، فاذا جلس لقراءتها ووصل إلى قصة أنتيوب وأوخاريس خيل إليه أن ڤرجينى

مثال الاولى فى إبائهـا وعزتها ، ومثال الاخرى فى رقتهـا وعذوبتها ، فتهيج أشجانه ، وتسيل عبراته ، فيلقى كتابه جانباً ، ويسبح فى فضاء الخيال سبحاً طويلا

وكان من أبغض الأشياء إليـه مطالعة تلك الروايات الغرامية التى وضعها واضعوها لايهذبوا بها الطباع البشرية ، ولا ليصوروا فيها الحياة الاجتماعية على حقيقتها ، بل ليستثيروا بها شهوات الناس ، وفضول أطماعهم ، ويلهبوا بنارها مابرد من عواطفهم ، وهدأ من لواعجهم ، ولينزلوا بالحب من سمائه الرفيعة المقدسة الى تلك الحمأة القذرة من الرذائل والمثالب ، وكان يقول فى نفسه كلما قرأ شيئاً منها ليت شعرى هل تستطيع فرجينى أن تنجو بنفسها من شرور ذلك المجتمع الخبيث الذى تتحدث عنه هذه الروايات : إننى أخاف عليها خوفاً شديداً



« پول يقرأ قصة تلماك ويتذكر فرجيني »

لا أحدثك كثيراً عن سفرى وأدواره سوى أن أقول لك إن فراقك كان له تأثير على نفسى عظيم ما كنت أقدره من قبل ، فقد بكيت كثيراً ، وتألمت كثيراً ، حتى رحمنى من كان معى ، وكان يخيل إلى والسفينة تمخر بى فى عباب البحر أنى إنما أفارقك فراقا لارجعة لى منه أبد الدهر ، ولقد شعرت بوحشة عظمى فى الساعة التى دخلت فيها قصر عمتى ، فقد خيل إلى أنه على جماله ورونقه ، وحسن نظامه ، وبديع هندامه ، وكثرة الذاهبين والآتين فى أبهائه وحجراته ، مقبرة موحشة لا نأمة فيها ولا حركة ، ولقد سألتنى عمتى حين وقفت بين يديها بصوت خشن جاف لا تجول فى أديمه قطرة واحدة من الرحمة : ماذا تعلمت فى صغرى ؟ فلما عَرَفتْ أنى لم أتعلم شيئاً حتى القراءة والكتابة قالت إنكِ لا تزيدين فى شأنك على شأن هؤلاء الخدم الوقوف بين يدىّ ، ولم تنشئ منشأ خيراً من منشئهم ، ثم أمرت بأرسالى الى دير فى ضواحى باريس أتعلم فيه أنواع العلوم ، فعامونى

القراءة والكتابة ، فسرنى منهما أنى أستطيع مراسلتك وقراءة رسائلك ، ثم أخذوا يعلمونى التاريخ وتقويم البلدان والحساب والهندسة والرسم والعلوم الدينية وبعض الألعاب الرياضية ، فلم أحفل بشىء من هذا كله ، لانى شعرت ببغضه والنفور منه ، واعتقدت أن لا فائدة لى فيه ، فوصفنى أساتذتى ورفيقاتي بالبلادة وعسر الفهم ، فلم أُبَلْ بذلك ، لأنى مادخلت الدير لأرضيهم ، ولالأنال الحظوة فى عيونهم ، على أن عمتى تُعنىَ بى عناية كبرى ، وتبذل فى سبيل راحتى ورفاهيتى وتيسير جميع مرافقى وحاجاتى مالا كثيراً ، وقد خَصصت لخدمتى فتاتين متأنّقتين من وصائفها لاعمل لهما نهارهما وليلهما إلا القيام على زينتهما وحليتهما ، وقضاء مايتبقى من أوقات فراغهما فى أحاديث تافهة مرذولة لا لب لها ولا ثمرة ، كأنما تمثلان على مسرح ، أو تلعبان فى ملعب ، ويخيل إلى أن عمتى قد أوعزت اليهما ألا تدعوانى بلقبى الذى أحبه وأوثره ، فهما تسمياننى دائما « الكونتة ڤرجينى » بدلا من

« ڤرچيني دى لاتوز » أى انها تأبى علىّ أن أحمل اسم والدى الذى أحبه وأعطف عليه وأفخر به كل الفخر ، ولا أستطيع أَن أَنسى ما كابده فى حياته من شقاء وألم فى سبيلك وسبيل سعادتك حتى سقط فى مصرعه المحزن المؤلم فى صحارى مدغشقر غريباً وحيداً لا يعطف عليه عاطف ، ولا يبكى عليه بالك ، ويخيل إلى فوق ذلك أنها أمرتهما ألا تسمحا لى بالتحدث عنك ، وعن حياتى الماضية معك ، فاذا ذكرتُك أو ذكرت شيئاً عن تلك الجزيرة التى قضيت فيها زهرة حياتى نظرتا إلى نظرات الهزء والسخرية ، وقالتا لى : إنك باريسية ياسيدتي فلا يجمل بك أَن تتحدثي أمثال هذه الأحاديث عن تلك الاصقاع المتوحشة ، وأغرب من هذا أنها على جودها وسخائها وبسطة يدها وإحاطتها اياى بجميع صنوف الرعاية والاكرام لا تسمح ببقاء درهم واحد فى يدى ، كأنها تخشى أن أبعث اليك بشىء من المال ،

ولا أدرى ماذا يَعنيها من ذلك ، على أننى أعترف لها بأنها قد صدقت فى فراستها ، فاننى ما كنت أتأخر عن أن أبعث اليك بجميع مايصل إلى يدى ، لو وصل إلى يدى شىء ، ولكن ماذا أصنع وأنا فقيرة مُعوِزة لا أملك شيئا ، بل أنا الآن أفقر منى فى كل عهد مضى ، لاننى عاجزة عن أن أمد يدى بالمعونة الى من تهمنى معونته ، ولقد سألتها مرة لم لا ترسل اليك شيئاً من المال تستعينين به على عيشك فى تلك البلاد المقفرة ، فكان جوابها إن الحياة فى تلك البلاد لا تحتاج الى كثير من المال ، وإن المال يفسدها ويُربكها ، ويحولها من حياة بسيطة هادئة ، الى حياة مركبة مزعجة ، مملوءة بالمتاعب والشواغل ، فلم أستطع أن أفهم شيئاً مما تقول ، ولكننى فهمت أنها لا تكترث بك ، ولا تحفل بشأنك ، وما كنت أريد أن أقص عليك شيئاً من هذ لولا انك أوصيتنى أن أَصدُقك الحديثَ عن كل ما أراه وأشعر به من خير أو شر ، فليتك تَحضُرين الىّ ياوالدتى لتعيشى بجانبى ، وتحملى عنى بعض

ما أكابده من الوحشة والكآبة فى هذه البلاد ، فان حياتى على رغدها ورخائها ، وتوفر أسباب النعمة فيها ، شقية جداً ، لا أجد فيها أنساً ولا اغتباطاً ، فلا الرياض الزاهرة ، ولا القصور الشامخة ، ولا الأثواب الجميلة ، ولا الجواهر الثمينة ، ولا المراكب الفارهة ، بقادرة على أن تذهب بشئ من وحشتى وضجرى ، لاننى لا أجد حولى تلك القلوب الطيبة الرحيمة التى ألفتها وأحببتها ، وامتزج شعورى بشعورها ؛ فأنا أعيش من بعدها فى ظلمة حالكة لا يلمع فيها نجم ، ولا يضىء كوكب ، ولولا انى أعلم أن بقائى هنا انما هو تنفيذ لارادتك ، ونزول على حكمك ، ما أطقت البقاء ساعة واحدة

ولقد كنت أجهل فى مبدأ أمرى أخلاق سكان هذه البلاد وطبائع نفوسهم ، وأعتقد أن ظواهرهم مرآة بواطنهم ، وأن الله قد منحهم من الفضائل النفسية بمقدار مامنحهم من جمال الصور ونضرة الاجسام ، حتى تكشّف لى أمرهم ،

فرأيت أنى أعيش بين قوم ممثلين ، لاعلاقة بين قلوبهم وألسنتهم ، ولا صلة بين خواطر نفوسهم ، وحركات أجسامهم ، فهم يكذبون ليلهم ونهارهم ، فى جميع أقوالهم وأفعالهم ، لايرون فى ذلك بأساً ، كأن الكذب هو الاساس لأول لحياتهم الاجتماعية ، وكأن الصدق عرض من أعراضها الطارئة عليها ، وكأن لهم نظاماً خاصاً بهم يختلف عن نظام البشر جميعاً فى كل مكان وزمان

ولقد لبثت زمنا طويلا أكتب اليك الكتاب بعد الكتاب ثم أنتظر رده فلا يرد الى شىء ، وكنت أعجب لذلك كل العجب ، وأذهب فى تأويله مذاهب مختلفة ، حتى علمت منذ أيام قلائل أن الوصيفة التى كنت أعتمد عليها فى حمل كتبى الى البريد كانت تحملها الى عمتى فتقرؤها وتمزقها ، فأحزننى ذلك حزناً عظيما ، ثم أفضيت بالامر إلى صديقة لى من طالبات المدرسة كنت أثق بها كثيراً فأخذت على نفسها أن تتولى إرسال ما أريده من الكتب اليك ،

وهاهو ذا عنوانها مرسل مع هذا فابعثى إلى برسائلك من طريقها

وبعد فليس فى هذه الحياة التى أحياها هنا ما يروقنى ويعجبنى ، فانى لاأزال حتى الساعة أعيش فى قفرة موحشة لايؤنسنى فيها غير أولئك الوصيفات السخيفات اللواتى لا طيق رؤيتهن ، ولا سماع أحاديثهن ، وغير شيخ هرم من أصدقاء عمتى يزعم أنه يحبنى ويعطف على ، وأحسَب أنه كاذب فيما يقول ، لانى لاأشعر بحبه ولا العطف عليه ، فانا أقضى جميع أوقاتى مكبّة على منسجى ، أروح عن نفسى بالنسج والتطريز ، وستجدين فى الحقيبة المرسلة اليك مجموعة من الجوارب والمناديل والعصائب والاخمرة هى قسمة بينك و بين أمى مرغريت ، وقلنسوةً لدومينج ، وثوباً للمارى ، وكنت أود أن أرسل اليها كثيراً من أثوابى الخليعة لولا أن الوصائف هنا لايسمحن لى بذلك ، لانهن يتقاسمن ملابسى ويُقرّرن مصيرها قبل أن أخلعها

تحيتى الى أمى مرغريت ، ووالدى دومينج ، ومربيتى مارى ، وأستاذى الشيخ الجليل ، وكلبى الاميز فيديل ، وإلى جميع شويهاتى وأعنزى ، وطيورى وعصافيرى ، واعلمى ياوالدتى أننى فى أشد الحاجة الى بقائى بجانبك ، والى الرجوع الى تلك الحياة الطيبة السعيدة التى فقدتها ولا ازال أبكى عليها ، وأننى أعيش هنا كما تعيش النبتة الغريبة فى أرض غير أرضها ، ومناخ غير مناخها ، فهى صائرة الى الذبول والاضمحلال ، وأرجو أن أراكم جميعاً عندي قريباً أو أرانى عندكم والسلام

« ڤرجينى دى لاتور »

وكانوا جميعاً يصغون الى الكتاب عند تلاوته ويذرفون الدموع مدراراً حتى فرغت هيلين من قراءته ، فعجب پول أنها لم تذكر اسمه فى كتابها ، ولم ترسل اليه تحيتها ، كما أرسلتها لكل من فى الجزيرة حتى لطيورها وعصافيرها ، ولم يعلم أن الفتاة تؤجل دائما الحديث عن أهم الاشياء لديها ،

وأجلّها شأنا عندها الى آخر كتابها ، فقد لمحت هيلين بعد ذلك حاشية منفردة فى زاوية الكتاب فقرأتها فاذا هى تقول

« بلغى أخى پول تحيتى وشوقى ، وقولى له إننى قد أرسلت باسمه حقيبة صغيرة تشتمل على بضعة أنواع من البذور الاوربية التى يغرسونها هنا ويحتفلون بها احتفالا كثيراً معنونة باسمائها ، وإنى أرغب اليه أن يُعنَى عناية خاصة بزهرة البنفسج فيغرسها تحت نخلتى الجوز المسماتين باسمى واسمه ، وأن يحبها كما أحبتها ، لأنها على جمالها ورقتها حييَّةٌ خجولة ، لاتألف الا المخابئَ والمكامن ، ولا تحب أن تقع عليها عيون الناس ، إلا أن رائحتها تنم عليها أكثر مما تنم أية رائحة على زهرتها ، وأوصيه أيضاً أن يغرس الزهرة السوداء التى يسمونها هنا « زهرة الحداد » فى ظل الصخرة التى جلسنا عليها معا ليلة الوداع ، وقد سموها بهذا الاسم لانها تشتمل على نقطة صفراء فاقعة تدور بها دائرةٌ سوداء كما يدور الخمار الاسود بوجه الفتاة الحزينة فى موقف

الشكل ، وأن ينقش على تلك الصخرة كلمة « صخرة الوداع » ويحييها عنى كما يحيى جميع الامكنة والبقاع التى يعلم أنى أحبها ، وبلغيه أيضا أنى لاأزال أذكره ، وأننى لن أنسى قط أياديه البيضاء التى أسداها الىّ فيما مضى من أيام حياتى ، وأننى دائما عند ظنه بى »

فاستطير پول فرحا وسروراً ، وتناول الكيس الصغير الذى أرسلته اليه فوجد على نسيجه الرقيق الأبيض الحرفين الاولين من اسمه واسمها مطرزين بالقصب على شكل زهرتين متعانقتين ، فسر بذلك سروراً عظيما ، وكان اغتباطه بالكيس أكثر من اغتباطه بما اشتمل عليه

وقد كتبت هيلين الى ابنتها كتابا قالت لها فيه إنها وجميع أفراد الأسرة قد أصبحوا بعد فرقتها فى وحشة مخيفة لايهونها عليهم شئ من الأشياء ، وأن الموت أهون عليهم من أن يعيشوا بعيدين عنها ، منقطعين عن رؤيتها ، وإنها لاترى بأسا من رجوعها الى الجزيرة متى أرادت ذلك

وكتب اليها پول يشكر لها هديتها ، ويقول لها إنه قد أصبح الآن عالما من علماء الفلاحة ، وإنه سيقوم بغرس تلك البذور فى أماكنها المناسبة لها حسب القواعد التى يرسمها ذلك الفن ، وإنها ستراها حين عودتها زاهرة نامية ، تحييها بابتساماتها اللطيفة ، وتنشر عليها ظلالها وأفياءها ، ثم أخذ يبثها آلام نفسه ولواعجها التى قاساها من بعدها ، ويشكو لها شكاةً لم تترك دمعة فى محاجرها عند ماقرأتها الا استذرفتها

ثم أخذ بعد ذلك يهيئ الاحواض لغرس تلك البذور ويُعدّ لها عدتها من ظل وماء ، فانفق فى ذلك وقتا طويلا ، ثم غرسها ، فلم تلبث الا قليلا حتى ذبُلت وتضاءلت ، إما لانها ميتة لاحياة فيها ، أو لان التربة غير صالحة لنمائها ، أو لان الشرق شرق ، والغرب غرب ، فمحال أن يمتزجا ويختلطا ، ويشتركا فى نظام واحد ، وحياة واحدة ، فتطير بذلك وتشاءم ، وزاده حزناً وألما ماأصبح يسمعه من أفواه بعض المهاجرين

الطارئين على الجزيرة من الروايات الغريبة التى تفترق ما تفترق ثم تتفق على أن ڤرجينى موشكة أن تتزوج ، فلم يحفل بذلك فى مبدأ الأمر ، ثم حفَل واهتم ، لان أخبار السوء لايمكن أن تمرّ دون أن تترك أثرها فى النفس ، وبدأ يصدق مايسمعه ، لالانه يعتقد صدق القائلين ، بل لأنه وقع فى الخطأ الذى يقع فيه الناس دائما ، وهو اعتقاد أن الدخَان لايمكن أن ينبعث عن غير نار ، وفاتهم أن تلك النار التى يتحدثون عنها قد تكون نار الحقد والبغض المشتعلة فى الصدور ، فيكون الدخان الذى ينبعث عنها انما هو دخان المختلقَات والمفترَيات ، وكان يقرأ فيما يقرأ من الروايات أحاديث الغدر والخيانة التي يرويها الراوون عن النساء فيقول فى نفسه : ربما أفسد ذلك المجتمع الخبيث نفسها ، وحوّل حياتها الطيبة الطاهرة الى طريق غير طريقها ، فنسيت أقسامها وعهودها ، وأيمانها المحرِجةَ التى أقسمتْها بين يدىَّ ألا تستبدل بى أخا سواى ، والنفس الانسانية كما يقول

(روسو) مرآة تتراءى فيه مختلفات الصور والالوان، والمرء كما يقول (موبسّان) ابن البيئة التى يعيش فيها

فكأن استنارة ذهنه ، وسعة دائرة معارفه، واضطلاعه بشئون العالم وأحواله ،كان شقاء عليه وويلا له ، ولعله لو بقى فدْمًا جاهلا كما كان ، لايجول نظره فى أفق أوسع من الافق الذى يعيش فيه ، كان من أبعد الاشياء عن ذهنه أن يتصور أن فرجينى غادرة خائنة

وكان إذا حَزَبَه الامر ، ولجت به الوساوس والهموم ، فزِع إلىّ وألقى بين يدىّ أثقاله وأعباءه ، فأحدثه أحاديث كثيرة عن الدهر وتقلباته ، والايام وصروفها ، ومايتداوله الناس فى دنياهم من نعيم وبؤس ، وجدة وفقر ، وراحة وتعب ، وصحة ومرض ، ورجاءٍ يشرق فى ليل اليأس حتى يحيله نهارا ساطعا ، ويأسٍ يغشّى نهار الرجاء حتى يبدله ظلاما قاتما ، وخير لا يزال يطارد الشر حتى يطرده ويأخذ مكانه ، وشر لا يزال يغالب الخير حتى يغلبه ويفلج عليه، فيجد فى أحاديثى هذه ملهاة يتلهى بها حينا عن شواغله وهمومه

١٩

الطبيعة

وهنا قلت للشيخ هل لك ياسيدى أن تحدثنى قليلا من نفسك ، فانى أشعر مذ جلست اليك أني أجلس الى رجل من عظماء الرجال ليست مثل هذه الارض مما تنبت مثله فى وفور عقله ، وسعة مداركه ، واكتمال أهبته ، وكثرة تجاربه واختباراته ، ولا بد أن حادثا من حوادث الدهر العظام قد قذف به الى هذه الجزيرة النائية فعاش فيها كما أرادت المقادير أن يكون

فرفع رأسه إلى وقال نعم سأحدثك عن نفسى قليلا يابنى ، فلا أحبَّ للمرء من أن يجد الى جانبه جليساً يستطيع أن يسكب نفسه فى نفسه ، ويفضى اليه بسريرة قلبه ، ثم اعتدل فى جلسته وأنشأ يقول

إنى أسكن يابنى على بعد فرسخ ونصف من هذا

المكان على ضفة جدول صغير ممتد بجانب ذلك الجبل الذى يسمونه « الجبل الطويل » وهناك أقضى أيام حياتى وحيداً منفرداً ، لازوج لى ولا ولد ، ولا أنيس ولا عشير ، وعندى أن سعادة المرء لاتعدو إحدى حالتين ، أن يوفق الى زوج صالحة تحبه ويحبها ، وتخلص اليه ويخلص إليها ، فان أعوزه ذلك فسعادته أن يهجر العالم كله إلى معتزَل ناءٍ كهذا المعتزل يتمتع فيه بجوار نفسه وعشرتها ، وقد قضى اللهُ أن أُحرم الأولى ، فلم يبق لى بد من اختيار الثانية

والعزلة هى المرفأ الأمين الذى تلجأ اليه سفينة الحياة حين تتقاذفها الأمواج ، وتصطلح عليها هُوج الرياح ، وهى الواحة الخصبة التى يفيء اليها السَّفْرُ بعد الأين والكلال ، فيجدون فى ظلها الظليل راحتهم من سموم الصحراء ، ولوافح الرمضاء ، وهى المنزلة الاولى التى ينزلها المرء فى طريقه من الدنيا إلى الآخرة ، ليستجمّ ذهنَه ، ويجمع أمره ، ويعد عُدته للقاء الله تعالى ، لذلك كانت العزلة دائماً فى الشعوب

الشقية المضطهدة التى لا إرادة لها أمام ارادة حاكميها الظالمين ، وملوكها المستبدين ، كما كان شأن المصريين والرومان واليهود فيما مضى من التاريخ ، وكما هو شأن الهنود والصينيين والايطاليين والشعوب الشرقية اليوم

وقد يكون ذلك أحياناً فى الأمم المتمدينة المتحضرة ، فان المدنيّة شقاءً كشقاء الهمجية ، لايختلف عنه إلا فى لونه وصبغته ، فان وقوف الانسان فى وسط ذلك المزدحم الهائل بين الجواذب المختلفة ، والدوافع المتعددة ، وحيرة عقله بين مختلَف المذاهب والشيع ، والآراء والأفكار ، يحاول كل منها أن يجذبه اليه ، ويسيطر عليه ، ويستأثر به ، وهو فيما بينها كالريشة الطائرة فى مهاب الرياح لا تستقر فى قرار ، ولا تهبط فى مهبط ، مَتعبَةٌ عقلية لا قبل له باحتمالها ، ولو أنه كان أسيراً فى قوم متوحشين ، وقد شدّه آسروه الى جذع من جذوع النخل ، وأخذ كل منهم بعضو من أعضائه يجذبه اليه جذباً شديداً ليمزقوه إرْبا إرْبا ، لكان

ذلك أهون عليه من هـذه الحالة التى لايستطيع أن يتمتع فيها بهدوئه النفسى ، وسكونه الفكرى ، كما تتمتع السائمة الهائمة على وجهها فى مسارحها ومرابعها ، فلا يجد له بداً من الفرار بنفسه إلا حيث يجد نفسه ، ويظفر بكيانه ، ولا سبيل له الى وجدان نفسه والعثور بها إلا فى مثل هذه الصخرة النائية المنقطعة التى يستطيع أن يجمع فى ظلالها ما تفرق من أمره ، وتبعثر من قوته ، ويصغى فى وسط ذلك السكون والهدوء إلى صوت قلبه حين يحدثه أصدق الاحاديث وأجملها عن الخالق والمخلوق ، والحياة والموت ، والبقاء والفناء ، وطبيعة الكون وأسرار الخليقة ، فيشعر بالراحة بعد ذلك العناء الكثير ، والكد الطويل ، كالسيل المنحدر من أعالى الجبال ، لايزال يحمل فى طريقه الاقذاء والاكدار ، حتى اذا بلغ الحضيض استحال إلى بركة هادئة ساكنة ، يتلألأ فى صفحتها الصفيلة اللامعة جمالُ السماء ، وبهجة الملإ الاعلى

ولقد كنتُ أحدَ أولئك الفارّين بأنفسهم من لجب المدنيّة وضوضائها ، وضلالها وحيرتها ، وقنعت منها بذلك الكوخ البسيط الذى بنيته بيدى على ضفة ذلك الجدول الصغير ، وقد رزقنى الله أرضاً خصبة جيدة التربة ، أقضى جميع أوقاتى فى حرثها وفلحها ، وتصريف مياهها ، وتشذيب أشجارها ، لامعين لى غير قوتى ، ولا أنيس لى غير وحدتى ، فان شعرت بشئ من الملل رجعت إلى تلك الأسفار القليلة التى اخترتها لصحبتى حين نفضت يدى من جميع الأصدقاء والاصحاب لأحادث على صفحاتها أولئك الرجال العظام أصحاب المبادئ القويمة ، والعقائد الثابتة ، والآراء الناضجة ، الذين لم يكتبوا ما كتبوا ليوافوا رغبةَ الناس فى أهوائهم ومطامعهم ، ولا ليعجّبوهم من ذكائهم وفطنتهم ، ولا ليُدلوا عليهم بفصاحتهم وبلاغتهم ، ولا ليفاخروهم بقوة ابتكارهم ، وغرابة ابتداعهم ، بل ليكشفوا الغطاء برفق وهدوء عن وجه الحقيقة ، فيراها

الناس كما هى ، غير مشوّهة ولا مزخرفة ، لايبتغون على ذلك أجرا سوى أن يروا الانسانية الشقية المعذبة ناهضة من حضيض بؤسها وشقائها ، الى ذروة سعادتها وهنائها

فاذا جلستُ لقراءتها رأيتُ فى مرآتها ذلك العالم الذى فارقتُه واجتويتُه ، ورأيت شقاءه الذى يكابده ، وآلامه التى يعالجها ، دون أن يحس انه شقى أو متألم ، فأشعر بما يشعر به ذلك الذى نجا من سفينة موشكة على الغرق الى صخرة عالية فى وسط البحر ، فأشرف منها على بقايا تلك السفينة المحطمة مبعثرة على سطح الماء ، فشعر ببرد الراحة وطيب الحياة

ولقد أصبحتُ بعد أن فارقت الناس وصرتُ بمنجاة منهم ، أحنو عليهم ، وأرثى لبؤسهم وشقائهم ، واضمر لهم من العطف والحب ما لم أكن أضمره لهم من قبل ، وأتمنى لهم النجاة من شقائهم الذى يعالجونه ، وبؤسهم الذى يكابدونه ، على كثرة ما قاسيت منهم فى مُقامى بينهم من الهموم

والآلام ، والمذالّ والمهانات ، ولم يكن بيني وبينهم سوى أنني كنت أدعوهم الى الحياة الطيبة السعيدة ، حياةِ الطبيعة والفطرة ، وأنعَى عليهم ذلك التكلفَ والتعمّل في مطاعمهم ومشاربهم ، وملابسهم ومساكنهم ، وعقائدهم ومذاهبهم ، وآرائهم وأفكارهم ، وصلاتهم وعلائقهم ، وأقول لهم أيها الناس عودوا الى أحضان أمكم الطبيعة ، فهي أحنى عليكم ، وأرأف بكم ، من كل شيء في العالم ، واعلموا ان جميع ما تكابدون من الآلام والاسقام في حياتكم ، انما هو عقوبة لكم على عقوقكم لها ، وتمردكم عليها ، وكفركم بسننها وشرائعها ، فاشربوا قَراح الماء ان شربتم ، وكلوا بسيط المآكل ان أكلتم ، واقنعوا حين تلبسون بما يستر عوراتكم ، وحين تسكنون بما يجمع شملكم ، ووحدوا نظركم الى الأشياء والشؤون بقدر ماتستطيعون تتحدوا فيما بينكم ، وتهدأ عنكم نار تلك البغضاء التي تتقلبون فيها ليلكم ونهاركم ، واعلموا ان الحياة أبسط من أن تحتاج الى كل هذه الجلبة

والضوضاء ، فخذوها من أقرب وجوهها ، وألين جوانبها ، واقنعوا منها بالكفاف الذى يمسك الحوباء ، ويعين على المسير ، فانما أنتم مارُّون لامقيمون ، ومجتازون لا قاطنون ، ولا يوجد بؤس فى العالم أعظم من بؤس رجل مسافر نزَل على عين ماء ليطفئ ببردها غُلته ، ويجد فى ظلالها راحته ، ساعةً من نهار ، ثم يمضى لسبيله ، فصَدف عنها وظل يشتغل بحفر عين أخرى بجانبها ، فلم يكد يبلغ قاعها حتى كان قد نال منه الجهد ، فهلك دون مرامه ظمأً وعيّاً ، ولا يُقذفَنَّ فى رُوعكم انى أريد أن أذهب بكم إلى بغض الحياة ومَقتها ، ولا إلى تعذيب أنفسكم بالحرمان من أطايبها ولذائذها ، فالزهد عندى سخافة كالجشع ، كلاهما تكلف وتعمل لا حاجة اليه ، وكلاهما خروج عن القصد ، وضلال عن السبيل ، وانما أريد أن تترفقوا فى الطلب . ولا تُمعنوا فيه إمعانا ، فالامعان فيه والاستهتار به حرب شعواء يقيمها القوى على الضعيف ، والجشع المتكالب على القَنوع المعتدل ، يسلبه ما بيده ،

ويَحرمه القليلَ التافه الذى يتبلّغ به ، باسم جهاد الحيـاة ، وتنازع البقاء ، فـكان جزائى عندهم على هدايتهم وارشادهم ، ومحاولة استنقاذهم من يد الشقاء الذى يعالجونه ، أن سخروا بى ، واحتقرونى ، وسمونى مجنوناً ، ولم يقنعوا فى أمرى بتركى وشأني كما يُترك المجانين وشأنهم ، بل اتخذونى عدواً لهم يحاربوننى كما يحاربون الله والطبيعة ، ولا ذنب لى عندهم إلا أننى أُسمى المال شقاء ، ويسمونه سعادة ، وأُسمى الجاه مُؤونة ، ويسمونه متعة ، وأُسمى اللجـاج فى الطلب ، والتهالك فيـه ، جنونا وخبلا ، ويسمونه حكمة وحزما ، ثم لايلبثون الا قليلا حتى يروا بأعينهم كذب ظنونهم ، وخيبة آمالهم ، ويسقطوا فى الهوة التى كنت أقدر لهم السقوط فيها . فلا يكون أثر ذلك فى نفوسهم أن يؤمنوا بسنة الله والطبيعة ، ويذعنوا لأحكامه وأحكامها ، ويعودوا باللائمـة على أنفسهم فيما كان منهم ، كما يتوقع المتوقِّع أن يكون ، بل ينقمون على الأرض والسماء ، والخالق والمخـلوق ، والدنيا

والآخرة ، ويثيرون الثائرة على الشرائع الأرضية والسماوية، والنُّظم الطبيعية والوضعية ، وعلىَّ أنا أيضاً ، لاننى لم أهوِ معهم فى الهوة التى هووا فيها ، كأننى أنا الذى أشقيتهم وابتليتهم ، وأوردتهم هذا المورد الوبيل ، وما أشقاهم إلا أنفسُهم لو كانوا يعلمون

أما الآن فقد نجوت من هذا كله والحمد لله ، وأرحت نفسى الى الأبد من رؤية تلك المناظر المؤلمة المِضَّة ، مناظر المتهافتين ليلهم ونهارهم فى تلك الحفائر الجوفاء التى حفرتها فى طريقهم أيدى المطامع والشهوات . وانقطع عن أذنى ذلك الدوىُّ الهائل الذى كان يزعجنى ويقلقنى ، وأصبحت فى وحدتى هذه أتمتع بالهواء طلقاً غير مكدر ، والنور ساطعاً غير منغص ، والجمال خالصاً غير مشوه ، أتبسَّط فى انحاء نفسى حيث أشاء ومتى أشاء ، وأناجى الله والطبيعية وجها لوجه ، لايحول بينى وبينهما حائل ، وأفكر على الطريقة التى أريدها ، لا التى يريدها الناس ، وأنسج ثوبى على مقدار

جسمى ، لاعلى مقدار جسوم الآخرين ، وأشرف من قة وحدتى وعزلتى على ذلك العالم الذى فارقتُه واجتويته فأعجب لتلك الهموم والآلام التى يعالجها لغير علة ولاسبب ، ولتلك المعركة الهائلة التى يشنها بعض أفراده على بعض على غير طائل سوى أن يهلك أحدهم فى سبيل الآخر ، ثم يهلك الآخر فى سبيل آخر ، وهكذا تمتد ساسلة الهلاك فيهم الى مالانهاية لها ، كقطع الامواج التى تتواثب على الصخور المعترضة فى مجراها فتتكسر عليها واحدة بعد أخرى ، ثم تتلاشى كأن لم تكن ، فأحمد الله على نجاتى منهم ، وخلاصى من أيديهم ، وعلى أننى استطعت أن أعيش على حساب نفسى ، لاعلى حساب الضعفاء والمساكين ، وأن أتناول لقمتى مغموسة بدمى لابدماء الضحايا والهالكى ، وأن أعود بما فضل عن حاجتى على البؤساء والمساكين ، والساقطين فى هُوَى اليأس ، والمنقطعين عن قافلة الحياة ، ولو أن جميع لذائذ الدنيا مأكلا ومشرباً ، وملبساً ومسكناً ، وضعت لى

فى كفة ، ثم وضعت لى فى الكفة الاخرى لذتى فى هداية تائهٍ ضل به طريقه ، أو معونة يائس انقطع به أمله ، لرجحت عليها

وهكذا أقضى حياتى فى تلك الجنة الصغيرة ، على ضفة ذلك النهر الصغير ، وبين يدىْ ذلك الخِضَمِّ العظيمِ ، متمتعاً بما شئت من جمال الدنيا وبهجتها ، ورغد العيش ونعيمه ، ومناظر الطبيعة ومشاهدها ، فالسماء فوق تتلألأ بنجومها وكواكبها ، والبحر أمامى يعج بأمواجه وأثباجه ، والارض بين يدىَّ تختال فى أثوابهـا وأبرادها ، والاصوات المنبعثة من البحر الزاخر ، والجدول المتسلسل ، والشلال المتدفق ، والريح العاصفة ، والأشجار المترنحة ، والطيور الصادحة ، فرقة موسيقية مختلفة الآلات والنغمات ، تسمعنى ما لم أسمعه يوماً من أيام حياتى فى أكبر معهد غنائى ، من أكبر فرقة موسيقية

فاذا جلستُ أمام كوخى على تلك الصخرة العالية التى

اعتدت أن أجلس عليها رأيت النخل الباسق مصطفاً بعضه وراء بعض كأنه السطور فى الكتاب ، ورأيت رءوسه العالية المتشابكة كأنها غابة ممتدة بين السماء والأرض ، ورأيت الجدول المتسلسل وهو يجرى فى خلال الخمائل الملتفة ، جريان القمر السارى فى أعماق السحب المتكاثفة ، فلا يرى منه الرائى الا بوارق خاطفة تلمع من حين إلى حين ، وألقى نظرى تارة على الروض الجميل الذى غرسته بيدى فأرى صنوف أشجاره ، وألوان أزهاره ، وأنواع كرومه وأعنابه ، فأراه فى سكون الريح وهدوئها ، معبداً قد لبس الجلالَ والوقار ، وانتشرت فى جنباته أشخاص الراكعين والساجدين ، وفى هبوبها وانبعاثها ، مرقصاً تترنح فيه القذودُ ، وتعتنق القامات ، وتتقابل الحركات والسكنات ، ثم أنظر الى السيل المتدفق من أعالى الجبال فأرى تلك المعركة الهائلة التى تجرى بينه وبين الصخور الناتئة فى طريقه ، يهاجمها فتدفعه ، ويثب عليها فتمزقه ، فتتطاير أجزاؤه فى جو السماء

كأنها شظايا ألواح البلور ، فيشتد غيظه وحنقه ، وإرغاؤه وإزباده ، ويحاول ان يثأر لنفسه منهـا ، فلا ينال آخراً ، أكثر مما نال أولا ، وهى جامدة فى مكانها ، لاتحرك ساكناً ، ولا تمد يداً ، فلا يجد له بداً من الفرار من وجهها ، شأنَ الطيش والنزق ، بين يدى الرزانة والحلم ، فينحدر عنها الى السهل متغنغلا فى أعماق الخمائل والادغال ، كانما يتوارى حياء وخجلا ، ثم لايلبث أن يستحيل بعد ذلك الى مرآة صافية تتراءى فيهـا صورُ النخيل والاشجار ، وظلالُ القِمم والهضاب ، كأنما قد خطها رسام ماهر ، بريشة رقيقة ، فى صحيفة ناصعة ، وأعظم ما أعجب له من تلك المنـاظر منظرُ الطيور الغريبة حين تفد فى أواخر فصـل الصيف أسراباً أسرابا من أقاصى البلاد مجتازة ذلك الخِضمَّ العظيم إلى حيث تتلمّس رزقهـا الذى أعوَزها فى أرضها ، فتقع على ذوائب الاشجار ، وضفاف الانهار ، وتحلق فوق الجداول

والغُدُر ، شادية مترنمة ، مرفرفة بأجنحتها الجميلة ذات الألوان اللامعة المتلألئة ، وكأنما قد خلعت من نفسها على الجزيرة بُردًا مفوَّفًا ترفُّ حواشيه وأهدابه ، وترجُف متونه وأثناؤه ، وتموج خيوطه بعضها فى بعض ، فأجد من الأنس بها ، والغبطة بعشرتها ، مايملأ قلبى بهجة وحبوراً ، إلا أنها لاتمكث أكثر من شهر أو شهرين ثم تعود أدراجها ، فأجد من الوحشة لفراقها مايجد العشير لفراق عشيره

وقد أجلس أحيانا على شاطئ البحيرة لأتفكه بمنظر القرود السوداء وهى تثب من شجرة إلى شجرة ، ومن غصن إلى غصن ، وقد احتضنت أولادها إلى صدرها ، أو تركتها معلقة بأذنابها ، وقد يكون بين الشجرة والشجرة ، والنخلة والنخلة ، جدول واسع ، أو نهر متدفق ، فيكون لها فى غدوها ورواحها ، ووثبها وقفزها ، وضحكها مرة وغضبها أخرى ، وترفقها الغريبِ فى طلب عيشها ،

وتحصيل رزقها ، منظرٌ بديع رائق ، لاتكدره حبائلُ منصوبة ، ولاتزعجه قذائفُ منطلقة ، وأستطيع أن أقول لك يابنيّ إنني وقد عاشرتُ الوحوش الضارية ، والذئاب المفترسة ، والنمور الكاسرة ، والقرود الشرسة ، وخبرت أخلاقها وطباعها ، ومنازعها ومشاربها ، ورأيت أنها لاتفترس إلا إذا جاعت ، ولاتَشرَس إلا إذا هِيجت ، ولا تطمع فى أكثر من كفاف عيشها ، وعلالة حياتها ، أصبحت أعتقد أن الانسان أضرى منها وأشرس ، وأنه مخدوع أو خادع فى تفضيل نفسه عليها

ولم يزل هذا شأنى حتى نزلتْ بالجزيرة تلك الاسرةُ الصالحة الكريمة ، فكانت أيامى معها غُرّة أيام حياتى ، وكوكبَ سمائها الساطع ، فوا أسفى عليها ، ووافجيعتى بالحياة من بعدها

٢٠
الحديث

وحسبك الآن يابنيّ ماعرفتَ من شأني ، فلأَعُدْ بك إلى شأن ذلك الولد المسكين ، فقد حدثتك عنه أنه كان يختلف إليّ كثيراً بعد سفر فرجينى ليطلب عندى عزاءه وسلواه ، وراحة نفسه من بلابلها ووساوسها

فوفد إليّ ذات يوم ، وكنت جالساً تحت شجرة قصيرة كانت قد غرستْها فرجينى فيما غرستْ من الاشجار الكثيرة التى كانت تحمل معها بذورَها حيثما ذهبت ، وأينما حلت ، قائلة لعل الله يمنحها النماء والنَّضرة فيهتدى بها ضال ، أويفىء اليها حائر ، أويتعلل بها ظامئ ، فجلس بجانبى وأطرق إطراقة طويلة ثم رفع رأسه وقال :

أنا حزين جدًّا ياوالدى ، ويخيل إلى أن ڤرچينى قد نسيتنى ، وأن يدى قد أصبحت صفراً منها الى الابد ، فلقد مرَّ على سفرها ثلاثة أعوام لم ترسل إلى فيها إلا كتاباً واحداً منذ ثمانية شهور ، ثم انقطعت رسائلها بعد ذلك ، ولا أعلم ماذا دهاها ، أو ماذا دهانى عندها ، ولقد حدثتنى نفسى اليوم أن أسافر إلى فرنسا وأسعى إلى مقابلة ملكها لأتولى خدمته ، وأتوصل من طريقه إلى جمع ثروة طائلة أستطيع أن أتقدم بها إلى جدة ڤرچينى فلا ترى مانعاً وقد جمعتُ فى يدى بين حاشيتى المجد والشرف أن تزوجنى من حفيدتها

قلت ألم تحدثنى ياولدى قبل اليوم أنك لاتتصل بنسب شريف أو أنك لاتعرف لك أبا ؟

قال وأية علاقة للابوة والبنوة بما نحن فيه ، إننى لا أريد أن أتقدم إلى الملك بحسبى ونسبى ، بل بكفايتى وجدارتى ، وخدمتى التى أقدمها لوطنى ، وهل يوجد

فى الناس من يأخذنى بذنب لستُ صاحبه ولا صاحب الرأى فيه ، بل لم أكن حاضره ولا شاهده ، لانه وقع قبل وجودى فى هذا العالم ، على أننى لا أَعدُّ ما كان ذنباً ، لان والدتى أطهر وأشرف من أن تقترف الجرائم والذنوب

قلت إنك تحدثنى بلسان الحقيقة ، أما لسان الاصطلاح فهو أن من كان مثلك مغمور النسب أو مقطوعه فلا سبيل له إلى أن يلمس بأطراف قدمه أدنى درجة من درجات المجد ، بل لاسبيل له ان يأخذ لنفسه مكاناً مطمئناً بين الطبقات العالية الرفيعة التى يسمونها طبقات الاشراف والنبلاء

قال إنك قد قلت لى قبل اليوم كما قرأتُ فى كثير من الكتب أن عظمة فرنسا إنما حُملت على عواتق أولئك الرجال المغمورين الذين لا يَمُتُّون إلى الناس بحسب ولا نسب ، ولا شأن لهم فى حياتهم سوى أنهم قد أدوا لوطنهم خدما جليلة كانت هى وسيلتهم الوحيدة إلى بلوغ ذروة

المجد التى بلغوها ، فهل كنت تخدعنى فيما قلت لى وكان يخدعنى أولئك الكاتبون ؟

قلت لم أخدعك يا بنى ولا خدعوك ، وإنما كنت أحدثك عن الماضى ، أما اليوم فالملوك متكبرون متغطرسون ، لا يؤثِرُون مزية من المزايا على مزية الحسب والنسب ، ولا يعرفون مفخرة يفخرون بها سوى أنهم من سلالة أولئك الملوك الماجدين ، فهم لا يُقرّبون ولا يُدنون إلا من أمسك بطرف سلسلة يمسك بطرفها الآخر أمير من الأمراء ، أو قائد من القواد ، أو نبيل من النبلاء ، هؤلاء هم أعوانهم وأنصارهم ، ووزراؤهم وقوادهم ، وولاتهم وعمالهم ، وجلساؤهم وسمارهم ، ومواضع ثقتهم ، وأمناء أسرارهم ، أحاطوا بهم إحاطة السحب الكثيفة بالكواكب النيرة ، فلا يأذنون لشعاع من أشعتهم أن يتصل بأحد من الناس سواهم ، فكانت نتيجة ذلك أن ماتت المواهب والمزايا ، وقُبرت العزائم والهمم ، وأصبح كتاب الأمة

وشعراؤها ، وحكماؤها وعلماؤها ، ورجال الفنون فيها ، أضعف الناس شأناً ، وأهونهم خطراً ، وأدناهم منزلة فى ترتيب درجات الانسانية ، لأنهم قد حُرموا الاتصالَ بتلك الشمس المشرقة التى تمدهم بالقوة والحياة ، وتبعث فيهم روح النشاط والعمل

قال وماذا علىَّ إن اتصلت بنبيل من أولئك النبلاء وعشت تحت كنفه لأصل من طريقه إلى الغاية التى أريدها؟

قلت إنك لاتستطيع أن تنال الحظوة عنده الااذا نزلت على حكم أهوائه وشهواته ، أى أن تجعل نفسك جسراً يمشى عليه إليها ، وذلك ماتأباه عليك عزة نفسك وأنفتها

قال يخيل إلى أنى ان قمت بواجبى لأمتى ووطنى ، وأديت للانسانية العامة خدمة عظمى يرن صداها فى جميع الآفاق ، لاأعدم أن أجد بين الاشراف المحسنين من يتولانى بحمايته ورعايته ، ويأخذ بضَبعىّ إلى المنزلة التى أستحقها

قلت استمعْ منى كلمة أقولها لك يابنى ، لقد كان اليونان والرومان والمصريون حتى فى أدوار سقوطهم وانحطاطهم يبجلون الفضيلة ويعظمون شأنها ، ويقدسون المواهب والمزايا أعظم تقديس ، ويعرفون لأصحابها أقدارهم ومنازلهم ، ويبسطون عليهم جناح مودتهم ورحمتهم ، ولعلك قرأت من ذلك شيئاً فى كتب التاريخ ، أما اليوم فقد انقضى ذلك كله ، وأصبح الشرف محصورا بين الجاه والمال ، فلا يظفر به إلا ذو منصب عال ، أو مال كثير ، وقد يعطف بعض أولئك الذين يسمونهم النبلاء على بعض أصحاب المواهب والمزايا ، كالشعراء والكتاب ، والموسيقيين والمصورين ، لا لأنهم يحترمونهم ويجلونهم ، أو يمجدون ذكاءهم ونبوغهم ، بل ليزينوا بهم مجالسهم كما يزينونها بالتحف والذخائر ، وليمتعوا أنفسهم بمنظر ذلتهم وخضوعهم بين أيديهم ، كما يمتعونها بمنظر مضحكيهم ومُجّانهم ، وما أحسب أنك ترضى لنفسك بهذه المنزلة ،

أوأن يكون منتهى آمالك فى حياتك أن تصبح خليعاً ماجنا

قال ان فاتنى أن أعيش فى كنف رجل شريف ، فلن يفوتنى أن أعيش فى كنف حزب من الأحزاب أو جماعة من الجماعات أخدمها وأخلص لها فأنال الحظوة عندها

قلت إنك تستطيع أن تفعل ذلك ، ولكن على أن تضرب بينك وبين ضميرك سداً إلى الأبد ، فالهيئات كالأفراد ، لايعنيها إلا مصلحتها وفائدتها ، وكثيراً ماتكون مصلحتها فى جانب ، والحق فى جانب آخر ، بل ذلك هو الاعم الأغلب فى أمرها ، فإما جاريتَها فهلكت ، أو نابذتَها فاستهدفت لغضبها ومقتها

قال الموت أهون على من أن أخطو خطوة واحدة لايرضى بها ضميرى

قلت إذن ودع جميع آمالك وأمانيك وداعا دائماً لالقاء بينكما من بعده

قال واشقا آه ! لقد أُخذتْ علىّ جميع السبل ، وسُدت

جميع المسالك ، ويخيل إلى أننى سأقضى بقية أيام حياتى فى ظلمة داجية لا ينفذ اليها شعاع من أشعة الرحمة ، ولا يلمع فيهـا بارق من بوارق الاحسان ، وأنْ قد حيل بينى وبين ثِرچينى إلى الأبد

قلت إنك واهم يابنى ، فما أنت بشقى كما تظن ، وما الشقاء الا تلك العظمة التى تتطلبها وتسعى إليها ، إنك تعيش من حريتك واستقلالك ، وهدوئك وسكونك ، وطهارة ضميرك ، وصفاء سريرتك ، فى سعادة لايتمتع بها متمتعٌ على ظهر الأرض ، فما حاجتك إلى تلك العظمة التي لاسبيل لك الى بلوغها الا اذا مشيت إليها على جسر من الكذب والرياء ، والملق والدهان ، والمواربة والمداجاة ، والظلم والاثم ، ونصبت نفسك ليلك ونهارك لمحاربة الدسائس بالدسائس ، والدنايا بالدنايا ، والاكاذيب بالاكاذيب ، وملأت فراغ قلبك حقداً ومَوْجدة على الذين يسيئون إليك ، أو يجترئون عليك ، وكنت فى آن واحد أذل الناس لمن هم فوقك ، وأقساهم

على من هم دونك ، ثم لاتحصل بعد ذلك كله على طائل سوى أن تَطعَم لقمة يَطعَمها جميع الناس ، وتستر سوأة لايوجد فى الناس من لايسترها ، وما أحسب أن قِرچينى ترضى لك ولا لنفسها أن تكون وسيلتُك اليها هذه الوسيلةَ الدنيئة الحقيرة ، وهى الفتاة الشريفة الفاضلة التى لها طهارة المَلَك فى سمائه ، وصفاءُ الكوكب فى أفقه ، واعلم يابنى أن الفقير يعيش من دنياه فى أرض شائكة قد ألفها واعتادها ، فهو لايتألم لوخزاتها ولدغاتها ، ولكنه اذاوَجد يوماً من الأيام بين هذه الاشواك وردة ناضرة طار بها فرحاً وسروراً ، وأن الغنىّ يعيش منها فى روضة مملوءة بالورود والأزهار قد سئمها وبَرِم بها ، فهو لا يشعر بجمالها ، ولا يتلذذ بطيب رائحتها ، ولكنه اذا عثر فى طريقه بشوكة تألم لها ألما شديداً لايشعر بمثله سواه ، وخير للمرء أن يعيش فقيراً مؤملا كل شىء ، من أن يعيش غنياً خائفاً من كل شىء

قال إنما أريد المجد الأدبىّ ، لاالمجد المالىّ

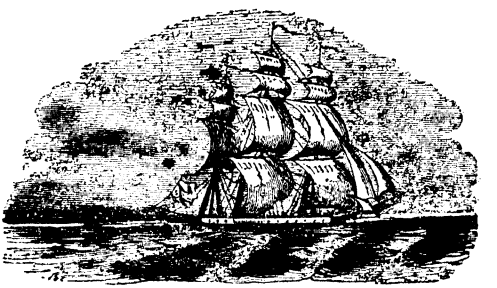
قلت نَعم إن المجد الأدبي مجد عظيم وشريف ، ولكنه لايصل بك الى الغاية التى تريدها ، إن الأدباء والحكماء ، والمصلحين والمفكرين ، هم عظماء هذا العالم وساداته ، وهم الكواكب النيرة التى تطلع فى سمائه الداجية المدلهمّة فتنير أرجاءها ، وتبدد ظلماتها ، وهم الاشعة الباهرة التى تنفذ إلى أعماق القلوب المظلمة القاتمة فتذيب جهالاتها وضلالاتها ، وتطير بأوهامها وأحلامها ، وهم المنائر العالية التى يهتدى بها الحائر ، ويستنير بها الضال ، ويعرف بها المدلج السارى أى شعب من الشعاب يسلك ، وأية غاية من الغايات يريد ، وهم الأطباء الماهرون الذين يتولون القلوب الكسيرة اليائسة فيعالجون همومها وآلامها ، ويملأون فضاءها رجاء وأملا ، إلا أن سبيلهم إلى ذلك من أوعر السبل وأخشنها ، لانهم أنصار الخير ، وللشر أنصار أشد منهم قوة ، وأكثر عدة وعدداً ، وهم دائماً هدف لغضبِ الملوك ، لانهم يثيرون ثائرة الشعوب عليهم ، وغضبِ

النبلاء ، لأنهم يحتقرون نُبلهم ، ويزدرون مجدهم وعظمتهم ، وغضبِ الكهنة ، لأنهم يَنعَون عليهم رياءهم وكذبهم ، وغضبِ العامة لانهم يصادرون أهواءهم وشهواتهم ، أى أن العالم كله حرب عليهم من أدناه إلى أقصاه ، وقلما تنتهى حياتهم إلا بما انتهت به حياة سقرط الحكيم ، وهومير الشاعر ، وأفلاطون الفيلسوف ، وفيثاغورس الرحيم ، من قتل ، أو صلب ، أو إلقاء فى السجن ، أو تشريد فى الأرض ، ولا ذنب لهم إلا أنهم أحبوا البشر وعطفوا عليه ، وتألموا لألمه ، وبكوا لبكائه ، فنقم البشرُ منهم هذه العاطفةَ الطيبة الكريمة ، وانتقم لنفسه منهم بازهاق أرواحهم ، أو تعذيب أجسامهم ، أو تقطيع أوصالهم ، ولم يقنع فى أمرهم بذلك حتى شوه وجه تاريخهم ، وسود صفحاته بما شاء من الوصمات والعيوب ، ولم تستطع شمس الحقيقة أن تبدد تلك الظامات المحيطة بهم وبتاريخ حياتهم إلا بعد عدة قرون وأجيال

قال لولا فرجينى ما أسفت على شىء فى الحياة ، ولا بكيت على فائت منها

قلت إن ڤرجينى باقية على عهـدها لم تتغير ، فاحذر أن تخسرها من حيث تريد أن تكسبها ، واعلم أنها ماقطعت رسائلها عنك إلا لأنها عازمة على الرجوع فى عهد قريب ، فانتظر رجوعها بعد قليل من الأيام ، وأعدّ نفسك لحياة مستقبلة سعيدة يستغفر لك الدهر فيهـا عن جميع سيئاته اليك ، فأضاءت حول ثغره ابتسامة لم تضئه من عهد بعيد ، وقال أأنت على ثقة مما تقول ؟ قلت نعم ، فـكأنما قد نزل عليه بهذه الـكلمة وحى من السماء ، فما أصبح الصباح حتى رأيته مشمراً عن ساعديه يجول فى أكناف « حديقة ڤرجينى » يشذّب أشجارها ، ويشق أنهـارها ، ويحول مياهها ، ويسقى ماذبل من أغراسها ، وقد لبس بُرداً قشيباً من الجد والنشاط لاعهد له بمثله منذ أعوام ثلاثة

٢١
السفينة



السفينة « سان جيران »

وفى عصر يوم ٢٤ ديسمبر سنة ١٧٤٤ رأى پول العلَمَ الأبيض يخفق على قِمة جبل الاستكشاف ، فعلم أن سفينة قادمةٌ إلى الجزيرة ، فطمع أن تكون السفينةَ التى تحمل فرجينى ، فانحدر إلى شاطىء البحر فيمن انحدر اليه من سكان الجزيرة ليتعرف شأنها ، فعرف أن دليل المرفأ قد ركب زورقه إليها منذ ساعات ، وأنه لم يعد حتى الساعة ، فجلس فى انتظاره

حتى عاد وحده ، فأخبر أن السفينة اسمها « سان چيران » وربانها اسمه المسيو « اوبن » وأن الريح لاتساعدها على دخول المرفأ الليلة ، ولا يمكنها الوصول اليه إلا فى الغد ، وكان يحمل فى يده عدة رسائل لبعض سكان الجزيرة ، بعضها آت من فرنسا ، وبعضها مرسل من ركاب السفينة أنفسهم ، فسمع بول فيما سمع من الاسماء اسم مدام دى لاتور « هيلين » فاختطف الرسالة من يد الرجل اختطافاً ، وقرأ عنوانها فاذا هو بخط فِرچينى ، فطار بها فرحاً وسروراً ، وأخذ يعدو إلى المزرعة عدوَ الظليم ، فرأى على البعد أفراد الاسرة واقفين على رأس هضبة عالية ينتظرونه ، فرفع يده بالرسالة وصار يلوح بها فى الجو كأنما يحمل راية بيضاء ، حتى بلغ مكانهم ، فقدم الرسالة الى هيلين ففضت غلافها وأمرَّتْ عليها نظرَها فعلمت ان ابنتها قادمة على هذه السفينة نفسها ، وأن السبب فى عودتها من فرنسا أن عمتها حاولت كثيراً أن تغير من طباعها وأخلاقها ، وتذهب بها فى حياتها

مذهباً غير مذهبها الاول ، فعجزت عن ذلك ، وأنها عرضت عليها أن تزوجها من عظيم من عظماء البلاط فرفضت ، فنقمت عليها نقمة عظمى ، وأصبحت تحتقرها وتزدريها ، وتنظر اليها بالعين التى تنظر بها إلى فتاة مخبولة العقل ، فاسدة الذهن ، أسيرة الأوهام والأحلام ، ثم ما لبثت أن حرمتها من ميراثها ، وسلبتها كل ما كانت تُسبغه عليها من النعم ، ولم يبق إلا أن تطردها من منزلها طرداً ، فلم تجد بدًّا من الرجوع . فركبت أول سفينة علمت أنها ذاهبة إلى أفريقيا ، ثم ختمت رسالتها بقولها : إننى أكتب لك هذه الرسالة وأنا على ظهر السفينة « سان چيران » وبيننا وبين الشاطئ أربعة فراسخ ، ولا نستطيع الدخول الى المرفأ إلا فى الغد كما أخبرنا بذلك الدليل ، وفى الغد نلتقى إن شاء الله تعالى

وما انتهوا من قراءة الرسالة حتى استطيروا فرحاً وسروراً ، وأخذ الزنجيان يرقصان ويقفزان ، ويهتفان

بصوت عال : قدعادت ڤرجينى ! قد عادت ڤرجينى ! وكان أول ما مر بخاطر پول فى هـذه الساعة أن يذهب إلىّ فى كوخى ، ويبشرنى برجوع ڤرجينى ، ويشكر لى نبوءتى التى تنبأت له بها فى أمرها ، وكانت قد مضت هَدْأة من



« پول يحمل رسالة فرجينى ويلوح بها فى الهواء »

الليل ، فاستأذن أمه فى ذلك فأذنته ، فمشى ومشى أمامه دومينج يحمل مشعلا كبيراً حتى وصل إلىّ بعد ساعتين ، وكنت قد أويت الى مضجعى ، فأيقظنى من نومى وألقى الىّ

بيشراه ، فلم يكن سروري بهـا بأقل من سروره ، وقال هيا بنا نذهب الى الشـاطئ لننتظر ڤرچيني فان السفينة تصل فى الصباح

فقمت الى ثيابى فأسبلتها علىّ وذهبت معه ، وكانت الليلة حالكة مدلهمةً قد احتجبت كواكبها وراء قطع الغمام الكثيفة الآخذ بعضها بأعناق بعض كأنها القافلة السائرة فى الصحراء ، فشينا لانهتدى بشىء سوى غريزتنا التى تقود خطواتنا دائماً فى مفاوز الأرض ومجاهلها ، وكنا نسمع من حين إلى حين فرقعة هائلة آتية من ناحية البحر تشبه دمدمة الرعد وليست بها فلا نفهم منها شيئاً

فانا لسائرون إذ لمحنا زنجياً ضخم الجثـة يمر بجانبنا فاستوقفته وسألته من أين أقبـل ، فقال انى مرسل من شاطئ جزيرة الذهب الى الحاكم لابلغه أن سفينةً قد ألقى بها التيار الى ما وراء جزيرة العنبر تطلق مدافعها من حين إلى حين ، أى أنها فى خطر ، وأنهـا فى حاجة إلى المعونة ،

فسألته هل يعرف اسمها ، فأجاب أن لا ،وانطلق لسبيله ، فالتفتُّ إلى پول وقلت له أخاف أن تكون سفينةَ « سان چيران » وخير لنا أن ننحدر إلى الشاطىء المقابل لجزيرة الذهب لنقف على الحقيقة ، فمشى معى صامتاً لايقول شيئاً حتى أشرفنا بعد قطع ثلاث مراحل على ذلك الشاطىء ، وكانت الطلقات قد انقطعت ، فراعنى سكوتها أكثر مما راعنى دويها ، ثم ظهر القمر فى كبد السماء محاطا بثلاث دوائر سوداء ، كأنه متمنطق بنطاق الحداد ، فرأينا على نوره الضعيف الباهت منظر البحر وهو ثائر مهتاج تموج ظلماته بعضها فى بعض ، وترتطم أمواجه بصخور الشاطئ وهضابه ، فينبعث لها صوت أجش كأنه أنين الثكلى ، أو حشرجة المحتضر ، وقد يتطاير منها أحياناً شرر لامع كذلك الشرر الذى يتطاير من أجنحة الحباحب ، ورأينا الصيادين مُكبِّين على زوارقهم ينقلونها من الماء إلى اليبس ويطرحونها فوق الرمال خوفاً عليها من الهلاك ، ولمحنا على مقربة منا

بيشراه ، فلم يكن سروري بهـا بأقل من سروره ، وقال هيا بنا نذهب الى الشـاطئ لننتظر ڤرچيني فان السفينة تصل فى الصباح

فقمت الى ثيابى فأسبلتها علىّ وذهبت معه ، وكانت الليلة حالكة مدلهمّة قد احتجبت كواكبها وراء قطع الغمام الكثيفة الآخذ بعضها بأعناق بعض كأنها القافلة السائرة فى الصحراء ، فمشينا لانهتدى بشيء سوى غريزتنا التى تقود خطواتنا دائما فى مفاوز الأرض ومجاهلها ، وكنا نسمع من حين إلى حين فرقعة هائلة آتية من ناحية البحر تشبه دمدمة الرعد وليست بها فلا نفهم منها شيئاً

فانا لسائرون إذ لمحنا زنجياً ضخم الجثـة يمر بجانبنا فاستوقفته وسألته من أين أقبـل ، فقال انى مرسل من شاطئ جزيرة الذهب الى الحاكم لابلغه أن سفينةً قد ألقى بها التيار الى ما وراء جزيرة العنبر تطلق مدافعها من حين إلى حين ، أى أنها فى خطر ، وأنهـا فى حاجة إلى المعونة ،

فسألته هل يعرف اسمها ، فأجاب أن لا ،وانطلق لسبيله ، فالتفتُّ إلى پول وقلت له أخاف أن تكون سفينةَ « سان چيران » وخير لنا أن ننحدر إلى الشاطىء المقابل لجزيرة الذهب لنقف على الحقيقة ، فمشى معى صامتاً لايقول شيئاً حتى أشرفنا بعد قطع ثلاث مراحل على ذلك الشاطىء ، وكانت الطلقات قد انقطعت ، فراعنى سكوتها أكثر مما راعنى دويها ، ثم ظهر القمر فى كبد السماء محاطا بثلاث دوائر سوداء ، كأنه متمنطق بنطاق الحداد ، فرأينا على نوره الضعيف الباهت منظر البحر وهو ثائر مهتاج تموج ظلماته بعضها فى بعض ، وترتطم أمواجه بصخور الشاطئ وهضابه ، فينبعث لها صوت أجش كأنه أنين الثكلى ، أو حشرجة المحتضر ، وقد يتطاير منها أحياناً شرر لامع كذلك الشرر الذى يتطاير من أجنحة الحباحب ، ورأينا الصيادين مُكبِّين على زوارقهم ينقلونها من الماء إلى اليبس ويطرحونها فوق الرمال خوفاً عليها من الهلاك ، ولمحنا على مقربة منا

جماعة من الناس مجتمعين حول نار عظيمة يستدفئون بها ، فقصدنا اليهم ، وجلسنا على مقربة منهم ، وسمعناهم يتحدثون أن السفينة قد جار بها التيار عن طريقها ، ودفعها إلى شاطىء جزيرة العنبر حيث الخطر عظيم لا حيلة فيه ، وأنها إن لم تبادر بدخول المضيق الذى بين جزيرة العنبر وجزيرة « سان لوى » فمصيرها الهلاك مامن ذلك بد ، وكان پول يسمع هذا كله وهو صامت مطرق كأنه لا يفهم منه شيئاً

ولم نزل هذا شأننا حتى بدأتْ حاشية الظلام ترق عن بياض الفجر فتلامع بعض أشعته من خلالها كما يلمع الماء من خلال الطحلب (١) ، فحاولنا أن نرى سطح البحر فلم نستطع ، لأن الضباب كان كثيفاً جداً ، كأنما قد بَنا دُوَين السماء سماءً أخرى لا يرى الرائى من خلالها غير بعض القمم العالية تطفو وترسب كما يطفو الغريق ويرسب فى عُباب

(١) الطحلب حضرة تعلو الماء المزمن

الماء ، ثم استطعنا بعد حين أن نرى على سطح البحر شيئاً أشبه بغمامة كثيفة ، فتأملناه ، فاذا هو جزيرة العنبر التى زعموا أن السفينة محتبسة بشاطئها ، إلا اننا لم نر السفينة بحال من الأحوال

وهنا حضر المسيو لابوردونيه حاكم الجزيرة راكباً جواده ووراءه فصيلة من الجند تحمل بنادقها على عواتقها ، فأمرها أن تصطف صفاً واحداً ففعلت ، فأمرها أن تطلق بنادقها فأطلقتها ، فلم نلبث أن رأينا نوراً لمع على سطح البحر ، وأعقبه دوىٌّ مدفع فعلمنا أن السفينة غير بعيدة عنا ، فتقدمنا جميعاً نحو الشاطئ لنتحقق من رؤيتها ، فاستطعنا بعد لأيٍ أن نرى شبحها الغارق فى عباب الضباب ، وأن نرى سواريها الذاهبة فى كبدالسماء ، وأن نسمع رغم جرجرة الآذِيِّ [1] وزمجرته صوتَ ربانها وهو يصرخ صرخاته العظمى التى يستنهض بها همم رجاله ، فأمر الحاكم باعداد

(١) الجرجرة فى الاصل ترديد البعير صوته فى حنجرته . والاذى الموج

زورق لنجدتها ، وباشعال النار على طول الشاطئ لترى على ضوئها الزورقَ المعدة لانقاذها ، فما رأت النار حتى أخذت تطلق مدافعها تباعا ، واستمر التخاطب بهـذه اللغة النارية بينها وبين الشاطئ ساعة طويلة

وإنا لكذلك اذ دَلف إلى الحاكم شيخ زنجىٌّ هرم يدِب على عصاه وقال له اننا نسمع ياسيدى منذ الليلة زمجرة هائلة تنحدر الينا من قمة الجبل ، ونرى أوراق الأشجار تهتز وتضطرب دون أن تهب عليهـا ريح ، ونرى طيور البحر هاربة إلى البر أسراباً أسراباً دون أن يزعجها مزعج ، أو يطاردها مطارد ، فهى العاصفة ما فى ذلك ريب ولاشك ، فأنقذوا السفينة قبل هبوبها ، فان لم تفعلوا فانفضوا أيديكم منها الى الأبد

فاصفر وجه الحاكم وشعر برعدة شديدة فى جسمه إلا انه تجلد واستمسك ، وصاح : سأنقذها ولو كان فى ذلك حياتى

ولقد صدق الزنجىّ فيما قال ، فقد لبس الجو حلة غريبة لا عهد له بمثلها من قبل ، وكأنما انبعثت فى جميع أوصاله رعشة شديدة كتلك الرعشة التى تنبعث فى جسم المحموم ، وأقبلت طيور البحر من كل صوب هاربة إلى البر كأن مطارداً يطاردها ويشتد على أثرها ، وتراءت قطع السحاب سوداءَ قاتمةً تلمع فى خلالها نقط نارية حمراء كما يلمع بصيص النار من خلال الرماد ، وامتلأ الجو بفحيح الأفاعى ، وطنين البعوض ، وزمجرة الوحوش

٢٢
العاصفة

وفى نحو الساعة السابعة سمعنا قعقعة عظمى قد انبعثت من جميع جهات البحر فى آن واحد ، فاهتزت الأرض والسماء ، ودارت الارض الفضاء ، وانقلب عالى كل شىء سافلَه ، وصاح الجميع « العاصفة »

هنا رأينا منظراً هائلا مخيفاً جمدت له دماؤنا فى عروقنا ، ومشت له قلوبنا فى صدورنا ، وما أحسب إلا أنه ستمر بنا الأيام والليالى ولا نستطيع أن ننساه حتى تبرد أعظمنا فى ثراها

رأينا الضباب الذى كان يحول بيننا وبين رؤية السفينة قد انحسر دفعة واحدة فاذا السفينة ذرة هائمة فى ذلك الفضاء الواسع ، تُقبل بها الريح وتدبر ، وتعلو بها الأمواج وتسفل ، إن حاولت الدنوّ من الشاطىء وقفت فى وجهها الصخور الناتئة المحددة الأطراف كأنها رماح مصوبة إلى صدرها ، أو أرادت النكوص على عقبها والانسياب فى طريق أخرى غير هذه الطريق عجزت عن مقاومة التيار ، لأنها أصبحت مجردة من جميع قواها وأسلحتها ، فقلوعها ممزقة ، وألواحها متناثرة ، وحبالها متطايرة ، وسواريها منكسة ، وأعلامها ساقطة ، ورجالها متهافتون على سطحها لما نالهم من الأين والاعياء ، وقد بدأ مؤخرها يهبط ، ومقدمها يرتفع ، أى

إن الهلاك قاب قوسين منها أو أدنى

وكانت العاصفة فى تلك اللحظة قد بلغت أشدها فرأينا الموج يرتفع ارتفاع الجبال حتى يصك بمنكبه منكب السماء، ثم يندفع إلى الشاطئ هُوىَّ العُقاب إلى وكره فينسف رماله



« السفينة موشكة على الغرق »

وحصاه ، ويطير بشظاياته فى جو السماء ، ثم لا يلبث أن يتراجع مُجرْجِراً فى تراجعه ، جرجرَتهُ فى تدفُّعه ، كالسهم الأليم فى حالتى وقعه ونزعه ، ويترك وراءه بقعة واسعة من الرمل كصفحة المرآة فى لمعانها واستوائها ، ورأينا المضيق

الواقع بين شاطئ الجزيرتين يرغى ويزبد كأنما يشتعل من تحته أتون[1] متقد ، ويرمى بالزبد من حِفافيه[2] كما يتناثر العهن المنفوش عن المِندف ، أما السماء فقد أصبحت ميداناً تتسابق فيه قطع الغيوم الطائرة إلى غاياتها ، فلا تفرغ حلبة حتى تنشأ حلبة أخرى ، فأصبح البر والبحر ، والسماء والأرض ، والماء واليبس ، والسهل والجبل ، قيامة كبرى يموج فيها كل شيء ، ويضطرب كل شيء ، فلم نعد نعلم أنحن وقوف فى أماكننا ، أم طائرون فى جو السماء ، وهل طغى الماء على اليبس فأحاله ماء ، أم لايزال الماء ماء ، واليبس يبسا

(١) الاتون موقد نار الحمام (٢) تثنية حفاف وهو الجانب

٢٣
الكارثة

وبينما نحن ذاهلون عن أنفسنا ، وعن كل مايدور حولنا ، إذ طرق آذاننا صوت عظيم فاستفقنا ، فاذا السفينة قد اصطدمت باحدى الصخور العظيمة ، وإذا آخر جرير[1] من أجرتها قد انقطع ، فانبعثت فى تلك اللحظة صيحة ألم من جميع القلوب ، واذا پول يهجم على البحر ليلقى بنفسه فيه ، فاعترضتُ طريقَه أنا ودومينج وحاولنا أن نمنعه فلم نستطع ، وظل يصيح دعونى أُنجى فرجينى ، فلم يكن لنا بدٌّ من أن نتركه وشأنه ، غير أننا عقدنا فى وسطه حبلاً طويلا وأبقينا طرفه فى أيدينا خوفاً عليه من الهلاك ، فاقتحم الماءَ وكان منظره فى تلك اللحظة منظراً مخيفاً مرعباً كأنما هو منتفض من كفن ، وكأنما صورته قد استحالت إلى صورة وحش ضار لايقوم له شىء إلا أتى عليه ،

(١) الجرير الحبل

فظل يعوم مرة ، ويتسلق الصخور أخرى ، ويعانى فى سبيل ذلك مالا يستطيع أن يحتمله بشر ، حتى دنا من السفينة أو أوشك أن يدنو منها ، فلطمه تيار قوى لطمة شديدة أعادته إلى الشاطىء كما كان ، مجروح الساق ، مهشم الاعضاء ، فلم يضعف ولم يَهِن ، ولم يبق الا بمقدار ما تنفس نفس



« پول يسبح فى البحر لينجى فرجينى »

الراحة ثم عاد إلى شأنه الأول

وكان الموج يهدأ حينا عن السفينة فيخيل الينا أنها واقفة على اليبس فنرى أشرعتها الممزقة ، وألواحها المتناثرة ، ورجالها المتهافتين على سطحها من الاعياء والتعب ، ورُبانَها

الواقف فى مقدمتها وقفة الليث الهصور يصرخ صرخاته العظمى التى تدوى بهـا أجواز الفضاء ، ثم يطغى عليها حينا فيضرب فوقها قبة جوفاء تغمرها كما يغمر القبرُ دفينه

وما هى إلا لحظات حتى بدأ سطح السفينة يتشقق ، وبدأ الماء يتسرب الى أحشائها ، وعلم ركابها أنهم هالكون إن بقوا فيها ، فأخذوا يلقون ما على سطحها من ألواح ومجاذيف وصناديق وأقفاص ثم يلقون بأنفسهم وراءها

وهنا ظهر منظر هائل عظيم هلعت له القلوب ، وزاغت له الابصار ، وفاضت له الشؤون من آماقها لهفة وجزعا

ظهر فى مؤخر السفينة منظر فتاة رائعة الجمال ، غضة الشباب ، نبيلة المنظر ، واقفة على قدميها العاريتين ، وقد ضمت باحدى يديها قميصها إلى صدرها ، ومدت يدها الاخرى إلى ذلك البائس المسكين الذى يخاطر بحياته ويكابد أعظم الشدائد والاهوال فى سبيل الوصول اليها ، فلم نعلم أهى

تستغيث به لينقذها ، أم تشير اليه أن يعود إلى مكانه رحمة به وإشفاقاً عليه ، فكان منظرها فى تلك الساعة منظر صورة بديعة مرسومة فى صفحة السماء

من هى هذه الفتاة : إنها فِرجينى : إنها الفتاة الطاهرة الشريفة التى تجثو الفضيلة خاشعة بين يديها ، إنها الفتاة الكريمة المحبوبة التى نبتت من كل قلب ، فهى حبيبة إلى كل قلب ، إنها الرحمة الالهية التى طالما أحسنت إلى البائسين ، وفرجت كربة المكروبين ، وبكت رحمة بالمنكوبين والمرزوئين ، إنها النور السموى الذى طالما أشرق فى القلوب اليائسة الحزينة فأنار حلكتها ، وبدد ظلمتها ، وملأها رجاءً وأملا

لذلك لم تبق عين من العيون إلا فاضت مدامعها ، ولا نفس من النفوس إلا سالت من بين أضالعها ، ولا يد من الايدى إلا ارتفعت إلى السماء ضارعة إلى الله تعالى أن ينقذها من بلائها

علم الملاحون أن السفينة قد بدأت تَهوِى الى مستقرها، وأن ظلمة الموت قد أخذت تخيم فوقها ، فنفضوا أيديهم منها نفض المودع يده من تراب الميت ، وأخذوا يقذفون بأنفسهم إلى الماء ، لا يعلمون أذاهبون الى الحياة أم إلى الموت ، وسفينةُ النجاة واقفة فى مكانها من الشاطىء لاتستطيع أن تتقدم خطوة واحدة خوفا على نفسها من الهلاك ، وأَخذت همة بول تضعف وتفتر لأنه كان قد استنفد جميع قواه ، فلم يبق له منها مايمسك به رمقه

وما هى إلا لحظات حتى خلا سطح السفينة من كل شىء إلا من ڤرچينى واقفةً فى مؤخرتها تنتظر قضاء الله فيها ، ورجلٍ بحار واقفاً فى مقدمتها قد خلع ملابسه وهم بإلقاء نفسه ، ثم لمح ڤرچينى واقفة موقفها هذا فأبى له كرمه ووفاؤه إلا أن يمد لها يد المعونة لينقذها ، فمشى اليها وجثا بين يديها وطلب منها أن تخلع ثوبها ليحملها على ظهره ويسبح بها

أتدرى ماذا كان بعد ذلك ؟

كان أن غلب الحياء على الفتاة حينما رأت رجلا عاريا بين يديها يريد أن يضمها عارية إلى جسمه . فأشاحت بوجهها عنه ، وأشارت برأسها أن لا ، فصاح الناس من كل جانب أنقذها ، أنقذها ، فوثب الرجل قائما على قدميه ومد يده إلى ثوبها ليجردها منه

وهنا وا أسفاه أقبلت موجة عظيمة كالجبل الأشم تندفع نحو السفينة اندفاع القضاء النازل ، وتزمجر فى اندفاعها زمجرة الليث الهصور ، فذعر البحار اذ رآها وطاش عقله ، وما لبث أن اُمَّاسَ من مكانه وألقى بنفسه فى الماء

أما فِرجينى فلم تخف ولم تَطشْ ، بل لبثت فى مكانها كما هى ، وقد علمت أن الساعة آتية لا ريب فيها ، فضمت قميصها الى جسمها بيد ، ووضعت يدها الاخرى على قلبها ، وسبحت بنظرها فى الفضاء ، فأصبح منظرها منظر ملاك كريم يطير بجناحيه فى جو السماء

وما هو إلا أن أغمض الواقفون عيونهم جزعا من هذا المنظر الهائل المخيف ثم فتحوها فاذا البحر قد ابتلع كل شيء ، واذا كل شيء قد انقضى

* * *



« فرجيني ساعة غرقها »

وهنا صمت الشيخ وأسلم رأسه الى ركبتيه وأخذ يضطرب اضطرابا شديداً كأنما يعالج غصة تعتلج في صدره ، ثم لم يلبث أن انفجر باكيا يَنشِج نشيج الأطفال ، فهاجني

بكاؤه فبكيت حتى ذهلت ، ولم أستطع الرجوع الى نفسى الا بعد حين ، فرأيته لايزال فى ذهوله واستغراقه ،فنبهته فانتبه ، وعاد الى حديثه يقول :

ياله من يوم عظيم هائل ! يالها من ذكرى مؤلمة مريرة! يالها من حسرة لاانقضاء لها حتى الموت ! لقد مر على تلك الحادثة عشرون عاما ولا تزال تلك الفتاة ماثلة أمامى كأننى لا أزال أراها ، إن ڤرجينى كانت عزيزة على جداً ، بل كانت أعز مخلوق عندى ، ولو كان لى ابنة لما نزلت من نفسى تلك المنزلة التى نزلتها ، وكان كل أملى فى حياتى أن أعيش فى ظل عطفها ورحمتها ، وحنانها وشفقتها ، حتى تتولى إغماض عينى بيدها فى ساعتى الأخيرة ، فلم يقدَّر لى ماأريد ، لقد هجرتُ العالم كله ولجأت الى هذا المعتزل البعيد النائى هرباً من الشقاء فتبعنى الشقاء حيث ذهبت ، وما أحسبه تاركى بعد ذلك حتى ينزل معى الى قبرى

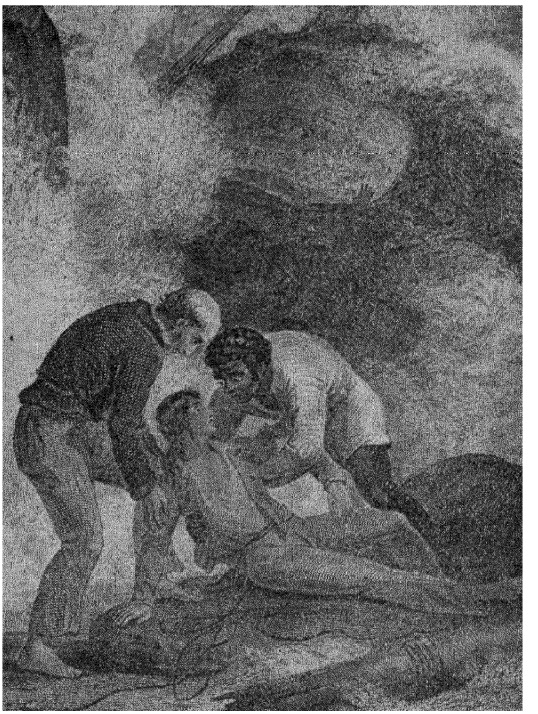
ثم تنفس الصعداء وقال : ولكنّ الذى يهون وجدي

عليها أنها الآن سعيدة فى سمائها ، مغتبطة بعيشها ، متمتعة برحمة ربها ورضوانه ، وأن تلك المرارة التى ذاقتها ساعة موتها قد زالت من فمها إلى الأبد

نعم إن يومها كان يوما هائلا جداً ، فلقد بكاها كل من رآها حتى الزنوج الذين ألفوا البؤس والشقاء ، فلم يبق فى عيونهم موضع للبكاء ، وكان أكثرهم بكاءً عليها ذلك لبحار المسكين الذى حاول انقاذها فحال القضاء بينه وبينها ، فقد كان يخيل اليه أنه أجرم إجراماً عظيما بالفرار منها وتركها وشأنها ، فجلس على الرمل بعد خروجه يلطم وجهه وينتف شعره ويقول اللهم اغفرلى ذنبى ، فقد كنت أرجو أن أنال السعادة بافتدائها بحياتى ، ولكن الله أراد شقائى

أما بول المسكين فقد كنا جذبناه قبل ذلك الى الشاطئ فجثا على ركبتيه يشاهد ذلك المنظر المؤلم وهو يُرعَد ويضطرب اضطراب الغصن فى مهاب الرياح حتى انقضى ، فسقط مغشياً عليه يتدفق الدم من فمه وأذنيه وأنفه ، فظللنا نعالجه

ساعة طويلة حتى استفاق بعد لَأْيٍ ، ودار بنظره حوله كالذاهل المخبول . ثم انتفض انتفاضة شديدة وعاد إلى ذهوله



« الشيخ ودومينج يجذبان بول إلى الشاطئ »

واستغراقه ، فأمر الحاكم أن يُنقل إلى خيمته الخاصة ، وأمر

طبيبه بالقيام عليه والعناية به ، وظل هو ملازما له لايفارقه فتركتُه حيث هو ، وذهبت أنا ودومينج إلى الساحل لنفتش عن جثة ڤرچينى ، وكانت الزوبعة قد هدأت قليلا فقضينا فى البحث عنها زمناً طويلا فلم نعثر بها ، فاشتد حزننا وألمنا ، واستولى اليأس على نفوسنا ، وبدأ الريب



« پول يضطرب وهو ينظر الى السفينة ساعة غرقها »

يدب فى قلوب الكثير منا ، فصاح بعض الناس وقد أدركه مثل الجنون : ألا يوجد لهذا الكون إله يدبّره ويرعاه ! ألا يوجد بين هؤلاء الناس جميعاً من يستحق هذه الميتة التى ماتتها هذه الفتاة سواها ! والنفس الضعيفة تعجز دائماً

عن احتمال صدمات القضاء فلا تجد بداً حين تصدمها من أن تروّح عن نفسها بالسخط والغضب ، وقد تخرج فى سخطها أحياناً عن صوابها وهداها ، فليرحمها الله ، فانها ما أُتيتْ إلا من ناحية الايمان به ، والثقة بعدله ورحمته



« جثة فرجينى غارقة فى الرمل »

وهنا مر بنا بعض الناس وأخبرنا ان التيار قد ألقى ببقايا السفينة على شاطئ الخليج المسمى خليج « تمبو » أى خليج القبر ، فذهبنا اليه نرجو أن نعثر بالجثة هناك ، فوجدناها غارقة فى الرمل الا جزءها الاعلى فنبشنا عنها فاذا هى على الصورة

التى رأيناها عليها فى ساعتها الأخيرة ، وكأنها حية باقية لم تمت ، وكأن ماء الحياة لا يزال يجول فى وجهها ، لولا اصفرار قليل فى خديها ، واذا هى لا تزال ضامة ثوبها إلى جسمها ، وواضعة



« جثة فرجينى محمولة إلى الكوخ »

يدها الأخرى على قلبها ، وكأنّ أناملها تنقبض على شىء ، ففتحتها فرأيتها قابضة على صورة الرسول بول التى كان بول قد أهداها اليها قبل سفرها فوعدته أن تحتفظ بها الى آخر رمق فى حياتها ، فكأنها تودع صديقها الحميم الوداع الأخير

فى صورة ذلك القديس العظيم ، فأكبرتُ هذا الاخلاص العظيم كل الاكبار ، وأيقنت أن النفس الطاهرة كالذهب الخالص ، لايغيرها شأن من شؤون الحياة أو الموت

ثم حملناها إلى كوخ قريب لبعض الصيادين وعهدتُ الى بعض النساء أن يتولين شأنها حتى نعود ، وصعدت إلى الوادى لابلغ تينك المرأتين المسكينتين ذلك الخبر الهائل ، وما أحسبنى وقفت فى حياتي موقفاً أشد علىّ من هذا الموقف ، فدخلت عليهما فى الكوخ فرأيتهما جاثيتين تصليان وتدعوان اللهَ تعالى بسلامة ابنتهما من شر هذه العاصفة ، وكان الليل قد بدأ يرخى سدوله على الكائنات ، ويضرب عليها سُرادقاً من وحشته وكآبته ، فما وقع نظرهما علىّ حتى دُعرتا وارتاعتا وصاحتا أين ثرجينى ؟

فلم أستطع أن أنطق بشىء سوى أنى أطرقت برأسى ، فدنت منى هيلين وقد استحالت الى شبح كأشباح الموتى وقالت لى بصوت خافت متهافت : هل ماتت ؟

فاستمررت فى إطراقى ، ففهمتْ كل شىء ، وماهى إلا صيحة واحدة صاحتها من أعماق قلبها ثم سقطت فى مكانها لا يختلج فى جسمها عرق واحد ، ودارت مرغريت بنظرها فلم تر ولدها أمامها فسألتنى وأين پول ؟ فتلطفت فى قص قصته عليها ، وحلفت لها بالله أنى أرجو له حسن العاقبة ، فلم تعبأ بما أقول ، ولم يكن جزعها على ولدها ، بأقل من جزع صاحبتها على ابنتها

ولا أستطيع أن أصف لك يابنى هول تلك الليلة فى ذلك الكوخ ، فلم تكن ليلةَ بكاء وعويل ، وولولة وصياح ، كما تكون ليالى الثُّكل فى بيوت الثاكلين ، بل ليلةَ حزن صامت عميق يحبس الدموع عن الانطلاق ، والزفرات عن التصعيد ، وما أنس لا أنسى منظر تلك المرأة المسكينة وهى ساقطة تحت أعباء ذلك الحزن الثقيل تئن أنين الدفين تحت أنقاض البيت الساقط ، وتقلب وجهها فى السماء تسألها دمعة واحدة تروِّح بها عن نفسها فلا تعطاها ،

وقد تغمغم أحيانًا بكلمات مبهمة لا يسمع منها السامع غير قولها: ابنتى ! حبيبتى ! مسكينة أنت ! الرحمة يارب ! المغفرة يا إلهى ! ومرغريت تجلس بجانبها تارة لتعزيها وتهون عليها مصابها ، وتخرج خارج الكوخ تارة أخرى لتبكى ولدها ماشاء الله أن تفعل ، فكان منظر إخلاصها فى تلك الساعة أعجب منظر رأيته فى حياتى ، أما دومينج ومارى فقد ظلا يدوران ليلهما حول الكوخ يلطمان خدودهما ، ويخمشان وجوههما ، وينتفان شعورهما ، ويرسلان صرخاتهما المحزنة الأليمة فى جو السماء حتى تلفا أو كادا

ولم يزل هذا شأننا جميعاً حتى انبثق نور الفجر ، فانسللت فى صمت وسكون من حيث لا يشعر بى أحد وانحدرت إلى الشاطئ فرأيت أن الحاكم قد أعد كل شئ لتشييع جنازة فرجينى ، فكسوا نعشها بصنوف الزهر وأنواع الريحان ، وحمله ثمانية من عذارى « سان لوى » لابسات حللا بيضاء مشرقة ، وتبعه نحو مائتى طفلة من أطفال

الدير يمشين صفوفاً متتالية ، ويحملن فى أيديهن سعف النخل ، وطاقات الزهر ، ويرتلن الأناشيد الدينية بنغمة شجية محزنة ، ومشى فى المقدمة حاكم الجزيرة ووراءه ضباطه وجنوده ناكسى أسلحتهم ، مطرق رءوسهم ، والناس فيما وراء ذلك بحر زاخر يعج بالبكاء والعويل ، والأنات والزفرات ، وكانت مدافع الحصون ترسل طلقاتها من حين إلى حين ، فتردد صداها مدافع السفن الراسية على الشاطىء

ولم نزل سائرين فى طريقنا حتى وصلنا إلى كنيسة « پامپاموس » وهناك حى الزنوج المساكين الذى كانت تزوره ثرچينى فى أيام الآحاد بعد أداء الصلاة فى الكنيسة ، فتعول فقراءه وتطعم جائعيه ، وتعود مرضاه ، وتعطف على أيتامه وأراملة ، فخرج رجاله ونساؤه ، وفتيانه وفتياته ، باكين صارخين ، فبكينا جميعاً لبكائهم ، وكانت مناحة عامة جاد فيها بالدمع من لم يجد ، وبكى فيها من لا عهد له بالبكاء ، ولقد رأيت بعينى أولئك الأبطال الأنجاد الذين

يأنفون أن يذرفوا دمعة واحدة من مدامعهم والرماحُ تنوشهم والسيوفُ تأخذهم من كل جانب يتهافتون على الجذوع والأحجار باكين منتحبين انتحاب الأطفال الصغار ، ورأيت جماعة من نساء مدغشقر وموزنبيق آتيات يحملن على عواتقهن أقفاص الفاكهة حتى وضعنها حول القبر وعلقن على أغصان الأشجار المحيطة به خرقا بيضاء ناصعة ، كعادتهن التى اعتدنها فى موتاهن الأعزاء ، ورأيت جماعة أخرى من نساء الهند والبنغال يحملن أقفاص الطير على عواتقهن ليرسلنها فوق القبر ساعة الدفن ، ولعلهن يردن من ذلك تمثيل صعود الروح إلى سمائها ، فما أجل الفضيلة وما أعظم شأنها ، إنها الشريعة العامة الذى يدين بها الناس جميعاً عالمهم وجاهلهم ، مؤمنهم وملحدهم ، حاضرهم وباديهم ، والمعبد المشترك الذى يقف فيه الجميع صفاً واحداً ، أمام هيكل واحد ، يرتلون آية واحدة ، بنغمة واحدة

وكانوا قد حفروا للميتة قبراً تحت شجرة خيزران مورقة

فى الجانب الغربي من كنيسة « پامبامـوس » كانت تجلس تحتها دائما هى وپول حينما كانا يأتيان لزيارة الكنيسة وتوزيع الصدقات على الفقراء والمساكين ، فلما حلت ساعة الدفن اشتد البكاء والنحيب ، وهرع الفتيات إلى النعش يلمسنه بأيديهن ، ويشرن إليـه بمناديلهن وخرقهن ، ثم يمسحن وجوههن تبركا كما يفعلن أمام تمثال العذراء ، وجأرَ الأمهاتُ بالدعاء الى الله تعالى أن يمنح بناتهن الفضيلة التى منحها هذه القديسةَ المباركةَ ليحيين حياتها ، ويمتن موتها ، وما هى الا لحظات حتى انحدر إلى مغربه ذلك الكوكب الفخم الذى خفق فى سماء العالم لحظة ثم اختفى

٢٤
أحزان بول

نقلنا پول فى مِحفة إلى كوخه بعد ما أبَلَّ قليلا ، وكنت خائفاً عليه وعلى أميه أشد الخوف من تلك الساعة التى يتلاقون فيها ، ولكنَّ الله تعالى جعل خيراً ما كنت أحسبه شراً ، فلم

يقع نظرهما عليه حتى نهضتا اليه وضمتاه إلى صدرهما وانفجرتا بالبكاء ، فنفّس الدمعُ عن هيلين تلك الحرقة الكامنة التى ظلت تعتاج فى صدرها يومين كاملين ، وكأنّ شعاعا لامعاً قد انبعث من عينيه اللامعتين إلى قلبهما فأضاءهما بنور العزاء والسلوى ، فطفقتا تقبلانه وتلثمانه ، وتمزجان دموعهما بدموعه ، وقد أنزل الله عليهم جميعاً السكينة والصبر ، فاستحالت تلك العاصفة التى كانت تعصف بقلوبهم ليلها ونهارها الى سكون يشبه سكون الموت ، فلا نواح ولا عويل ، ولا تذمر ولا شكوى ، إلا ما كان من تلك العبرات التى تتحدّر من آماقهم فى صمت وسكون

وبعد هنيهة حضر الحاكم ليعزى هيلين عن نكبتها فعزاها وحدثها طويلا عن عمتها وعن ذلك المسلك الوحشىّ الذى سلكته مع ابنتها ، فكان جوابها على ذلك كله أن سألت الله لها العفو والمغفرة ، ثم اقترب من فراش پول وتناول يده وقال له يجب أن تسافر يابنى إلى فرنسا وسأعطيك

كتاب وصاة تستعين به على عمل ينفعك وينفع أهلك ، وسأتولى عنك رعاية أميك وكفالتهما فى غيبتك ، فألقى عليه بول نظرة طويلة لا يعلم الا الله ماذا يريد منها ، ثم جذب يده منه وأدار وجهه للحائط ، فاكتأب الرجل قليلا ثم نهض وقال له سأعود اليك مرة أخرى يابنى وانصرف

ولم يكن لى بد فى هذه الأيام من أن ألزمهم لأقوم بخدمتهم ، وقضاء حاجاتهم ، ولأتولى بنفسى تمريض هذا الولد المسكين ، فلزمت فراشه ليلى ونهارى ما أكاد أفارقه حتى استطاع بعد ثلاثة أسابيع أن ينشط من علته ، إلا أنه استحال إلى شخص آخر غير ذلك الشخص الأول ، وكأنما انطفأ فى قلبه ذلك المصباح المنير الذى كان يمد حواسه ومشاعره بالنور والاشراق ، فأصبح ذاهلا مذهوبا به ، تحدثه فلا يكاد يفهم الحديث ، ولا يكاد يرد عليه إن فهمه ، وكانت تدنو منه هيلين أحياناً فتقول له إننى كلما رأيتك ياولدى يخيل إلى أن ابنتى لاتزال حية باقية أراها وأحادثها ،

تريد بذلك تسرية همه وإزالة وحشة نفسه ، فلا يكاد يسمع اسم فرچينى حتى ينتفض انتفاضاً شديداً ، ويخرج من الكوخ هائماً على وجهه ، فلا يعود إليه حتى يعود به من يراه ، وكثيراً ما كان يذهب وحده إلى « مخدع فرچينى » فيجلس هناك تحت النخلتين المسماتين باسمه واسمها شاخصاً ببصره إلى البركة التى كانا يستحمان فيها أيام طفولتهما ، ويظل على ذلك عدة ساعات حتى أذهب إليه وأعود به الى الكوخ ، وخرج ذات يوم فتبعته أنا ودومينج ، وكنت أتبعه دائماً حيثما سار ، فصعد جبل « المورن » ثم انحدر الى سفحه الآخر ، ومشى فى الطريق الموصل إلى كنيسة پامبلْموس ، فاستطير قلبى خوفا وهلعا ، وخفت أن ينتهى به المسير إلى قبر فرچينى ، وكنت لا أستطيع منعه أو الوقوف فى وجهه ، لأن الطبيب أمرنى ألا أحاوله فى أمر يريده ، وأن أترك له الحرية فى جميع ما يأخذ وما يدع ، وقال لى إن هذا هو علاجه الوحيد الذى لا علاج له سواه من وحشة نفسه

وكاتبها ، فظل سائراً لا يلتفت يمنة ولا يسرة حتى بلغ مكان القبر لا يخطئه ، فجثا فوق تربته تحت ظلال شجرة الخيزران يصلى ويبتهل ، فعجبت لذلك أشد العجب ، لانى كنت على ثقة من انه لا يعلم حتى الساعة هل أُخرجت جثة فرجينى من البحر ، أم ذهبت طعاماً للاسماك ، فلم أجد بداً أنا ودومينج من أن نجثو جثيَّهُ وندعوَ دعاءَهُ ، فالتفت فرآنا ، فسألته لم يصلى فى هذا المكان ، فقال إنه المكان الذى كنا نجلس فيه معاً حينما نأتى الى هنا أيام الآحاد لزيارة الكنيسة وتوزيع الصدقات على الفقراء والمساكين ، ويخيل لى أن هذه البقعة أحب بقعة الى على وجه الأرض وأدناها الى نفسى ، فعلمت أنه قد أُلهم ، وأن طيب تراب القبر دل على القبر

ثم نهض قائماً على قدميه وذهب ببصره فى السماء ، وظل على ذلك ساعة ، فخيل إلى أنه قد طار بنفسه الى ذلك العالم الآخر ليفتش عن تلك النفس الحبيبة اليه التى فارقته

فراق الأبد ، فأصبح لا يهنأ له العيش من بعدها ، ثم مالبث أن انتفض انتفاضة شديدة وانحدر الى شاطئ البحر ، فذُعرتُ وارتعت ، ولم أجد بداً من أن أقف فى وجهه ، وقلت له عد بنا إلى الكوخ يا پول وكن عند ظنى بك ، فلم



« الشيخ ودومينج يصليان خلف پول »

يعبأ بما أقول ، واستمر سائراً فى طريقه حتى أشرف على البحر ، وشخص ببصره إلى النقطة التى غرقت فيها السفينة ، فخفت أن يكون قد حدث نفسه بذلك الامر العظيم ، فدنوت منه وقلت له : إن المنتحر يا پول لا يصعد إلى ملكوت

السماء ، فلم يزد على أن صاح : آه يا فرجينى ! آه يا فرجينى ! وسقط مغشياً عليه ، فحملناه الى الغابة ولم نزل به حتى استفاق ، فحاول أن يتقدم نحو الشاطئ مرة أخرى ، فضرعت اليه ألا يفعل ، فأمسك على مضض ، وبعد لأيٍ مّا استطعنا أن نعود به الى الكوخ

وأصبح بعد ذلك لاشأن له الا طروق الأماكن التى عاش فيها مع فرجينى ، أو اتفق لهما فيها شأن من الشؤون ، فزار الملعب الذى كانا يلعبان فيه معا وهما طفلان صغيران ويحفران فى رمله الحفر العميقة الواسعة ويملآنها بالماء وصغار السمك ويجلسان على ضفافها يصطادان ، واجتاز الطريق التى مشيا فيها تحت وابل المطر وقد أسبلت إزارها على رأسه لتقيه مما تقى منه نفسها ، فكان منظرهما منظر الدُّمية فى المحراب ، ومشى فى الطريق التى مشيا فيها يوم ذهبا إلى ضفة النهر الأسود ليشفعا للزنجية الآبقة عند سيدها ، ومر بالمكان الذى قطعا فيه نخلة الجوز وأحرقاها ليأكلا طلعها

الأبيض حين أزمتْ بها أزمة الجوع ، ودخل الغابة التى أضلاّ فيها الطريقَ حتى أظلهما الليل وهما تائهان مشرّدان ، وجثا عندالشجرة التى جثيا عندها يصليان ويدعوان الله تعالى أن يبعث اليهما من يَهديهما السبيل ، وجلس بجانب الهضبة التى كانت تنتظره عندها حتى يعود من المزرعة تعباً مكدوداً فتمسح عرق جبينه بمنديلها ، وتبتسم له تلك الابتسامة العذبة الجميلة التى تنسيه آلامه ومتاعبه ، ومر بالشاطئ الرملىّ الذى كانا يرقصان فيه تلك الرقصة الزنجية الساذجة ، ويمثلان على مسرحه بعض قصص الكتاب المقدس ، وجلس طويلا على الصخرة التى جلسا عليها ليلة الوداع يتعاتبان ويتشاكيان وكان هذا آخر عهده بها حتى قضى الله قضاءه فيها

ولم يدع هضبة ولا صخرة ، ولا شجرة ولا نخلة ، ولا ظُلة ولا كرمة ، كانا يجلسان إليها ، أو يفيئان إلى ظلها ، إلا زارها وبكى عندها طويلا ، كأنما كان يشعر فى نفسه أنه مفارقها ، وألاّ بدله من وداعها ، فهو يودعها وداع الآسف الحزين

وكذلك قضى أيامه الأخيرة وحيداً شريداً ، هائماً مستوحشاً ، يأكل حيث يجد طعاماً ، ويشرب حيث يجد شراباً ، ويأوى الى كل ظل ، وينام تحت كل كوكب ، حتى تخوّنه السقم ، وأضواه الهم ، فغارت عيناه ، وانكفأ لونه ، وذوت نضرته ، وأصبح مثل الخلال رقة وذبولا ، فأزعجني أمره ، ورثيت له ولأميه البائستين المسكينتين اللتين تبكيانه ليلهما ونهارهما على ضعفهما وسقمهما وإدبار أمرهما ، ولم أكن فاتحتُه حتى اليوم بكلمة واحدة في شأن نكبته التي نُكب بها رحمة به وإبقاءً على حُشاشته القريحة أن يؤلمها المس ، ويَهيجها العبث ، فلما استحالت حاله إلى ما أرى رأيت أن أذهب في معالجته مذهباً غير المذهب الأول ، فجلست إليه ذات يوم وقلت له أتعلم يا پول أن فرجيني قد أخلصت اليك إلى آخر رمق في حياتها إخلاصاً لم ير مثله راءٍ ، ولم يتحدث بمثله متحدث ، فانتفض قليلا ورفع رأسه إليَّ ورنَّق ينتظر ما أقول

فأخرجت له صورة الرسول پول وأريته إياها فاختطفها من يدى بيديه الضعيفتين المرتعشتين وقال وأين وجدتها ؟ قلت على صدر ڤرجيني حينما وجدنا جثتها على شاطىء البحر وقد وضعتْ يدها عليها كأنها تضمك فيها إلى نفسها وتودعك الوداع الأخير ، قال وهل وجدتم جثتها ؟ قلت نعم وجدناها على ضفة الخليج عشية اليوم الذى غرقت فيه تحت طبقة من الرمل قد سترت منها الجزء الذى تحب أن تستره من جسمها ، قل وأين دفنتموها ؟ قلت فى الجانب الغربىّ من كنيسة « پامپلموس » تحت شجرة الخيزران الكبرى حيث ذهبتَ وجئتَ وصليتَ من حيث لاتدرى ، فتنفس تنفُّسَةَ طويلة كادت تنقطع لها حيازيمه ، وأكبَّ على الصورة يغمرها بدموعه وقبلاته ، فافترصت هذه الفرصة وأنشأت أقول له

الموت

٢٥

ماهذه الدموع التى تَذرفها يابنى ليلك ونهارك ما تهدأ ولا تَفتُر ، وما هـذا الحزن الذى تحمله بين أحناء ضلوعك لايتفرَّج عنك بوجه من الوجوه ، ولا حيلة من الحيـل ، ومتى كان الموت نكبة من النكبات العظام التى يهلِك المرء فى سبيلها جزعا ، وتتساقط نفسـه من دونهـا حسرات ، وهل هو الا الانتقال من منزل إلى منزل ، والتحول من موطن إلى موطن ، وربما كان الذى ننتقل اليه خيراً من الذى ننتقل منه ، ومن أين لك أَن الله تعالى لم يرد بصاحبتك خيراً حين استأثر بها واختار لها ما عنده ، وأنه ما نقلها من هذه الدار الى تلك الا لينقذها من شقاءٍ علِمَ أنها ستكابده فيها وستلاقى منه آلاماً جساماً ، وهـل يمكن أن يكون لها مصير إن قُدِّر لها البقاء فى هذه الحياة غيرُ هذا المصير بعد

ما تجهّم لها الدهر، وحارت بها السبل، وانتهى أمرها مع عمتها بما انتهى اليه من سوء الحال، وخيبة الأمل، وبعد ما قُضى عليها أن تقضى بقية أيام حياتها فى هذه القفرة المجدبة المحرقة التى لا ماء فيهـا ولا ثمر، وهل كنت تؤثر أن تراها شقية معذبة بين يديك تَفلح الأرض، وتكسر الصخر، وتخوض الوحل، وتتسلق الأشجار، وتعبر الأنهار، لتعينك وتعين أطفالها المستقبلين على العيش، بعد ما ألفتِ النعمة والرغد والعيش الهنىء فى قصر عمتها عدة أعوام لا ترى فيها صخراً ولا حجراً، ولا رملا ولا مدراً، ولم لا يَهنِئُك ويفرحك، ويملأ قلبك غبطة وسروراً، أن تَعلم أنها الآن سعيدة فى عيشها، هانئة بمصيرها، مغتبطة بما وفقت اليه من قدومها على ربها طاهرة نقية لم تُلوِّث صحيفتهـا برشاشة واحدة من ذلك الرشاش الـكثير الذى تُلوث به صحائف الفتيات، مَجزيةً أحسن الجزاء على موقفها الشريف العظيم، موقفِ العزة والأنفة، والصبر والاحتمال، الذى وقفته فى ساعتها الأخيرة، ومن

هو أولى منك وأنت صديقها وحبيبها وألصق الناس بها بالسرور لسرورها ، والغبطة لغبطتها ، والابتهاج بمصيرها السعيد الذى صارت اليه ، وأنا أُجلك كل الاجلال عن أن يكون حبك إياها حباً مادياً يزعجه افتراق الأجسام ، ويكدر صفوه اختلاف الموطن والمقام ، ولو أنك عدت إلى نفسك قليلاً لعلمت أنها لم تفارقك ، ولم تنأَ عنك ، وأنها جالسة اليك تحدثك وتسمع حديثك ، ولا شك عندى فى أنها عاتبة عليك أشد العتب فى هذه العَجاجة السوداء من الحزن التى تثيرها على أثرها كأنها ذاهبة الى دار الجحيم تستقبل أنواع العذاب ، وألوان الآلام ، أو كأنّ كل الذى كان يَعنيك منها شهواتُك ولذائذك ، فلما فاتتك بكيتها كما يبكى الطفل لُعبته النافقة ، وكأنى أسمعها تهتف بك قائلة « لا تبك علىّ يا پول فاننى سعيدة ناعمة متمتعة برحمة ربى ورضوانه ، متقلبة فى أعطاف نعمته التى أسبغها علىّ مكافأة لى على صبرى واحتمالى ، وما استقبلت به هموم حياتى وآلامَها من سكينة

وجلد ، فاصبر كما صبرت ، واحتمل من آلام الحياة ما احتملت ، يحسن الله جزاءك ، ويجزل أجرك ، ويرفعك الى المنزلة التى رفعنى اليها ، فنعيش معاً فى سعادة دائمة ليست سعادة الدنيا بالاضافة اليها إلا وهما من الأوهام ، أو حلماً من الاحلام »

فلم يزد على أن رفع رأسه الىّ وقال ما دامت الحياة شقاء وعذاباً ، وما دام الموت سعادة وهناء ، وما دامت ثرچينى تنتظرنى فى علياء سمائها لأعيش بجانبها العيش الذى أرجوه وآمله ، ولا أُوثر عليه عيشاً سواه ، فلا خير فى الحياة من بعدها ، وما أشوقنى الى الموت الذى يدنينى منها

وهنا علمتُ ألا حيلة لى فيما قضى الله وقدره ، وأن الفتى قد نفض يده من هذه الحياة الى الأبد ، وألاّ يدَ فى العالم تستطيع أن تديره الى وجهة غير الوجهة التى يسير فيها غير يد الله ، فقمت وقام ، ولا أسف فى الدنيا أعظم من أسفى عليه ، ولا فجيعة أكبر من فجيعتى فيه

الايمان

٢٦

جزى الله الايمان عنا خيراً ، فلولاه لثقلت على عواتقنا هـذه الهموم التى نعالجها ، ولولاه لعجزنا عن أن نتنفس نفس الراحة الذى يعيننا على المسير فى صحراء هـذه الحياة القاحلة ، فهو النجم الخافق الذى يلمع من حين إلى حين فى سماء الليلة المظلمة المدلهمّة فينير أرجاءها ، وهو الدوحة الفَيْنانة التى يلجأ إليها المسافر من حَرور الصحراء وسَمومها فيجد فى ظلالها راحته وسكونه ، وهو الجرعة الباردة التى يظفر بها الظامئ الهيمان فيَنقَع بها غلته ، ويفثأ لوعته ، وهو المطرة الشاملة التى تنزل بالأرض القاحلة فتهز تربتها ، وتحيى مواتها ، وتبعث فى صميمها القوة والحيـاة ، وهل كنا نستطيع أن نبقى لحظة واحدة فى هذه الدار التى لا نفلت فيها من هم الا إلى هم ، ولا نفزع من رزء الا إلى رزء ، لولا يقيننا

أن هـذه الطريق الشائكة التى نسير فيهـا انما هى سبيلنا الوحيـد الذى يفضى بنا الى النعيم المقيم الذى أعـده الله فى جواره للصـابرين من عبـاده ، وهل كان فى استطاعة مريضنا الذى يئس من الشفاء ، وفقـيرنا الذى عجز عن القوت ، وثاكلنا التى فقدت واحدَها من حيث لا ترجو سـواه ، أن يحتفظوا بعقولهم سليمة ، ومداركهم صحيحة ، وعزائمهم متماسكة ، لولا أنهم يعلمون أن حياتهم لا تنقضى بانقضاء أنفاسهم على ظهر الأرض ، وأن هناك حياة أخرى فى عالم غير هـذا العالم ، لا سقم فيها ولا مرض ، ولا بؤس ولا شقاء

لذلك استطاعت هيلين ومرغريت فى أواخر أيامهما أن تحتفظا بسكونهما وهدوئهما أمام هذه الحوادث المؤلمة التى تفُض أصلاد الصفا ، وتذيب لفائف القلوب ، فكنتُ اذا دخلت عليهما رأيتهما فى فراش مرضهما صابرتين محتملتين كأنهما لا تعالجان فى أعمـاق قلوبهما أشـد الآلام النفسية

وأهوَلهـا ، فاذا نظرتا نظرتا الى السماء ، واذا نطقتا نطقتا باسم الله ، وسألتاه العفو عنهما ، والرحمـة بهما ، ثم لاتابث أعينهما أن تتلألأ بنور الأمل والرجاء ، كأنما قد وقع فى نفسهما أن الله قد استجاب دعاءهما ، وتقبل قربانهما ، ووعدهما المثوبة العظمى فى دار نعمته وجزائه

ولقد دخلتُ صباح يوم على مرغريت لِلَّحظةِ التى استيقظت فيهـا من نومها فقصت علىّ أنها رأت فرجينى فى منامها تسبح فى غمرة من النور ، وقد لبست قميصاً أبيض فضفاضا كأنما قد نُسج من خيوط الشمس ، ولم تزل تهبط من أوجها رُويداً رويداً حتى أصبحت فى حرم الأرض ، فمدت يدها الى پول فأخذت به من ضَبْعيه وطارت فى جو السماء ، فتشبثتُ بردائه فطرت وراءه ، ولا أعـلم كيف طرت ، ثم نظرت تحتى فاذا هيلين طائرة ورائى ، واذا مارى ودومينج طائران وراءها ، ثم دخلت على هيلين فى كوخها فى الساعة نفسها فقصت علىّ هذه الرؤيا بعينها ،

فعجبت لذلك أشد العجب ، وأيقنت أن الله قد اصطفى هؤلاء القوم لنفسه ، وأنزلهم منازل الأبرار الصالحين ، وأنهم وان كانوا لا يزالون على قيد الحياة فقد لحقوا بالعالم الآخر ، وأصبحوا ملائكة بين ملائكته المقربين

ولقد صدقتْ هذه الرؤيا كما هى ، أما پول فقد مات بعد ذلك بثمانية أيام ، وكان قد خرج فى بعض خرجاته التى اعتادها دون أن أراه ، فافتقدته عدة ساعات فلم أجده ، فانحدرت إلى حى پامبلموس فوجدته جاثياً على قبر فرجينى وقد ضم إلى صدره صورةَ پول الرسول التى خلفَتْها له ، فحركتُه فاذا هو ميت ، فحفرنا له ودفناه معها فى قبرها ، وأما مرغريت فقد لحقت بولدها بعد ثلاثة أيام من وفاته قضتها صابرة متجلدة لا تذرف لها دمعة ، ولا تصعد لها أنة ، وكان وداعها لصديقتها وداعا هادئاً ساكناً لم تزد فيه على أن قالت لها « سنلتقى هناك » كأنما تفترقان على ميعاد ، ثم أسلمت روحها ، وأما هيلين فقد ماتت بعد شهر

من ذلك التاريخ على ذلك الفراش الحقير ، فى ذلك الكوخ البسيط ، لا يحيط بها غيرى وغير مارى ودومينج ، بعد ذلك الملك الكبير ، والجنة والحرير ، والنعمة السابغة ،



موت هيلين أم فرجينى

والمتعة الواسعة ، أما أنا . . . وهنا سكت سكتة طويلة كانت أوصاله ترتعد فيها ارتعاداً شديداً ثم قال بصوت

خافت متهدّج « فقد بقيتُ وحدى » وانفجر باكيا بكاء ثاكل فجعها الدهر فى أفلاذ كبدها جميعاً فى ساعة واحدة ، فلا صبر لها ولا عزاء ، وبعد لأىّ مّا استطاع أن يعود الى حديثه فقال

وهنا لم أجد بدًّا من أن أنقل مارى ودومينج الى كوخى ، فلم يعيشا بعدموالهم إلا بضعة شهور ثم لحقابهم ، نخلت الارض منهم جميعا ، حتى من كلبهم وماشيتهم ، وطيورهم وعصافيرهم ، وأصبحوا تحت التراب أجساداً هامدة ، وعظاماً نخرة ، تَسفى عليهم السوافى ، وتدور عليهم الدوائر ، ويتحدث عنهم المتحدثون كما يتحدثون عن الشعوب الغابرة ، والامم الخالية ، ولم يبق من آثارهم غير تلك الجدران المتهدمة التى تراها ، وقد خلد أهل الجزيرة ذكرهم فى كثير من الاماكن التى عاشوا فيها ، فسموا الرأس الذى عجزت السفينة عن اجتيازه فكان فى ذلك هلاكها «الرأسَ البائس» والخليجَ الذى وُجدت جثة فرجينى على شاطئه دفينةً فى الرمل

« خليجَ القبر » والمضيق الذى غرقت فيه السفينة مضيقَ « سان چيران » وسموا مخدع فرجينى التى كانت تخلو فيه بنفسها « كهفَ الفتاة » وشجرةَ الخيزران التى ظلت قبرهم جميعا « الشجرةَ المقدسة » والوادىَ الذى عاشوا فيه « الوادىَ السعيد » ثم لم تلبث الأيام أن ذهبت بهذه الذكرى كما ذهبت بأصحابها ، لأن الناس أصبحوا ينطقون بهذه الأسماء ولا يفهمون معناها ، فوارحمتاه لهم لقد ضن الدهر عليهم بكل شىء حتى بالذكرى

وقد علمتُ بعد مرور بضع سنوات على هذه الحادثة أن تلك العمة القاسية التى ضنت بمالها على ابنة أخيها وتركتها تموت بؤساً وجوعاً فى هذه الجزيرة المنقطعة ، ثم حَرمتْ منه حفيدتها وتركتها تهلك يأساً وهما فى أعماق المحيط ، لقيتْ جزاء غلظتها وقسوتها ، فلم تسمع بخبر غرق فرجينى وموت أمها حتى أصابها مثل الجنون ، وملأت رأسَها الوساوس والهواجس ، فكانت تندبهما تارة وتبكى مصيرهما حتى

تُشرف على التلف ، وتهوّن على نفسها أمرهما تارة أخرى قائلة إنها لم تفعل شيئاً سوى أنها أبعدت العار عنها وعن أسرتها فكان ماقدر الله أن يكون ، وكانت تنقم أشد النقمة على الفقراء والمساكين كلما رأتهم فى طريقها فتصيح أما كان خيراً لهؤلاء الاشقياء أن يذهبوا الى المستعمرات الافريقية فيموتوا فيها ويريحونا من شرورهم وويلاتهم ، ثم لاتلبث أن تشعر بالعطف عليهم والرثاء لهم فتذهب الى الكنيسة بمال كثير تضعه فى صندوقها باسمهم ، كأنما تظن أن الله تعالى يغفر لها جرائمها وآثامها بهذه الرشوة التى تقدمها اليه ، وكانت لاتزال ترى فى يقظتها ومنامها . وقَوْمتها وقعدتها ، وذهوبها وجيئتها ، أشباحاً مخيفة تلوّح لها فى وجهها ، وتهددها أفظع تهديد وأهْوَله ، فتركض هاربة منها ، فتراها أمامها حيثما ذهبت ، وأينما حلت ، فتفزع إلى الكاهن تسأله أن يشفيها من دائها ، وماداؤها الا ذنوبها وآثامها التى أسلفتها . فاحيلة الكاهن فيها ، وكانت كلما مر بخاطرها أن أقرباءها البعيدين

الذين لاتحبهم ولا يحبونها سيرثونها من بعدها اشتدَّ ذلك عليها كثيراً ، فخرجت الى الطريق حاملة بدر الذهب فى يدها فتنثرها على الناس نثراً ، فرفع هؤلاء القوم أمرها إلى القضاء واتهموها بالجنون ، ولم يزالوا بها حتى أرسلوها إلى المارستان ، وسكنوا قصرها من بعدها ، ووضعوا أيديهم على مالها ، وكأن الله أراد أن يسقيها الكأس حتى ثمالتها فأبقى لها من الفهم والادراك ما تستطيع به أن تعلم أن مالها الذى تعبت كثيراً فى جمعه وتدبيره ، واقترفت كثيراً من الذنوب والآثام فى سبيل الاحتفاظ به ، والحرص عليه ، يتمتع به فى حياتها خصومها وأعداؤها ، فنال ذلك منها منالا عظيما ، ولم تلبث أن ماتت حاملة معها حسرتها الى قبرها

وكذلك ينتقم الله من الأشحّاء الذين يضنون بمالهم على أصحاب الحق فيه بنقله الى الأيدى التى لا تستحقه ، سنة الله التى لا تتبدل ولا تتغير

وصمت هنيهة ثم ألقى نظرة عامة على ما يدور حوله وأنشأ يقول

سلام عليكم أيها القوم الابرار ، والملائكة الاطهار ، لقد عشتم ماعشتم فى هذه الدار وأنتم غرباء عنها ، لاتعرفكم ولاتعرفونها ، ولا تأنس بكم ولا تأنسون بها ، لانكم من عنصر غير عنصرها ، وجوهر غير جوهرها ، ثم رحلتم عنها كما جئتم اليها ، لم يشعر بكم شاعر ، ولم يحفل بأمركم حافل ، فكنتم كحلم لذيذ ألم بالعيون الهاجعة ساعة ثم مضى لسبيله

هذه آثاركم عافية ، ودياركم خالية ، ومساكنكم لا يأوى اليها غير الضب واليربوع ، ولا يُسمع فيها غير الزئير والعواء ، فلا نور ولا نار ، ولا روض ولا ماء ، ولا ملعب ولا مرتع ، ولا حديث ولا سمر ، ولا عيز ولا أثر ، كأن وجودكم الدنيا بجمالها ولألائها ، وكأن ذهابكم القيامةُ التى تزلزل كل شىء ، وتأتى على كل شىء

سلام عليكم يا بَنى لقد كنتم أنسى وحياتى ، وسلوتى وعزائى ، ومتعة نفسى ، وراحة ضميرى ، والروضة الأُنُف

التى أقطف ما أشاء من أزهارها ورياحينهـا ، وألجأ الى ما أحب من ظلالها وأفيائها . أما اليوم فقـد سمُج وجه الدنيا فى نظرى، وأصبح عبء الحياة ثقيلا على عاتقى ، لا أستطيع احتماله ، ولا الاستقلال به

سلام عليك أيهـا الولد الطيب الكريم الذى نشأ فى تربة ساذَجة بسيطة ، فنشأ ساذجا بسيطا ، لاينال الناس بشر ، ولا يعتقد فى الناس شراً ، ولا يضمر فى نفسـه الا الوفاء والاخلاص - تى لكلبه وشاته ، والكوخ الذى يؤويه ، والظل الذى يفىء عليه

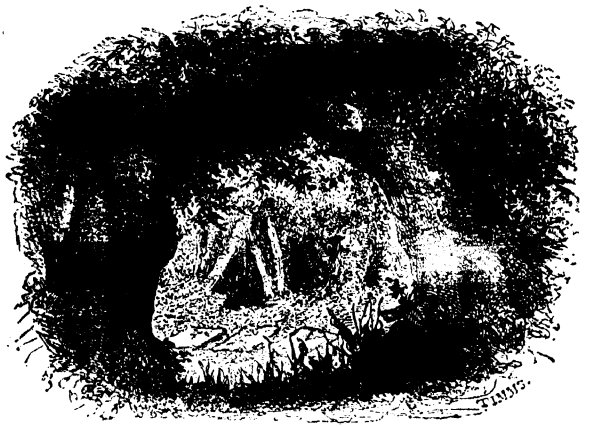
سلام عليك أيتهـا الفتاة الشريفة الطاهرة التى صيغ قلبها من الرحمة والشفقة ، فبكت البائس والفقير ، واليتيم الذى لاعائل له ، والارمل التى لامعين لهـا ، بكاء صادقاً لاتسمعه إلا أذن الليل ، ولا ترعاه إلا عيون الكواكب ، ولم يكن صدقها فى أدبها وحيائها، بأقل من صدقها فى رحمتها وإحسانها ، ففرت من قارة إلى أخرى حياء من نفسها ، ثم

فرت من العالم بأجمعه ضناً بجسمها أن تلمسه يد منقذها

سلام عليكما أيتها المرأتان الصابرتان اللتان عامّتا ولديهما الفضيلة ، وغذتاهما بلبانها ، فكانتا خير الامهات لخير الابناء . واللتان لم تسخطا فى حياتهما يوماً واحداً ولم تنقما ، ولم تشكو لأحد غير خالقهما ، على كثرة ما ألمّ بهما من المصايب ، ونالهما من الارزاء ، ثقة برحمة ربهما وإحسانه ، وسكونا لقضائه وقدره ، حتى خرجتا من دنياهما خروج السبيكة من البودقة طهارة وصفاء

سلام عليكما أيها الزنجيان المخلصان اللذان حفظا الصنيعة من حيث لايحفظها أحد ، وشكراها من حيث لايشكرها شاكر ، ولم يحل سواد جلدهما ، وخشونة منبتهما ، ووحشة نفسهما ، من أن يحملا بين جوانحهما عواطف الود والاخاء التى لايزال البيض فى أوربا ينشدونها فى كل مكان على ألسنة كتابهم وشعرائهم ، وخطبائهم ووعاظهم . رجاء الوصول اليها ، فلا يجدون اليها سبيلا

سلام عليكم يابنى من والدكم الحزين الباكى الذى بليت عظامكم فى قبرهاولم يبل ذكركم فى قلبه ، والذى ظل يختلف إلى واديكم عشرين عاماً ينـدبكم ويبكيكم ، ويسأل الله أن



« الوادى السعيد »

يلحقه بكم ، فلا يستتبّ له ما يريد

*
* *

ثم تناول عصاه واعتمد عليها ونهض قائماً كانما يقتلع

نفسه من الأرض اقتلاعا ، وكأنما قد خطا نحو القبر عشر سنوات كاملة فى تلك الساعات القليلة التى قضاها معى ، فاصبح هامة اليوم أوغد ، وكانت الشمس قد آذنت بالمغيب ، ولم يبق منها فى دائرة الافق الا كما يبقى فى جنبات الكاس من فضل الشراب ، فألقى عليها نظرة هادئة مطمئنة ، ثم مشى فى طريقه بخطوات بطيئة ، وأوصال مرتعدة ، ودموعه تنحدر على خديه انحدار المزنة الهاطلة ، فلبثت فى مكانى أنظر إليه وقلبى يذوب رحمة به واشفاقاً عليه ، حتى انحدر فى بعض البطون وغاب عن نظرى .

٢٧
النهاية

عدت إلى منزلى الذى أنزله وحاولت أن آوىَ إلى مضجعى فنبابى ، وأن أستزير الغمض فامتنع على ، وأن أهدأ فى مكانى ساعة واحدة فلم أستطع ، وكان أكبر مايشغلنى وينفر النوم عن عينىّ حالة ذلك الشيخ المسكين ، فقد هاجت تلك القصة التى قصها علىّ ألمادفينا فى نفسه وشجنا كامنا ، فاستحال فى بضع ساعات إلى هيكل من العظم تتردد أنفاسه فى صدره تردد الريح فى جوانب الهيكل الخرب ، وانصرف عنى يمشى مشية الطائر المذبوح يجر شِلوه جرا ، وتمثل لى أنه الآن طريح فراشه ، فى زاوية من زوايا كوخه ، يكابد آلام المرض أو آلام النزع من حيث لايعينه معين ، ولا يرحمه راحم ، فاشتدّ ذلك علىّ كثيراً ، وشعرت بشُعبه من شُعَب قلبى قد سقطت

وما أصبح الصباح حتى عقدت العزم على زيارته فى واديه على بعد الشقة بينى وبينه ، لأتفقد شأنه ، وأقضىَ حق صحبته ، فسلكت الطريق التى وصفها لي مرارا فى حديثه ، ولم أزل أصعد النجاد ، وأهبط الوهاد ، وأضل مرة ، وأهتدى أخرى ، حتى أشرفت مُنْزَلَقَ الشمس عن كبد السماء على كوخه المنفرد فى ذلك الوادى الموحش ، فانحدرت اليه وكنت أرجو أن أراه واقفاً على بابه ، أو جالساً على مقربة منه ، فلم يقع نظرى على شىء ، وكان السكون سائداً عميقاً لايَسمع فيه السامع نأمة ولا حركة ، كأنه سكون المقابر ، اللهم الا عصفوراً صغيراً كان يغرد من حين إلى آخر تغريدةً شجية مؤثرة ، كأنما هو يوقع لحناً من الألحان المحزنة على نغم واحد ، وميزان مطرد ، فرفعت نظرى اليه فاذا هو واقع على شجرة قصيرة منفردة أمام باب الكوخ ذكرتُ عند رؤيتها أنها الشجرةُ التى حدثنى الشيخ عنها أن فرجينى غرستها أمام كوخه منذ عهد بعيد ، وأنه يحبها كثيراً ويأنس بها

من أجلها ، فدنوتُ منها فراعنى أن رأيتُ تحتها شبحاً معفَّرا بالتراب ، فتبينته فاذا هو الشيخ ، فحركته فاذا هو ميت ، فهالنى الأمر وتعاظمنى ، وشعرت بقلبى يتمزق لوعة وأسى ، وبنفسى تسيل رحمة وإشفاقاً ، وقلت ياله من رجل مسكين : لقد مات ولا صديق يوسد رأسه أو يُسبل أجفانه ، ولا عين تبكى عليه غير عين ذلك العصفور الصغير الذى ينوح فوق رأسه

*
* *

ولم ينقض اليوم حتى دفناه تحت تلك الشجرة التى مات تحتها ، والتى كان يحبها ويأنس بها ، ثم انصرفنا

ولا عينَ الا وهى عينٌ من البكا
ولا خدَّ الا للدموع به خدُّ

انتهت

بول وفرجينى

يابنى القفرِ سلامٌ عاطر ... من بنى الدُّنيا عليكم وثناءْ
وسقى العارضُ من أكواخكم ... معهدَ الصدق ومهدَ الأتقياءْ
كنتمُ خيرَ بنى الدنيا ومَن ... سَعِدُوا فيها وماتوا سُعَداءْ
عِشتمُ من فقركم فى غِبطةٍ ... ومن القِلةِ فى عيش رخاءْ
لاخصامٌ ، لامراءٌ بينكم ... لاخداعٌ ، لانفاقٌ ، لارياءْ
خُلُقٌ بَرٌّ وقلبٌ طاهرٌ ... مثلُ كأسِ الخمرِ معنًى وصفاءْ
ووفاءٌ ثبت الحبُّ به ... وثباتُ الحبِّ فى الناس الوفاءْ
أصبحت قصتُكم مُعتَبَرًا ... فى البرايا وعزاءَ البؤَساءْ
يَجتلى الناظرُ فيها حكمةً ... لم يُسطّرها يَراعُ الحكماءْ
حِكمٌ لم تقرأوا فى كُتْبها ... غير أنْ طالعتمُ صُحُفَ الفضاءْ
وكتابُ الكون فيه صُحُفٌ ... يقرأُ الحكمةَ فيها العقلاءْ

***

إنّ عيش المرءِ فى وَحدته ... خيرُ عيش كافلٍ خيرَ هناءْ
فالورى شرٌّ وهمٌّ دائمٌ ... وشقاءٌ ليس يحكيه شقاءْ

وفقيرٌ لغنيٍّ حاسـد وغنيٌّ يستذل الفقراءْ
وقويٌّ لضعيف ظالمٌ وضعيفٌ من قويّ فى عناءْ
فى فضاء الأرض مناًى عنهمُ ونجاءٌ منهـمُ أىُّ نجاءْ
إنّ عيشَ المرءِ فيهم ذلةٌ وحياةُ الذلّ والموتُ سواءْ

***

ليتَ (فرجينى) أطاعت (بولساً) وأنالتهُ مُناهُ فى البقاءْ
وَرَثت للأدمعُ اللاّتى جرت من عيون مادرت كيف البكاءْ
لم يكن من رأيها فرقَتُه ساعةً لـكنه رأى القضاءْ
فارقتـه لم تـكن عالمةً أنّ يوم الملتقى يوم اللّقـاءْ

***

ما (لفرجينى) و(باريس) أما كان فى القفر عن الدنيا غَناءْ
إن هذا المـال كأسٌ مُزجت قطرةُ الصهباءِ فيـه بدماءْ
لا ينال المرءُ منـه جرعةً لم يكن فى طيّها داءٌ عَياءْ
عَرَضوا المجد عليها باهراً يُدْهش الألباب حُسناً ورواءْ
وأرَوْها زخرفَ الدنيا وما راق فيها من نعيمٍ وثَراءْ
فأبته وأبى الحبُّ لهـا نقضَ ما أبرمه عهدُ الإخاءْ

ودعاها الشوقُ للقفر وما ضَمَّ من خيرٍ إليه وهناءْ
فغدت أهواؤُها طائرة بجناح الشوق يزجيها الرجاءْ
يَأمُلُ الإنسانُ مايأمُلهُ وقضاء الله فى الكون وَراءْ

⁂

ما لهذا الجوّ أمسى قاتماً يُنذر الناسَ بويلٍ وبلاءْ
مالهذا البحر أضحى مائجاً كبناء شامخٍ فوق بناءْ
وكأن الفُلك فى أمواجه ريشة تحملُها كفُّ الهواءْ
و « لفرجينى » يدٌ مبسوطة بدعاء حين لايُجدى دُعاءْ

⁂

لَهَفي والماء يَطفُو فوقَه هيكلُ الحسن وتمثالُ الضياء
زهرةٌ فى الروض كانت غضةً تملأُ الدنيا جمالاً وبهاء
من يراها لايراها خُلقت مثل خلق الناس من طين وماءْ
ظنَّتْ البحرَ سماءً فهوت لتبارى فيه أملاكَ السَّماءْ
هكذا الدنيا وهذا منتهى كلّ حيٍّ ، ما لحيّ من بقاءْ

مصطفى لطفى المنفلوطى

﴿ فهرس الفضيلة ﴾

صفحة		صفحة	
٦	اهداء الرواية	١٥١	الخفقة الاولى
٧	ترجمة المؤلف	١٧٠	الرسالة
٢٢	حزيرة موريس	١٧٨	الوداع
٢٦	الشيخ	٢٠٦	السفر
٣٢	مدام دى لاتور	٢٢٢	أوربا
٣٧	مرغريت	٢٣٦	الطبيعة
٤٩	الحياة الطبيعية	٢٥٢	الحديث
٥٨	حياة الطفولة	٢٦٤	السفينة
٧٦	العزاء	٢٧٣	العاصفة
٧٨	الاستعمار الأوربي	٢٧٧	الكارثة
١٠٥	السعادة	٢٩٥	أحزان بول
١٠٩	العمل	٣٠٥	الموت
١١٥	التاريخ	٣٠٩	الايمان
١٢٠	مخدع فرجيني	٣٢٣	النهاية
١٢٨	ليالى الشتاء	٣٢٦	بول وفرجيني « قصيدة »
١٤١	آدم وحواء		

﴿ تم الفهرس ﴾